المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

آرثر كيسلر

ظلام فى الظهيرة

ترجمة

رمسيس عوض

1636



سلسلة الإبداع القصصى



المركز القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى

المشــرف على السلسلة : خـيــرى دومـــة

- العدد: 1636
- ظلام فى الظهيرة
- آرثر كيسلر
- رمسيس عوض
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة رواية:

Darkness at Noon

By: Arthur Koestler

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo.

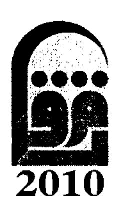
E.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

ظلام فى الظهيرة

(رواية)

تـأليـف: آرثـر كيسـلر

ترجمـة: رمسيس عوض



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كيسلر؛ آرثر

ظلام فى الظهيرة؛ تأليف: آرثر كيسلر؛ ترجمة: رمسيس عوض؛

ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠

٣٦٤ ص؛ ٢٠ سم

١ - القصص الإنجليزية

(أ) عوض ، رمسيس . (مترجم)

(ب) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ١٣٧٨٣ / ٢٠١٠

الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 704 - 152 - 2

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتـــويات

جلسة الاستماع الأولى

" لايستطيع أحد أن يحكم دون أن يرتكب وزرا"
(سان جوست)

(١)

اصطفق باب الزنزانة خلف روباشوف، الذى ظل متكئا على الباب لبضع ثوان ثم أشعل لفافة تبغ.

كان هناك إلى يمينه سرير عليه غطاءان نظيفان، وإلى شماله حوض بلا سدادة ، لكن الصنبور كان صالحا للاستخدام. أما الصفيحة، التى كانت بجوار الحوض فلم يكن قد مضى على تطهيرها وقت طويل؛ إذ لم تكن تنبعث منها روائح كريهة. وكانت الجدران من الطوب المتين، الذى يخمد صوت النقر عليه، إلا أن مواضع اختراق أنابيب التدفئة والصرف للجدران كانت مرممة وجيدة التوصيل للصوت مثلها مثل أنابيب التدفئة نفسها، وكانت قاعدة النافذة تبدأ عند مستوى

النظر بحيث يمكن الإطلال منها على الفناء دون الحاجة إلى الشب والوقوف على أطراف الأقدام والتعلق بالقضبان.

حتى الآن كان كل شيء على ما يرام.....

تثاءب روباشوف ثم خلع معطفه وطواه ووضعه على الحشية (المرتبة) كوسادة، ثم نظر من النافذة إلى الفناء حيث كان الثلج يومض وميضا أصفر مبعثه انعكاس ضوء مزدوج من القمر والمصابيح الكهربائية، وحول جدران الفناء كان هنا طريق ضيق أعد للتريض اليومي.

لم يكن الفجر قد بزغ بعد فقد كانت النجوم لا تزال تطل ساطعة جامدة رغم ضوء المصابيح، وعلى سور الجدار الخارجي المقابل لزنزانة روباشوف كان هناك جندي يسير ممتشقا بندقيته المائلة، يخطو المائة خطوة جيئة وذهابا، ويضرب الأرض بقدميه في كل خطوة كما لو كان في عرض عسكري، وكان ضوء المصابيح الأصفر يومض من وقت لآخر على سونكي بندقيته.

خلع روباشوف حذاءه وهو ما زال واقفا أمام النافذة، ثم أطفأ لفافة التبغ وألقى بعقبها على الأرض عند مؤخرة السرير، وظل جالسا على الحشية بضع دقائق ثم عاد من جديد إلى النافذة فوجد الفناء ساكنا، وكان الحارس قد استدار لتوه واستطاع روباشوف أن يرى شعاع مجرة درب التبانة فوق برج المدفعية.

تمدد روباشوف على السرير والتحف بالغطاء الأعلى، كانت الساعة الخامسة حينئذ. ولم يكن من المعتاد فى الشتاء أن يستيقظ أحد فى هذا المكان قبل الساعة السابعة. أخذ النعاس يغالبه وانتهى به تفكيره إلى أنه لن يُطلب للتحقيق قبل ثلاثة أو أربعة أيام فخلع نظارته(*) ووضعها على الأرض الحجرية بجانب عقب لفافة التبغ ثم ابتسم وأغلق عينيه.

شعر بالدفء والأمان تحت الغطاء، ولأول مرة منذ عدة شهور – لم يكن خائفا من أحلامه، وحينما أطفأ الحارس النور من الخارج بعد بضع دقائق ثم ألقى نظرة من الكوة إلى داخل الزنزانة، كان روباشوف، القوميسار بالحزب الشيوعى سابقا، نائما وظهره للحائط ورأسه على ذراعه اليسرى، التى كانت ممتدة خارج السرير، لكن كفه المتدلى فى نهاية ذراعه كان يختلج بعصبية فى أثناء نومه.

(٢)

منذ ساعة مضت حينما كان مسئولان من مفوضية الشعب الداخلية يقرعان بعنف باب روباشوف للقبض عليه، كان روباشوف يحلم بأنهم يقبضون عليه بالفعل. وارتفع صوت قرع الباب وجاهد روباشوف بكل قواه أن يستيقظ فقد اعتاد أن ينتزع نفسه من الكوابيس، حيث إن

(*) الكلمة فى الأصل pince-nez وهى عوينات بلا ذراعين تثبت على الأنف ، وتسهيلا على القارئ أثرت ترجمتها بالنظارة (المترجم)

حلم القبض عليه لأول مرة ظل يعاوده بانتظام منذ عدة سنوات. وفى بعض الأحيان كان يتمكن بإرادة قوية من إيقاف هذا الانتظام فى مداهمة الكابوس له فى أثناء نومه ومن انتزاع نفسه من هذا الحلم المزعج، لكنه لم ينجح فى هذه المرة فقد أرهقته الأسابيع الأخيرة فبات يتصبب عرقا ويلهث فى أثناء نومه والحلم لا يزال مستمرا...

كان يحلم كعادته أن هناك طرقا على بابه وأن ثلاثة رجال يقفون فى الخارج للقبض عليه، كان يراهم من خلف الباب المغلق يضربون بعنف على إطاره، وهم يرتدون زيًا جديداً تماما، ذلك الزى الذى أصبح سمة للحرس البريتورى، حرس الدكتاتورية الألمانية. وكانوا يضعون شارة السلطة المميزة وهى الصليب المعقوف نو الطابع العدوانى المستفز على أغطية رءوسهم وعلى أكمامهم، ويحملون فى أيديهم مسدسات كبيرة بدرجة غريبة، أما أحزمتهم فكان لها رائحة الجلد الحديث الدبغ.

وحينما دخلوا الحجرة ووقفوا بجانب سريره، تبين أن اثنين منهم من أبناء الفلاحين ذوى الأجسام النامية والشفاه الغليظة والأعين الجامدة الخالية من التعبير. أما الثالث فكان قصيرا وبدينا. وقفوا جميعا بجانب سريره شاهرين مسدساتهم فى أيديهم ولم يكن هناك شىء يخدش سكون الحجرة سوى لهاث الفتى القصير البدين من أثر الربو حتى فتح أحد سكان الطابق العلوى سدادة الحوض فاندفع الماء يجرى فى أنابيب المياه المثبتة فى الحائط.

أشـرف الحلم المنتظم على الانتـهـاء. وارتفع صـوت طرق باب روباشـوف. وكـان الرجلان الواقـفـان فى الخـارج، اللذان جـاءا من أجل القـبض عليـه، يتناوبان الطرق وينفـخـان فى أيديهـمـا المتـجـمـدة. لكن روباشـوف لم يتـمكن من الاسـتـيـقـاظ علي الرغم من أنه كـان يعلم أن المشـهد التـالي سيكون مؤلما: فـالثلاثة مازالوا يقفون بجانب سريره وهو يحـاول أن يرتدى مـعطفـه، لكن كـمه كـان مقلوبا فلم يتـمكن من إدخـال ذراعه فيه. وحـاول عبثـا أن يشده دون جدوى حتى اعترى جسده شلل ولم يستطع التحرك على الرغم من أن كل شيء كان متوقفا على ارتدائه الكم فـى الوقت المحـدد. واسـتـمـر هـذا العـجـز المخـيف لعـدة ثوان كـان روباشوف خلالها يئن ويشـعر بعرق بارد على صـدغيه، ثم بدأ طرق بابه يتـسلل إليـه فى منامـه كـقـرع للطبول يأتـى من بعيـد. وكـان ذراعـه تحت الوسـادة يخـتلج فى مـحـاولة مـحـمومة بـاحـثـا عن كم ردائه. وفى النهاية أيقظته الضربة الأولى على أذنه بمؤخرة المسدس.... وكان دائما يستيقظ على هذا الإحسـاس المألوف بتلك الضربـة الأولى، التى كـانت السبب فى إصـابتـه بالصمم. ذلك الإحساس الذى مـا فتئ يتكرر مئات المرات فيظل بعـده يرتعش لفـتـرة من الوقت وتسـتـمـر يده تحت الوسـادة فـى مـحـاولة العثور على كم ردائه؛ لأنه كـالعـادة قبل أن يستيقظ تمـامـا كـان عليـه أن يمر بآخر المراحل وأصعبها. وكان يشـعر خلالها بدوار وبإحساس مبهم بأن هذا الاستيقاظ هو الحلم الحقيقى وأنه فى الواقع لا يزال يرقد على

الأرض الصلبة الرطبة فى الزنزانة المظلمة، وتحت قدميه الصفيحة وإلى جانب رأسه دورق الماء وبعض كسرات الخبز.

فى هذه المرة أيضا ولبضع دقائق، عاودته حالة الذهول والحيرة فلم يعد يعلم ما إذا كانت يده التى تتلمس طريقها سوف تلمس الصفيحة أو مفتاح المصباح بجانب سريره. ثم سطع النور وانقشع الضباب، وتنفس روباشوف الصعداء عدة مرات كمريض تماثل للشفاء، يداه مطويتان على صدره وهو يستمتع بلذة الشعور بالحرية والأمان، ثم جفف جبينه ومؤخرة رأسه الصلعاء بالملاءة ونظر بسخرية إلى صورة رقم (١)، قائد الحزب، التى كانت معلقة فوق سريره على جدار غرفته وعلى جدران جميع الغرف المجاورة وكذلك جميع الغرف فوقه وتحته وجميع غرف المنزل والمدينة والبلد الكبير، الذى حارب وعانى من أجله والذى يحتويه الآن فى حضنه الكبير الآمن. لقد استيقظ الآن تماما، لكن قرع الباب ما زال مستمرا...

(٣)

وقف الرجلان اللذان جاءا من أجل إلقاء القبض على روباشوف يتشاوران على السلم المظلم فى الخارج. وكان الحارس فاسيليج الذى أرشدهما إلى الطريق أعلى السلم متكئا على باب المصعد المفتوح يلهث من الخوف؛ كان رجلا طويلا وعجوزا وكانت تظهر فوق الياقة البالية التى تعلو معطفه العسكرى – الذى ارتداه على عجل فوق ملابس نومه –

ندبة حمراء كبيرة تضفى عليه دمامة، وقد كانت هذه العلامة من أثر جرح بالرقبة أصابه فى الحرب الأهلية، التى خاضها وهو يحارب فى صفوف الفيلق الموالى لروباشوف. وبعد ذلك صدر أمر لروباشوف بالسفر إلى الخارج ولم تعد أخباره تصل لفاسيليج إلا لماما وبالمصادفة من الجرائد التى كانت تقرأها عليه ابنته فى المساء، فقد كانت تقرأ له الخطب التى يلقيها روباشوف أمام الهيئات التشريعية العليا. تلك الخطب الطويلة الصعبة الفهم، لم يكن فاسيليج يجد فيها نغمة صوت قائد الحزب ذى اللحية الصغيرة، الذى كان يتفوه بالهزر غير المحتشم على نحو كفيل بإضحاك العذراء مريم الوقورة فى لوحة كازان(*).

كان فاسيليج عادة يغفو فى أثناء سماعه هذه الخطب ، لكنه كان يستيقظ عندما ترفع ابنته صوتها بوقار؛ لتقرأ الجملة الأخيرة فيها وما يتلوها من هتافات. وكان فاسيليج حينما ترد أى من عبارات الهتاف التقليدية مثل "عاشت الدولية الشيوعية" "عاشت الثورة" "عاش" (رقم١) ينطق بكلمة "آمين" فى صوت خفيض حتى لا تسمعه ابنته، ثم يخلع سترته ويتسلل بضمير غير مستريح إلى فراشه الذى كان تعلوه صورة لرقم(١) وصورة قديمة لروباشوف ظهر فيها كقائد من قواد الحزب، تلك

(*) لوحة للسيدة العذراء وهى جادة عابسة، رسمها الفنان إيليا كازان ويضرب بها المثل فى الجدية .(المترجم)

الصورة التى إذا ما اكتشفت بحوزة الحارس الآن فسوف يلقون القبض عليه هو الآخر.

كانت البرودة والظلمة والسكون تخيم جميعها على السلم، واقترح أصغر الرجلين التابعين للمفوضية الداخلية أن يطلق الرصاص على مغلاق الباب ليحطمه. وقد كان فاسيليج متكئا على باب المصعد، ولم يكن قد تمكن من ارتداء حذائه جيدا كما كانت يداه ترتعشان إلى درجة لم يستطع معها ربط الحذاء. أما أكبر الرجلين فكانا ضد إطلاق الرصاص ؛ لأن عملية القبض كان ولابد أن تتم فى روية؛ فنفخ كلاهما فى يديه المتيبستين وواصلا قرع الباب، ثم ضرب أصغرهما الباب بمؤخرة مسدسه بشدة فصرخت امرأة من أحد الطوابق السفلية بصوت حاد، فقال الرجل الأصغر لفاسيليج. "مرها بالسكوت" فصاح فاسيليج "اسكتى... هنا السلطة"، فصمتت المرأة على الفور، ثم بدأ الرجل الأصغر يضرب الباب بحذائه فانتشر الصوت فى أرجاء السلم وفى النهاية فتح الباب.

وقف ثلاثتهم بجانب سرير روباشوف؛ فكان الرجل الصغير يقف ممسكا مسدسه فى يده والرجل الكبير يقف منتصبا بصرامة، كما لو كان فى وضع "انتباه"، أما فاسيليج فقد وقف بعيدا عنهم بخطوات متكئا على الحائط. وكان روباشوف لا يزال يجفف العرق المتصبب من مؤخرة رأسه فنظر إليهم بنظرة مجهدة ناعسة وقال أصغر الرجلين: "المواطن روباشوف نيكولا سالمانوفيتش مطلوب القبض عليه باسم القانون".

تحسس روباشوف تحت وسادته ليجد نظارته ثم هم بالنهوض قليلا وحينما لبس النظارة بدا فى عينيه التعبير الذى كان يعرفه فاسيليج والمسئول الأكبر، الذى جاء للقبض عليه، من الصور واللوحات المنشورة القديمة فوقف المسئول الأكبر بانتباه زائد، أما المسئول الأصغر الذى كان قد نما فى ظل أبطال جدد فقد دنا من السرير، وشعر الثلاثة بأنه هذا المسئول الأصغر سوف يأتى بقول أو فعل عنيف ليخفف ما يشعر به من ارتباك فقال روباشوف للشاب: "ابعد هذا المسدس أيها الرفيق ماذا تريد منى؟"

فقال الفتى: "لقد سمعت أنه مطلوب القبض عليك فارتد ملابسك دون ثرثرة".

قال روباشوف: "هل لديكم أمر بالقبض علىّ؟" فأخرج المسئول الأكبر ورقة من جيبه وأعطاه إياها، ثم عاد إلى الوضع الذى كان عليه فقرأها روباشوف بعناية ، قم قال: "حسنا" فالمرء لا يمكن أن يكون له من الذكاء ما يفوق كيدكم... قاتلكم الله".

فقال الفتى: "أسرع وارتد ملابسك".

كان من الملاحظ أن وحشيته لم تكن مصطنعة، بل كانت طبعا فيه فقال روباشوف فى نفسه: وها نحن قد أخرجنا جيلا رائعا وتذكر لافتات الدعاية التى كان الشباب يظهرون فيها دائما باسمى الثغر، ثم شعر

بتعب شديد وقال للفتى "أعطنى معطفى بدلا من تحسسك مسدسك بارتباك"، فاحمر وجه الفتى لكنه ظل صامتا، ثم ناول المسئول الأكبر المعطف لروباشوف الذى بدأ إدخال ذراعه فى كمه ثم قال بابتسامة متكلفة. "على الأقل هذه المرة ارتديته بسهولة". لكن الثلاثة لم يفهموا قصده ولم يتفوهوا بكلمة، وظلوا يراقبونه وهو ينهض من سريره ببطء ويحاول هندمة ملابسه. كان المنزل ساكنا بعد الصرخة الحادة الوحيدة التى أطلقتها المرأة، لكنهم كانوا يشعرون بأن جميع السكان مستيقظون فى أسرتهم ينكمشون خوفا، ثم سمعوا أحد السكان فى الطابق العلوى يرفع سدادة الحوض فاندفع الماء يجرى فى أنابيب المياه.

(٤)

كانت السيارة التى حضر فيها المسئولان للقبض على روباشوف تقف أمام الباب الخارجى، وقد كانت سيارة جديدة أمريكية الصنع وكان الظلام لا يزال سائدا، فأنار السائق المصابيح الأمامية بينما كان الشارع نائما أو كان يدعى النوم.

دخل الفتى فى السيارة أولا ثم تلاه روباشوف ثم المسئول الأكبر، وبدأ السائق الذى كان يرتدى بدوره زيا عسكريا فى تشغيل السيارة. انقطع الطريق الأسفلتى بعد المنحنى وهم لا يزالون فى قلب المدينة، حيث كانت تحيط بهم المبانى الحديثة العالية التى تتكون من تسعة أو عشرة طوابق، لكن الطرق كانت غير ممهدة كشوارع القرى التى لا

تصلح إلا للعربات التى تجرها الدواب، وكانت مغطاة بالطين المجمد الذى يتناثر فى شقوقه الثلج المسحوق، وكان السائق يقود السيارة الضخمة ببطء شديد مما جعلها تبعث بأصوات صرير وأنين كعربة تجرها الثيران.

ثم قال الفتى الذى لم يكن يستطيع تحمل جو السكون بالسيارة: "عليك بالسرعة أيها السائق"، فهز السائق كتفيه دون أن يلتفت إليه. كان السائق قد رمق روباشوف حين دخل السيارة بنظرة لا مبالاة وعداء مثل تلك التى تلقاها روباشوف من سائق سيارة الإسعاف عندما أصيب فى حادث ذات مرة. كان من الصعب تحمل السير البطىء المهتز بعنف عبر الشوارع الساكنة، وفى الضوء المرتعش الذى تبعث به المصابيح الأمامية قال روباشوف، دون أن ينظر إلى رفاقه، "كم تبعد المسافة؟" وسكت. كان على وشك أن يضيف "إلى المستشفى" فرد الرجل الأكبر: "حوالى نصف ساعة" أخرج روباشوف علبة لفافات تبغ من جيبه ووضع واحدة فى فمه ثم مرر العلبة عليهم بطريقة آلية، فرفض الرجل الصغير بشدة، أما الكبير فأخذ اثنتين أعطى واحدة منهما للسائق، الذى شكره بلمس قبعته بيده ثم أشعل لفافات التبغ للجميع وهو يمسك عجلة القيادة بيد واحدة، وبذلك روح روباشوف عن قلبه بعض الشىء لكنه أنَّب نفسه عما فعل، وقال لنفسه إن المرء يضعف فى مثل هذه الأوقات، فضلا عن أن العواطف الجياشة أحرى بأن تستحوذ عليه، ورغم ذلك لم يستطع مقاومة

إغراء التحدث حتى يشيع حوله جوٌ فيه بعض الدفء الإنساني. فقال: "وأسفاه على السيارة فالسيارات المستوردة تكلف ثمنا باهظا، لكنها تستهلك بعد سنة من السير في طرقاتنا". فقال المسئول الأكبر سنا: "معك حق إن طرقاتنا متخلفة جدا".

شعر روباشوف من نبرات صوت الرجل الذى تفضل بالرد عليه أنه يدرك مدى عجزه، فأحس كأنه كلب ألقيت إليه عظمة وقرر ألا يتكلم ثانية، لكن فجأة تكلم الفتى بنبرة عدائية:

هل الطرقات أفضل من ذلك فى الدول الرأسمالية؟" فقال روباشوف بابتسامة عريضة: "هل سافرت إلى الخارج من قبل؟" فقال الفتى: "أنا أعرف تمام المعرفة الحال هنا ولا تحاول أن تقص علىّ قصصا من نسج الخيال فى هذا الشأن". فقال روباشوف بهدوء: "من تظننى بالضبط؟" ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يقول: "يجب عليك فى الحقيقة أن تدرس شيئا عن تاريخ الحزب". فسكت الفتى ووجه نظره إلى ظهر السائق ولم يتفوه أحد بكلمة، وللمرة الثالثة أوقف السائق محرك السيارة المجهد ليديره من جديد وهو يلعن ويسب. وظل ركاب السيارة يهتزون فى ركوبهم عبر الضواحى فى حين لم يتغير منظر المساكن الخشبية، التى كان القمر الذى بدا باردا شاحبا يبرز صورة خطوطها الخارجية المتعرجة.

(٥)

كانت المصابيح الكهربائية تضىء جميع طرقات السجن المبنى على الطراز الحديث، وكان ضوؤها يسطع بكآبة على الأعمدة الحديدية وعلى

الجدران العارية البيضاء وعلى أبواب الزنزانات؛ حيث بطاقات الأسماء والثقوب السوداء. كان الضوء الشاحب وصوت خطواتهم العالى عديم الصدى على الأرض المبلطة مألوفا لدى روباشوف، حتى إنه لبضع دقائق كان يوهم نفسه بأنه يحلم من جديد، فكان يحاول أن يقنع نفسه بأن كل ما يحدث ليس بحقيقة، وقال فى نفسه: "لو نجحت فى إقناع نفسى أننى أحلم فسوف يكون هذا حلما بالفعل....".

وحاول بشدة أن يفعل ذلك لدرجة أنه كاد يصاب بدوار، لكن فجأة خالجه شعور خانق بالخزى وقال فى نفسه: "يجب أن أتخطى هذه المرحلة نهائيا".

وصلوا إلى الزنزانة رقم (٤٠٤) حيث كان اسم نيكولا سالمانوفيتش روباشوف مكتوبا على البطاقة فوق ثقب المفتاح، وقال فى نفسه: "لقد جهزوا كل شىء بطريقة لطيفة"، وظهر عليه انطباع غريب عندما رأى اسمه على البطاقة، وأراد أن يطلب من السجان غطاء آخر، لكن الباب كان قد أغلق دونه.

(٦)

كان السجان يأتى بانتظام لينظر من ثقب المفتاح إلى داخل زنزانة روباشوف؛ حيث كان يرقد بهدوء فوق السرير. وكانت يداه فقط ترتعشان من وقت لآخر فى أثناء نومه وكانت نظارته ملقاة على الأرض

بجانب عقب لفافة التبغ إلى جوار السرير. وفى الساعة السابعة صباحا وبعد مجيئه بساعتين إلى الزنزانة رقم (٤٠٤) استيقظ صافى الذهن على صوت النفير بعد أن كان قد استغرق فى النوم بلا أحلام، وكرر النفير نفس الصوت المدوى ثلاث مرات، ثم ضاع صدى صوت النغمة المرتعشة وبقى السكون البغيض الذى ينذر بالشر. لم يكن النهار قد طلع بعد وكان الضوء المعتم يخفف من تأثير الشكل الخارجى للصفيحة والحوض. كانت ظلال قضبان النافذة السوداء تظهر على الزجاج القذر، كما غطت قطعة من ورق الجرائد أعلى الجانب الأيسر للنافذة المكسورة. جلس روباشوف يتحسس نظارته وعقب سيجارته عند مؤخرة السرير، ثم استلقى من جديد ولبس نظارته وتمكن من إشعال عقب اللفافة. كان السكون لا يزال يخيم على الزنزانات ذوات الجدران البيضاء، التى تشبه خلية نحل صنعت من الخرسانة، فقد كان الرجال ينهضون فى وقت واحد من أسرتهم يلعنون ويتحسسون طريقهم على الأرض، أما زنزانات الحبس الانفرادى فلم يكن من الممكن سماع أى صوت من خلالها إلا صوت الخطوات المتباعدة، الذى يسمع بين الحين والحين فى الطرقات. كان روباشوف يعرف أنه فى حبس انفرادى وأن عليه أن ينتظر حتى يعدم رميا بالرصاص، فمرر أصابعه على لحيته القصيرة المستدقة الطرف ودخن بقايا لفافته وهو مستلق بلا حراك.

قال روباشوف فى نفسه: "إذن فسوف يطلقون علىَّ الرصاص"، ثم

نظر بعينين طارفتين إلى حركة أصبع قدمه وهو فى وضع رأسى عند مؤخرة السرير، ثم شعر بدفء وأمن وتعب شديد، وفى هذه الحالة لم يكن لديه مانع من أن يغفو حتى يدركه الموت إذا ما تركوه يطيل الرقاد تحت الغطاء الدافئ... ثم قال لنفسه: "إذن فسوف يطلقون عليك الرصاص" ثم حرك أصابعه ببطء داخل الجورب حين تذكر مقطعا شعريا يشبه قدمى المسيح برو(*) أبيض وسط شجيرة شائكة ثم مسح نظارته فى كمه بحركة مألوفة لدى جميع أتباعه. كان يشعر بسعادة بالغة تحت دفء الغطاء، لكنه كان يخاف شيئا واحدا هو النهوض والحركة. ثم قال لنفسه بصوت مرتفع إلى حد ما: "إذن فسوف يقتلونك". وأشعل لفافة تبغ أخرى على الرغم من أنه لم يتبق معه سوى ثلاث. كان التدخين وهو جائع يشعره فى بعض الأحيان بأنه ثمل إلى حد ما، وقد كان هذا الشعور المثير الذى ألفه من تجاربه السابقة عند إحساسه بدنو أجله يعتريه بالفعل.

وكان يعرف فى الوقت نفسه أن هذه الحالة غير جديرة بالاحترام، بل وغير مقبولة من وجهة نظر البعض، لكنه لم يكن يميل إلى الأخذ بوجهة النظر هذه فى الوقت الحالى. وبدلا من ذلك أخذ يراقب أصابعه التى تلعب فى داخل الجورب. ثم ابتسم واعترته موجة من الإشفاق على جسده الذى لم يكن يعجبه فى أغلب الأحيان. ولما طغى عليه التفكير فى فنائه المحتوم امتلأ بالإشفاق على نفسه وقال: "لقد مات الحرس القديم

(*) نوع من الأيائل. (المترجم)

ونحن آخر من بقى منه ولسوف نتحطم؛ لأن التراب هو مآل النابهين ذكورا كانوا أم إناثا لا فرق فى ذلك بينهم وبين منظفى المداخن". وحاول أن يتذكر نغمة أغنية "إلى التراب مآلهم" ولكن لم يستطع تذكر شىء غير الكلمات، وأخذ يعيد من جديد: "لقد مات الحرس القديم" محاولا تذكر وجوههم، ولكنه لم يستطع أن يتذكر سوى بعضهم فقط. تذكر وجه الرئيس الأول لمؤتمر الدولية الشيوعى الذى أعدم بتهمة الخيانة، واستطاع أن يستحضر فقط إلى ذهنه الصديرى ذا النقوش المربعة الذى كان يرتديه على بطنه الممتلئ بعض الشىء ولم يكن يرتدى الحمالات قط، بل كان يرتدى حزاما من الجلد. أما الوجه الثانى الذى تذكره فكان لرئيس وزراء الدولة الثورية الذى تم إعدامه أيضا، وكان من عادته أن يقرض أظافره فى لحظات الخطر. ثم قال روباشوف فى نفسه وهو خالى الذهن من أية أحكام خاصة "التاريخ سوف يرد إليك اعتبارك.. لكنه ماذا يعرف التاريخ عن قرض الأظافر؟" ثم دخن لفافة تبغ وبدأ يفكر فى الأموات وفى الإهانات التى تعرضوا لها قبل موتهم. وعلى الرغم من كل ذلك فإنه لم يستطع أن يحمل نفسه على كراهية رقم (١) الجدير بمثل تلك الكراهية.

وكان ينظر من حين إلى آخر إلى صورة رقم (١) الملونة المعلقة فوق سريره محاولا أن يستشعر البغض نحوها، وكان رجال الحزب فيما بينهم قد أطلقوا عليه عدة أسماء لم يعلق بالأذهان منها سوى اسم رقم

(١). كان الرعب الذى أثاره رقم (١) فى النفوس يرجع إلى احتمال أن يكون الرجل دائما على صواب، وأن جميع من قتلهم كان عليهم الإقرار ولو تحت ضغط التهديد بالموت بأنه من المحتمل أن يكون على صواب.

لم يكن ثمة يقين يحتكم إليه الناس سوى نبوءات السحر التى يطلق عليها ما يسمى بالتاريخ، الذى لا يصدر حكمه إلا بعد فناء المحكوم عليه بزمن بعيد. شعر روباشوف بأن شخصا ما يراقبه من ثقب الباب... دون أن ينظر كان يعرف أن هناك عينا تلتصق بهذا الثقب وتحملق فى زنزانته. وبعد لحظات سمع صوت المفتاح يفتح القفل الثقيل بصعوبة. واستغرق فتح الباب فترة، ثم ظهر أمامه سجان مسن وضئيل الحجم يرتدى فى قدميه خفا. قال له السجان: "لماذا لم تنهض؟" فرد روباشوف "لأنى مريض" فقال: "ماذا بك؟ لا يمكن أخذك إلى الطبيب قبل الغد".

قال روباشوف: "أسنانى تؤلمنى" فقال السجان وهو يجر قدميه ويغلق الباب بعنف: "أسنانك تؤلمك؟ أهذا صحيح؟".

قال روباشوف فى نفسه: "والآن يمكننى على الأقل أن أرقد هنا فى سكون". لكنه لم يعد يشعر بسعادة فقد تحول دفء الغطاء إلى مصدر قلق له فأماطه عنه. وبدأ من جديد فى مراقبة حركات أصابع قدميه، لكنه سرعان ما مل ذلك. كان كعبا جوربه ممزقين فأراد أن يرتقهما، لكن فكرة طرق الباب وطلب خيط وإبرة من السجان منعته من ذلك ، فلن يعطوه إبرة على أية حال، ثم شعر فجأة برغبة عارمة فى الحصول على

جريدة لدرجة أنه كان يشم رائحة حبر الطباعة ويسمع خشخشة الصفحات، فلربما تكون ثورة قد اندلعت ليلة أمس أو يكون رئيس الدولة قد قتل، أو لعل هناك أمريكيا قد اكتشف طريقة لإبطال مفعول الجاذبية الأرضية، أما خبر القبض عليه فلا يمكن أن يكون فى الجريدة؛ لأنه لابد من كتمانه لفترة بالنسبة إلى داخل البلاد، لكن هذا النبأ المثير سرعان ما سوف يتسرب إلى الخارج.

وسوف ينشرون صورا من أرشيف الجرائد عمرها عشر سنوات إلى جانب بعض الهراء عنه وعن رقم (١). الآن لم تعد لديه الرغبة فى الحصول على جريدة ، لكنه أصبح يرغب بالنهم نفسه فى معرفة ما يدور فى خلد رقم (١). ثم تخيله جالسا إلى مكتبه مستندا بمرفقيه على المكتب عابسا مثقلا بالهموم يملى على سكرتيرته ببطء على الرغم من أن الذين يقومون بعملية الإملاء عادة يسيرون جيئة وذهابا ينفثون حلقات الدخان أو يلعبون بمسطرة، أما رقم (١) فلم يتحرك ولم يلعب بمسطرة ولم ينفث حلقات الدخان.

ثم لاحظ روباشوف فجأة أنه هو نفسه يمشى فى الحجرة جيئة وذهابا؛ فقد نهض من سريره منذ خمس دقائق دون أن يعى ذلك وعاد إلى عاداته وطقوسه القديمة، التى تمنعه من السير على جوانب أرض الزنزانة الحجرية وأصبح يلتزم بهذه الطقوس تلقائيا.

ولكن تفكيره فى رقم (١) لم يتوقف ولو للحظة واحدة، فقد كان يراه جالسا إلى مكتبه يملى دون أن يتحرك، ثم التفت تدريجيا إلى وجهه فى الصورة الملونة المشهورة التى كانت تعلق فوق كل سرير أو خوان فى البلاد، وهو يحدق فى الناس بعينيه المتحجرتين.

ظل روباشوف يسير جيئة وذهابا فى زنزانته ست خطوات ونصف الخطوة من الباب إلى الشباك ومثلها بالعكس، ثم يقطع ست خطوات ونصف من السرير إلى الدلو مرورا بالحوض ومثلها بالعكس، ثم عند الباب يدور إلى اليمين وعند الشباك يدور جهة اليسار. وكانت هذه عادة قديمة اكتسبها من السجن، فقد اكتشف أنه سرعان ما يصاب بالدوار إذا لم يغير اتجاه الدوران. فكر ماذا يدور فى خلد رقم (١)، ثم تخيل شريحة من مخ رقم (١) ملونة بدقة باللون الرمادى على صفحة من الورق مشدودة ومثبتة على لوحة رسم بدبابيس الرسم. وبدت التلافيف الرمادية وقد تشابكت فالتفت حول بعضها كأنها ثعبان قوى، ثم أصبحت غامضة غير جلية كالسديم على الخرائط الفلكية. ماذا يحدث فى داخل التلافيف الرمادية الضخمة؟ إن المرء ليمكنه أن يعلم كل شىء عن السديم الفلكى البعيد، لكنه لا يمكن معرفة أى شىء من التلافيف فى مخ رقم (١). وربما كان ذلك هو السبب فى أن التاريخ يعد ضربا من الكهانة أكثر منه علما، وربما ينتهى الأمر بعد زماننا بدراسة التاريخ من خلال جداول إحصائية مزودة بمثل هذه الرسوم التشريحية، وقد يخط المدرس على السبورة معادلة جديدة تمثل ظروف حياة الجماهير فى أمة معينة فى وقت معين، ويقول: أيها المواطنون تستطيعون أن تروا هنا العوامل الموضوعية التى تحكمت فى هذه العملية التاريخية، ثم يشير بمسطرته إلى مقطع رمادى غائم تائه بين الفصين الثانى والثالث فى مخ

رقم (١) ويقول: هنا ترون رد الفعل الذاتى لهذه العوامل. إن هذا هو السبب الذى أدى فى الربع الثانى من القرن العشرين إلى انتصار مبدأ الشمولية فى شرق أوربا. وحتى يتم الوصول إلى هذه المرحلة تبقى السياسة إما عملا من أعمال الهواة، أو مجرد خرافات وشعوذة.

سمع روباشوف أصوات أناس كثيرين يسيرون فى الرواق فى خطوة عسكرية ففكر لأول وهلة أن ضرب المساجين سيبدأ. توقف روباشوف فى وسط الزنزانة يرهف السمع وذقنه ممتدة إلى الأمام، ثم توقف صوت خطوات الأقدام عند زنزانة مجاورة، وسمع أمرا يصدر فى صوت خفيض تلاه صرير المفاتيح ثم سكون تام. وقف روباشوف بصرامة بين السرير والدلو يمهد نفسه لبدء التعذيب وهو يحبس أنفاسه انتظارا لسماع الصرخة الأولى، وتذكر أن الصرخة الأولى التى يكون للرعب فيها تأثير أكبر من تأثير الألم الجسدى تعد فى الغالب أسوأ ما فى الأمر، وأن ما يأتى بعدها يمكن تحمله عن طريق اعتياده. وبعد فترة يستطيع المراقب للأمور أن يحدد طريقة التعذيب المستخدمة من نغمة الصرخات وإيقاعها. وقرب النهاية يتصرف معظم الخاضعين للتعذيب بنفس الطريقة على اختلاف طباعهم وأصواتهم فتضعف الصرخات، ثم تتلاشى ليحل محلها أنين خافت. وفى العادة يغلق الباب فورا ويسمع صرير المفاتيح مرة ثانية، وغالبا ما تأتى أول صرخة للضحية الثانية بمجرد رؤيته القادمين واقفين عند الباب حتى قبل أن يمسوه بسوء.

وقف روباشوف فى وسط زنزانته فى انتظار سماع الصرخة الأولى ثم مسح نظارته فى كمه، وقال لنفسه مشجعا إنه لن يسمح لنفسه بالصراخ هذه المرة مهما حدث له. وأخذ يردد هذه الكلمات كما لو كان يسبح بمسبحة. وقف ينتظر لكنه لم يسمع الصرخة بل سمع رنينا خافتا وهمسا ثم أغلق باب الزنزانة بعنف. وتحركت الخطوات تجاه الزنزانة المجاورة. نظر روباشوف من ثقب الباب إلى الرواق.فوجد الرجال يقفون عند الزنزانة رقم (٤٠٧) المواجهة لزنزانته تقريبا، ورأى السجان المسن ومعه اثنان من التمرجية يحملان إبريق شاى كبيرا، وآخر يحمل سلة بها كسرات خبز أسود، وموظفان يرتديان الزى الرسمى ويحملان مسدسات. إذن فليس هناك ضرب بل هم فقط يوزعون وجبة الإفطار.

استلم رقم (٤٠٧) الخبز، ولكن روباشوف لم يتمكن من رؤيته تماما . فمن المحتمل أنه وقف فى المكان المحدد له خلف الباب بخطوة؛ لأنه لم ير سوى ساعديه العاريين البالغى النحافة يمتدان كبوصتين متوازيتين خارج الزنزانة حيث الرواق، كما رأى كفيه المفتوحتين وقد اتخذا شكلا مقوسا يشبه السلطانية.

أخذ رقم (٤٠٧) الخبز وأطبق عليه يديه ، وعاد أدراجه إلى ظلام زنزانته وأغلق الباب. ابتعد روباشوف عن الكوة واستكمل سيره جيئة وذهابا ، ثم توقف عن مسح نظارته فى كميه ووضعها فى مكانها، ثم

تنفس بعمق وارتياح وبدأ يترنم بنغمة فى انتظار إفطاره ثم تذكر بشىء من عدم الارتياح الساعدين الناحلين والكفين المقوسين حتى صار فى حيرة من شىء لم يستطع تحديده. فشكل هذين الساعدين الممدودين وحتى ظلهما مألوف لديه، وإن غاب عن ذاكرته كأنه نغمة قديمة تائهة أو رائحة شارع ضيق فى ميناء أدركه النسيان.

(٧)

فتح موكب توزيع الإفطار العديد من الأبواب وأغلقها لكنه لم يقترب من بابه، فاقترب روباشوف من ثقب الباب ليرى ما إذا كانوا سيحضرون إليه فى النهاية. فقد كان يتوق إلى الشاى الساخن حيث كان البخار ينبعث من الإبريق وكانت حلقات الليمون الرقيقة تطفو على سطحه. ثم خلع نظارته وثبت عينه على الكوة ، فاستطاع أن يرى أربع زنزانات مقابلة لزنزانته من رقم (٤٠١) إلى (٤٠٧). رأى فوق هذه الزنزانات فى الطابق الثانى بهوا ضيقا تحيط به أعمدة حديدية ووراءه العديد من الزنزانات.

كان الموكب عائدا لتوه من الجانب الأيمن للرواق؛ ففى العادة كانوا يوزعون الشاى على الزنزانات ذات الأرقام الفردية ثم تتلوها الزنزانات ذات الأرقام الزوجية. توقف الموكب الآن أمام الزنزانة رقم (٤٠٨) فلم يتمكن روباشوف من رؤية الموكب كاملا؛ فقد بدا له فقط ظهرا الرجلين اللذين يرتديان الزى الرسمى وعليه أحزمة المسدسات، ثم أغلقوا الباب

وانتقل الجميع إلى زنزانة النزيل رقم (٤٠٦) فتمكن روباشوف مرة ثانية من رؤية إبريق الشاى الذى ينبعث منه البخار، كما رأى الضابط النوبتجى (المناوب) سلة الخبز التى لم يتبق فيها سوى كسرات قليلة، لكنهم أغلقوا باب الزنزانة رقم (٤٠٦) على الفور ؛ إذ إنها كانت خالية.

وأخذ الموكب يقترب لكنه تجاوز زنزانته إلى الزنزانة رقم (٤٠٢). وبدأ روباشوف يضرب الباب بشدة فرأى حاملى الإبريق ينظران ويحملقان فى بابه بينما شغل السجان نفسه بقفل باب الزنزانة رقم (٤٠٢) كأنه لم يسمع شيئا. أما لابسا الزى الرسمى فقد وقفا بظهريهما أمام كوة زنزانة روباشوف. وبعد أن أعطيا الخبز للنزيل رقم (٤٠٢) بدأ الموكب يتحرك، أخذ روباشوف يقرع الباب بصوت أعلى حتى إنه خلع حذاءه ليدق به الباب فالتفت أكبر الرجلين اللذين يرتديان الزى الرسمى وحملق فى باب روباشوف بنظرة غير معبرة، ثم أدار ظهره من جديد وأغلق السجان بعنف باب النزيل رقم (٤٠٢).

وقف حاملا الإبريق فى تردد ، أما الرجل ذو الزى الرسمى، الذى كان قد التفت إلى باب روباشوف فقال شيئا ما إلى السجان الذى يكبره سنا فهز السجان كتفيه، ثم اتجه ناحية باب روباشوف والمفاتيح تصدر صريرا فى يده فتبعه حاملا الإبريق. وقال حامل سلة الخبز شيئا ما من خلال الكوة إلى السجين رقم (٤٠٢). ابتعد روباشوف خطوة عن الباب وانتظر حتى يفتح وفجأة زال عنه التوتر الذى فى داخله ولم يعد يعبأ

بأمر الشاى الذى لم يعد البخار ينبعث منه فى أثناء عودتهم. وحتى شرائح الليمون التى كانت تطفو على السائل الأصفر الباهت المتبقى أصبحت مترهلة ومنكمشة. بدأ المفتاح يتحرك ليفتح بابه وظهرت عين تحملق فى الزنزانة من خلال الكوة، ثم اختفت. وعند فتح الباب كان روباشوف جالسا على السرير يرتدى حذاءه، فأسند السجان الباب كى يدخل الرجل الكبير ذو الزى الرسمى والرأس المستدير الحليق والعينين الخاليتين من التعبير. وكان زيه الرسمى يصدر صوتًا فى أثناء مشيه وكذلك حذاؤه. وخيل لروباشوف أنه يشم رائحة جراب مسدسه الجلدى.

وقف الرجل بجانب الدلو ونظر حوله فى الزنزانة التى كانت تبدو أصغر حجما لوجوده بها، وقال لروباشوف "لِمَ لَمْ تنظف زنزانتك وأنت تعرف اللوائح بالتأكيد؟".

قال روباشوف وهو يتفحص الضابط من خلال نظارته: "لماذا أغفلتمونى فى توزيع وجبة الإفطار؟" فقال الضابط: "إذا أردت أن تناقشنى فيجب عليك أن تقف". فرد روباشوف وهو مشغول برباط حذائه: "لا أجد فى نفسى أدنى رغبة لمناقشتك أو حتى للتحدث إليك".

فقال الضابط: "إذا فلا داعى لأن تضرب الباب مرة أخرى وإلا ستطبق عليك اللوائح التأديبية المعتادة"، ثم نظر حوله مرة ثانية وقال للسجان: "السجين ليس لديه ممسحة لتنظيف الأرض" فقال السجان شيئا ما لحامل الخبز الذى هرول مختفيا من الرواق، ووقف الجنديان

الآخران عند الباب يحملقان بفضول داخل الزنزانة، أما الضابط الثانى فكان يقف فى الرواق، وظهره للزنزانة وساقاه متباعدتان واضعا يديه خلف ظهره.

قال روباشوف وهو لا يزال مشغولا بربط حذائه: "السجين ليس لديه إناء للطعام. أعتقد أنكم لا تريدون تحميلى مشقة الإضراب عن الطعام وأنا أقدر الطرق الحديثة التى تتبعونها"، فقال الضابط وهو يرمقه بنظرة غير ذات معنى: "أنت مخطئ". كان يظهر على رأسه الحليق أثر جرح كبير وكان يضع فى عروة قميصه شارة نظام الثورة ، فأدرك روباشوف أنه اشترك فى الحرب الأهلية، ولكن هذا قد حدث منذ زمن بعيد وليس له تأثير فى الوقت الحالى.

قال الضابط: "أنت مخطئ. نحن لم نقدم لك وجبة الإفطار ؛ لأنك أبلغت بأنك مريض". فقال السجان المسن وهو يتكئ على الباب: "أسنانه تؤلمه". كان ذلك السجان يرتدى خفا فى قدميه وكانت بقع من الشحم تظهر على زيه المكرمش.

فقال روباشوف: "كما ترغبون". وكاد يسأل عما إذا كان النظام قد استحدث مؤخرا فكرة فرض الصوم الإجبارى على النزلاء، لكنه أمسك لسانه ؛ لأنه كان قد تعب من الموقف برمته، ثم عاد حامل الخبز بقلب يخفق وهو يركض ويلهث حاملا معه خرقة بالية وقذرة، فأخذها منه السجان وألقاها فى ركن بجانب الدلو ، ثم سأل الضابط سجينه دون

سخرية: "هل لديك أية طلبات؟" فرد عليه روباشوف "أوقفوا هذه المهزلة واتركونى وحدى"، فاستدار الضابط ليخرج وأخذ السجان يقلب فى مفاتيحه، أما روباشوف فذهب إلى النافذة وقد أدار لهم ظهره.

حينما أغلقوا الباب تذكر روباشوف أنه قد نسى أهم شىء، فاتجه إلى الباب وصاح من ثقب الباب: "قلم وورق"، ثم خلع نظارته وثبت عينيه على فتحة الكوة ليرى ما إذا كانوا قد التفتوا، ثم صاح من جديد بصوت أكثر ارتفاعا، لكنهم كانوا يسيرون فى الرواق كأنهم لم يسمعوا شيئا. وكان آخر ما رآه منهم هو ظهر الضابط ذى الرأس الحليق والحزام الجلدى العريض الذى يلتصق به جراب المسدس.

(٨)

واصل روباشوف مشيه جيئة وذهابا داخل زنزانته قاطعا ست خطوات ونصف الخطوة تجاه الشباك ومثلها فى الاتجاه العكسى، فقد استثاره الموقف الذى أخذ يستعيده لمدة دقيقة وهو يمسح نظارته فى كمه، ثم حاول أن يتخلص من الكره الذى كان يكنه منذ بضع دقائق للضابط ذى الجرح. رأى أن هذا سوف يجعله أكثر صلابة فى مواجهة الصراع القادم، لكنه بدلا من ذلك وقع من جديد تحت تأثير الضغط المألوف الذى لا سبيل إلى مقاومته؛ ذلك الضغط الذى يجعله يضع نفسه مكان خصمه ويرى الموقف بعيون الآخرين. ثم جلس ذلك الرجل المدعو

روباشوف على السرير بجسده الضئيل ووجهه الملتحى الذى ارتسمت الكبرياء عليه، ولبس وهو بادى الغضب حذاءه على الجورب المبلل بالعرق، ثم فكر روباشوف بالطريقة التى كان يفكر بها الضابط ذو العينين غير المعبرتين. هذا هو روباشوف الأسطورى الذى كانت له حسناته وماضيه العظيم بالطبع، لكنه رؤيته على المنبر فى اجتماعات الحزب شىء ووجوده على البرش فى الزنزانة شىء آخر. فهو يصرخ كالتلميذ من أجل وجبة الإفطار دون أن يشعر بالخزى، زنزانته متسخة، جوربه ممزق وهو متأفف دائم الشجار يتآمر ضد القانون والنظام سواء من أجل المال أو على أساس من المبادئ، فليس هناك فرق والأمران يستويان. نحن لم نقم بالثورة من أجل المهاويس أمثاله. حقا، لقد اشترك المدعو روباشوف بالفعل فى القيام بهذه الثورة، لكنه كان رجلا فتيا حينئذ، أما الآن فقد أصبح كهلا يتغنى بفضله عليها ويجب الآن تصفيته جسديا. بل ربما كان يجب تصفيته جسديا حتى فيما مضى ، فلطالما طفت على سطح الثورة فقاقيع لم تلبث أن تنقشع. لو كانت لديه ذرة باقية من احترامه لنفسه لقام بتنظيف زنزانته. فكر روباشوف لبضع دقائق فيما إذا كان يجب عليه فعلا أن يقوم بتنظيف الأرض، ثم وقف فى وسط الزنزانة مترددا ولبس نظارته من جديد واتكأ على النافذة.

كان ضوء النهار يسطع فى الفناء وبدا اللون الرمادى المائل إلى الشحوب لطيفا وإن كان يبشر بسقوط ثلج أكثر. كانت الساعة الثامنة. فقد مرت ثلاث ساعات فقط على دخوله هذه الزنزانة لأول مرة. وكانت

الجدران المحيطة بالفناء تشبه جدار الثكنات، فالقضبان الحديدية أمام كل نافذة. ومن وراء النوافذ كانت الزنزانات تبدو مظلمة للغاية بحيث لم يكن من الممكن رؤية ما في داخلها. كذلك كان من المستحيل على روباشوف رؤية من عساه أن يقف خلف النافذة مباشرة لينظر مثله إلى الثلج الذى بدا لطيفا هشا، يتكسر إذا مشى عليه أحد. وعلى جانبى الطريق الذى يحيط بالفناء وعلى بعد عشر خطوات من الجدران تجمع بفعل التجريف حاجز من الثلج على شكل تل، وعلى السور المقابل له كان الحارس يخطو جيئة وذهابا. وفى أثناء التفاته ذات مرة بصق على الثلج من مسافة بعيدة ثم مال على السور ليرى أين وقع البصاق الذى تجمد من البرودة.

وقال روباشوف لنفسه: "إنه المرض القديم يداهمنى، فالثوريون لا يجب أن يفكروا من وجهة نظر الآخرين. حتى إذا تحتم عليهم أن يفعلوا ذلك، أو حتى وجب عليهم ذلك. كيف يمكن للثائر أن يغير العالم إذا ما وضع نفسه فى مكان المعارضين له؟ كيف يستطيع المرء أن يغير العالم؟! كيف يجد الإنسان الدافع الذى يحثه على العمل إذا كان يتفهم وضع الآخرين ويغفر لهم موقفهم؟!"

ثم قال روباشوف لنفسه: "سوف يطلقون علىَّ الرصاص ولن تكون للدوافع التى تحركنى أهمية بالنسبة لهم". ثم اتكأ بجبينه على النافذة وكان الفناء أبيض ساكنا. فوقف فترة بلا تفكير يشعر ببرودة الزجاج

على جبينه. ثم بدأ يسمع تدريجيا فى داخل زنزانته دقات صغيرة ، لكنها مستمرة ، فالتفت لينصت إليها. كان الصوت منخفضا حتى إنه لم يستطع فى البداية أن يعرف من أى جدار يأتيه. وبينما كان يسمع سكت الصوت. فبدأ هو نفسه فى النقر على الحائط أعلى الدلو ناحية الزنزانة رقم (٤٠٦). لكنه لم يتلق أى رد، فحاول الدق على الحائط الآخر الذى يلى سريره والذى يفصله عن الزنزانة رقم (٤٠٢) فتلقى الرد من هنا. جلس روباشوف باسترخاء على السرير حيث يستطيع مراقبة ثقب المفتاح وكان قلبه يدق لأن أول اتصال فى خارج الزنزانة دائما يكون مثيرا للغاية.

كان النزيل رقم (٤٠٢) فى ذلك الوقت يدق ثلاث دقات منتظمة تفصلها فترات سكون قصيرة، ثم يتوقف ليعيد الثلاث دقات من جديد ، ثم تجىء وقفة أخرى يليها ثلاث دقات أخرى. أعاد روباشوف الدقات نفسها من جديد بالتسلسل نفسه ليعرف محدثه أنه سمعه. وكان يتوق إلى معرفة ما إذا كان الشخص الآخر يعرف "حروف الهجاء التربيعية"- وهى الشفرة التى يتفاهم بها المساجين - فإن لم يكن يعرفها فسوف يواجه صعوبات حتى يتمكن من تعليمه إياها. كانت الجدران سميكة مما يجعل رنينها ضعيفا فتعين عليه أن يلصق رأسه بها كى يسمع بوضوح. وفى الوقت نفسه كان عليه أن يراقب كوة الباب. من الواضح أن رقم (٤٠٢) كانت لديه خبرة واسعة ؛ إذ إنه كان يدق بوضوح وبتأن، وفى

الغالب كان يستخدم شيئا صلبا كقلم رصاص مثلا، وفى الوقت الذى كان روباشوف يحاول فيه لقلة مرانه تذكر الأرقام كان أيضا يحاول أن يتصور فى مخيلته مربع الحروف ذى الخمس والعشرين خانة. إذ إنه لم يمارس الدق منذ فترة. كان ذلك المربع الوهمى الذى يشبه حروف لوحة الآلة الكاتبة يتكون من خمس وعشرين خانة، كل جزء منها يحتوى على خمسة صفوف أفقية، فى كل منها خمسة حروف.

دق رقم (٤٠٢) فى البداية خمس مرات. إذن فهو يدق الصف الخامس الذى يبدأ بحرف Vوينتهى بحرف Z، ثم دق دقتين: إذن فهو يدق الحرف الثانى من الصف Wثم وقفة يليها دقتان – أى أنه يدق الصف الثانى الذى يبدأ بـ(F) ، وينتهى (J) لها ثلاث دقات وبهذا يدق الحرف الثالث من الصف وهو .Hثم واصل الدق ثلاث دقات تلتها خمس دقات وبذلك يدق الحرف الخامس فى الصف الثالث وهو حرف (O) مكونا بذلك كلمة WHOالإنجليزية وترجمتها (من). ثم توقف عن الدق. قال روباشوف فى نفسه: يا له من شخص عملى فهو يريد أن يعرف على الفور من الذى يتعامل معه. لقد درج العرف بين الثوار على أن يبدأ بعبارة سياسية تمشيا مع القواعد الثورية، وبعد تلقى الرد يبدأ بالحديث عن الطعام والتبغ، وبعد ذلك بأيام يبدأ فى تقديم نفسه أو يتجاهل هذا الأمر تماما. وعلى أية الأحوال فإن خبرات روباشوف كانت تقتصر على الدول التى كان الحزب فيها مقموعا وليس قامعا، وحيث

كان أعضاء الحزب بسبب اشتراكهم فى المؤامرات يعرفون بأسمائهم الأولى وليس بأسماء عائلاتهم. التى كانوا يغيرونها باستمرار حتى تفقد هذه الأسماء مدلولاتها.

أما هنا فالوضع يختلف تماما فقد كان روباشوف مترددا فى أن يصرح باسمه لرقم (٤٠٢) الذى نفد صبره فأخذ يدق من جديد "من"؟ ففكر روباشوف وقال: حسنا ولم لا أخبره؟ ثم أخذ يدق اسمه بالكامل "نيكولا سالمانوفيتش روباشوف" وانتظر النتيجة.

لم يتلق روباشوف ردا لفترة طويلة فابتسم؛ لأنه كان يقدر الصدمة التى أصابت جاره من هول المفاجأة وانتظر دقيقة كاملة، ثم أتبعها بأخرى وفى النهاية هز كتفيه ونهض من السرير وبدأ يواصل سيره فى الزنزانة، لكنه كان يتوقف عند كل دورة لينصت إلى الحائط الذى ظل صامتا، ومسح نظارته فى كمه ثم سار بخطوات بطيئة إلى الباب وأخذ ينظر من كوة الباب إلى الرواق، الذى كان خاليا لا يسمع فيه أى صوت، وكانت المصابيح الكهربائية تشع فيه ضوءها الضعيف الخافت.

كان الرواق خاليا حيث نشرت المصابيح الكهربائية ضوءها الخافت المعتاد. ولم يسمع أدنى صوت.

إذن لماذا سكت رقم (٤٠٢)؟ ربما كان الخوف هو السبب فقد يكون خائفا أن يعرض نفسه للشبهات لاتصاله بروباشوف، أو ربما يكون

طبيبا لا علاقة له بالسياسة أو مهندسا يرتعد خوفا من مجرد التفكير في جاره الخطير. من المؤكد أنه ليست لديه خبرة سياسية وإلا لما كان قد بدأ بالسؤال عن الاسم، ومن المحتمل أن يكون قد تورط في بعض أعمال التخريب.

من الواضح أنه قد قضى فترة طويلة في السجن أتقن فيها دق الشفرة. ولعل لديه الآن رغبة عارمة في إثبات براءته، فما زال يعتقد ببساطة أن هناك فرقا بين كونه بريئا وكونه مذنبا ، كما أنه ليست لديه أية فكرة أن مصالح البلاد العليا التي تتعرض للخطر فوق جميع هذه الاعتبارات، على أية حال تصوره روباشوف جالسا الآن على سريره يكتب للمرة المائة احتجاجا للسلطات التي لن تقرأه أبدا ، أو يكتب للمرة المائة أيضا خطابا لزوجته التي لن تتسلمه أبدا ، ولخيبة أمله أطلق لحيته التي أصبحت سوداء شبيهة بلحية بوشكين ثم أقلع عن الاغتسال واعتاد على قضم أظافره وعلى أحلام اليقظة الشهوانية فلا يوجد شيء في السجن أسوأ من إيمان المرء ببراءته، فهذا يمنعه من التكيف مع الوضع ويثبط من روحه المعنوية. فجأة بدأت الدقات من جديد. فجلس روباشوف بسرعة على السرير لكنه لم يسمع الحرفين الأولين؛ إذ إن دقات رقم (٤٠٢) أصبحت أكثر سرعة وأقل وضوحا ، فمن الواضح أنه منفعل للغاية، تدق الكلمات التالية:

"تستحق ما أنت فيه"

كان هذا غير متوقع وارتسمت فى ذهنه صورة رقم (٤٠٢) كواحد من الموالين للنظام القائم الذين يكنون الكراهية للمنشقين عن العقيدة الشيوعية، فضلا عن أنه مؤمن غاية الإيمان بأن التاريخ يسير فى طريق حتمى تبعا لخطة مؤكدة النجاح ولقطار قائده معصوم من الخطأ هو الزعيم رقم (١). كما كان يعتقد أن القبض عليه ما هو إلا نتيجة لسوء فهم وأن جميع الكوارث التى حدثت فى السنوات الماضية من الصين إلى إسبانيا، ومن المجاعة إلى القضاء على الحرس القديم، لم تكن سوى حوادث يؤسف لها أو ربما كانت نتيجة الخطط الشيطانية التى قام بها روباشوف وأصحابه المعارضون. لقد اختفت الآن مخيلة لحية رقم (٤٠٢) التى تشبه لحية بوشكين، وأصبح يتصوره ذا وجه حليق ينطق بالتعصب، فهو يحافظ على زنزانته فى غاية النظافة ويتبع اللوائح بصرامة فلا فائدة للجدال معه، فهذا النوع من الصعب تعليمه أو الجدال معه. ولكن لا معنى أيضا لقطع الاتصال الوحيد أو ربما يكون الاتصال الأخير بالعالم.

ودق روباشوف بوضوح وببطء "من؟" فجاء الرد على نحو متقطع "هذا ليس من شأنك". فدق روباشوف "كما تشاء"، ثم قام ليواصل تجواله فى الزنزانة معتقدا أن المحادثة قد انتهت، لكن الدق بدأ من جديد... هذه المرة كان الصوت عاليا ورنانا فمن الواضح أن رقم (٤٠٢) قد خلع حذاءه واستخدمها فى الدق كى يجعل كلماته أكثر ثقلا ووضوحا "عاش جلالة الإمبراطور".

فقال روباشوف إذا فالأمر كذلك، فما زال بيننا حتى الآن مناهضون للثورة صادقون وأصلاء، وقد كنا نعتقد أنه لا وجود لهم هذه الأيام إلا فى خطابات القائد رقم (١) الذى يخترعهم ككباش فداء أو شماعة تعلق عليها الأمور التى فشل فيها، لكن يوجد هنا شخص حقيقى من لحم ودم، يثبت وجاهة رأى رقم (١) يزأر ويصيح بأعلى صوت كما ينبغى لمثله أن يصيح "عاش جلالة الإمبراطور".

دق روباشوف وهو يبتسم ابتسامة عريضة: "آمين"، فجاء الرد على الفور بصوت أكثر ارتفاعا بقدر الإمكان: "يا لك من خنزير!" كان روباشوف يسلى نفسه فخلع نظارته ودق بحافتها المعدنية؛ كى يغير النغمة بإيقاع بطىء ومميز "لم أفهمك جيدا" فكاد رقم (٤٠٢) أن يجن فدق بجنون: "كلب"، لكنه قبل أن يكمل الحرف الأخير تفجر غضبه فجأة وبدأ يدق "لماذا سجنت؟" يا لها من بساطة مؤثرة... بدأت صورة وجه رقم (٤٠٢) تتغير فى مخيلة روباشوف من جديد. فأصبح وجه ضابط حرس صغيرا وسيما يتسم بالغباوة، وربما كان يضع نظارة أحادية العدسة. أجاب روباشوف بالنقر بنظارته: "خلافات سياسية". ثم توقف رقم (٤٠٢) قليلا. وكان من الواضح أنه يفكر فى رد تهكمى فجاء الرد فى النهاية "حسنا فالذئاب تلتهم بعضها بعضا" لم يرد روباشوف لأنه سئم هذا النوع من التسلية وبدأ يتجول من جديد، ولكن الضابط السجين رقم (٤٠٢) الذى صار مولعا بالحديث أخذ يدق اسم

روباشوف. أدرك روباشوف أن رقم (٤٠٢) قد بدأ في إزالة الحواجز بينهما فرد عليه روباشوف بكلمة "نعم"، وبدا رقم (٤٠٢) مترددا ثم دق هذه الجملة الطويلة "متى كانت آخر مرة ضاجعت فيها امرأة؟" من المؤكد أن رقم (٤٠٢) كان يستخدم نظارة ومن المحتمل أنه كان يدق بها وتصور روباشوف عينيه العاريتين - ترتعشان بعصبية. لم يشعر روباشوف بالنفور منه. فالرجل على الأقل قد كشف عما بنفسه، وهذا أفضل من أن يدق بيانات رسمية يصدرها النظام الملكى. فكر روباشوف للحظة. ثم بدأ يدق "منذ ثلاثة أسابيع". فجاءه الرد على الفور: "قص علىّ ما حدث". حسنا في الحقيقة إن الأمر أصبح يجاوز الحدود بعض الشيء. كانت هناك قوة من البداية تحث روباشوف على إنهاء الحديث، لكنه تذكر أن الرجل يمكن أن يكون ذا نفع عظيم له كحلقة وصل بينه وبين النزيل رقم (٤٠٠) والزنزانات التى تليه. فمن الواضح أن الزنزانة المجاورة له من جهة اليسار غير مسكونة. الأمر الذى يقطع سلسلة الاتصالات. فأجهد روباشوف ذهنه حتى تذكر أغنية قديمة منذ فترة ما قبل الحرب حينما كان طالبا. كان يسمعها فى الملهى الليلى؛ حيث كانت ترقص سيدات يرتدين جوارب سوداء على نغمة الكانكان الفرنسية فتنهد باستسلام وبدأ يدق بنظارته: "نهدان فى بياض الثلج داخل كئوس الشمبانيا". كان يأمل أن تكون هذه هى النغمة السليمة.

من الواضح أنها كانت كذلك بالفعل؛ لأن رقم (٤٠٢) ألح بقوله: "استمر فى ذكر التفاصيل". فكر روباشوف لا شك أن محدثه كان فى ذلك الوقت ينتف شاربه بعصبية. فمن المؤكد أن لديه شاربا صغيرا

مبروما... ثكلته أمه... إنه حلقة الاتصال الوحيدة فيجب التمشى معه. فما الذى يتحدث عنه أى ضابط حين تحيق بهم المآزق؟ لا شىء سوى النساء والجياد. مسح روباشوف نظراته فى كمه وأخذ يدق بحماس وضمير حى "أرداف كأرداف الفرس الوحشى" ثم توقف متعبا. فلم يكن يستطيع مهما بلغت عزيمته أن يفعل أكثر من هذا. ولكن رقم (٤٠٢) كان راضيا تماما فدق بحماس يصف روباشوف بأنه "شاب حسن"، وجالت فى ذهن روباشوف صورة جاره الذى كان بلا شك يضحك ضحكا صاخبا دون أن يسمعه أحد، يضرب بيده على أردافه ويفتل شاربه من غير أن يراه أحد. إن الحائط الصامت الذى لم يكن فى مقدوره غير نقل صورة تجريدية للفحش والإباحية كان حاجزا يعوق اتصال روباشوف بجاره.

ألح رقم (٤٠٢) بقوله "أكمل"، لكن روباشوف رد عليه باقتضاب: "هذا كل ما عندى، غير أنه سرعان ما ندم؛ إذ إنه شعر بأنه لا يجب أن يتسبب فى إثارة غضب رقم (٤٠٢) الذى ظل يدق فى عناد بنظارته ذات العدسة الواحدة "أكمل من فضلك.... من فضلك".

تجددت الآن خبرة روباشوف بالشفرة حتى إنه لم يعد يحصى العلامات، بل كان يترجمها على الفور إلى معان صوتية فخيل إليه أنه يسمع بالفعل صوت (٤٠٢)، وهو يتوسل إليه كى يمده بمادة شهوانية، ثم أعاد التوسل "من فضلك... من فضلك". من الواضح أن رقم (٤٠٢)

ما زال صغيرا ومن المحتمل أن يكون قد كبر فى المنفى، ولعله ولد فى أسرة عريقة فى نشأتها العسكرية، ثم أرسل إلى أحد البلاد بجواز سفر مزيف، ولعله الآن يعذب نفسه بشدة. وليس من شك أنه الآن يفتل شاربه الصغير وقد ألصق نظارته الأحادية العدسة على عينه من جديد محملقا بلا أمل فى الحائط الأبيض قائلا: "المزيد من فضلك". كما كان يحملق فى البقع التى كونتها الرطوبة والتى بدأت تدريجيا تتخذ شكل امرأة ذات نهدين مثل كئوس الشمبانيا وأرداف الفرس الوحشى". قل لى المزيد من فضلك" فلربما كان يركع على السرير ويداه ضارعتان مثل السجين رقم (٤٠٧)، الذى مدهما بتضرع كى يتسلم كسرة الخبز من السجان.

وأخيرا تذكر روباشوف التجربة التى تذكره بها هذه الحركة؛ حركة توسل الأيدى النحيلة الممدودة فى لوحة العذراء المنتحبة(*).....

(٩)

لوحة العذراء المنتحبة.... التى رآها فى معرض للوحات فى إحدى مدن جنوب ألمانيا، مساء يوم اثنين - لم يكن هناك أى شخص فى المعرض سوى روباشوف والرجل الصغير الذى جاء ليقابله، دار الحديث

(*) صورة للسيدة مريم العذراء وهى تمد يديها الضارعتين وتنتحب على موت السيد المسيح وتسمى بالإنجليزية (Pieta) .

بينهما على أريكة من القطيفة مستديرة فى وسط غرفة خالية تعلق على جدرانها أطنان من لحم النساء الثقيل من أعمال الفنانين الهولنديين. كان ذلك فى عام ١٩٣٣، فى أثناء شهور الإرهاب الأولى قبل القبض على روباشوف بقليل، وكانت الحركة قد هزمت وأصبح أعضاؤها من طريدى العدالة، يقبض عليهم ويضربون حتى الموت، فلم يعد الحزب منظمة سياسية، لم يعد سوى مئات من المسلحين ومئات من الجماهير، التى دمت أجسادها. وكما يستمر الشعر والأظافر فى النمو بعد الموت فإن الحياة ظلت تدب فى بعض خلايا الحزب الميت وفى عضلاته وأطرافه، وما زال يوجد فى جميع أنحاء البلاد جماعات صغيرة من الناس الذين نجوا من التنكيل ولا يزالون مستمرين فى التآمر فى الخفاء يتقابلون فى الأقبية، وفى الغابات وفى محطات القطار والمتاحف والنوادى الرياضية.

وكانوا يغيرون أماكن إقامتهم دائما وكذلك أسماءهم وعاداتهم، ويعرفون بعضهم بعضا بأسمائهم الأولى ولا يسأل أى منهم عن عنوان الآخر؛ كان كل منهم يضع حياته بين يدى الأخر، لكنه لم يكن يثق به أدنى ثقة.

كانوا يطبعون المنشورات التى يحاولون فيها إقناع أنفسهم إلى جانب الآخرين بأنهم لا يزالون أحياء، وكانوا يتسللون خفية تحت جنح الليل عبر أزقة الضواحى ويكتبون الشعارات القديمة على الجدران حتى يثبتوا أنهم لا يزالون أحياء.

كانوا يتسلقون وقت الفجر مداخن المصانع؛ ليرفعوا العلم القديم ليثبتوا أنهم لا يزالون أحياء... لم يكن يرى هذه الكتيبات سوى عدد قليل من الناس وكانوا يلقون بها على الفور، لأنهم كانوا يرتجفون خوفا من رسائل الموتى. كما كانت الشعارات التى يكتبونها على الجدران تزول وتنمحى بحلول الفجر، أما الأعلام فكانت تنزع من فوق المداخن ومع ذلك كانوا دائما يظهرون من جديد.

كان يوجد فى جميع أنحاء البلاد جماعات صغيرة من الناس يطلقون على أنفسهم "الأموات فى إجازة"، ويكرسون حياتهم لإثبات أنهم لا يزالون على قيد الحياة.

لم يكونوا على اتصال بعضهم ببعض ، فقد كانت عرى الحزب ممزقة كل التمزق، حتى إن كل جماعة كانت تقف بمفردها، لكنهم بدأوا تدريجيا فى بث عيونهم من جديد. كان الوكلاء المتجولون يأتون من الخارج ومعهم جوازات سفر مزورة وحقائب ثياب مزدوجة القاع. وكانوا ينقلون المعلومات والأخبار، وفى العادة كان يتم القبض عليهم ويعذبون ويشنقون، ثم يحل آخرون محلهم. أما الحزب فقد بقى ميتا لا يتحرك ولا يتنفس، لكن أظافره أخذت تنمو وكذلك شعره؛ فكان القادة يمدونه من خارج البلاد بتيارات كهربائية متقطعة تسرى فى جسده الصلب فتسبب هزات تشنجية فى أطرافه. تذكر روباشوف "لوحة العذراء المنتحبة".... ونسى رقم (٤٠٢) وأخذ يمشى الست خطوات ونصف الخطوة جيئة

وذهابا، ثم وجد نفسه ثانية على الأريكة المستديرة المنجدة بالقطيفة فى معرض اللوحات، الذى كانت تنبعث منه رائحة التراب وطلاء الأرضية. لقد جاء رأسا من المحطة إلى المكان المحدد للقاء - مبكرا - لبضع دقائق. كاد أن يكون على ثقة أن أحدا لم يلحظه ووضع فى مستودع الأمانات حقيبته المحتوية على عينات من معدات أطباء أسنان من أحدث ما تنتجه إحدى الشركات الهولندية، وجلس على الأريكة القطيفة المستديرة ينظر من خلال نظارته إلى كتل اللحم المترهل على الجدران، وبينما هو ينتظر جاء الرجل الصغير الذى يعرف باسم ريتشارد. كان آنذاك رئيس مجموعة الحزب فى هذه المدينة. جاء متأخرا بضع دقائق ولم يكن قد سبق له أن رأى روباشوف، ولم يكن روباشوف قد رآه من قبل. مرّ الشاب بصالتين خاليتين من صالات العرض، ثم رأى روباشوف جالسا على الأريكة المستديرة وعلى ساقيه كتاب فاوست لجوته طبعة "ركلام" العالمية. وحينما لاحظ الرجل الصغير الكتاب نظر نظرة سريعة من حوله ثم جلس بجانب روباشوف. كان خجولا فجلس على حافة الأريكة على بعد قدمين من روباشوف واضعا قبعته على ساقيه، كان يحترف صناعة الأقفال ، لكنه ارتدى حلة سوداء خاصة بالمناسبات؛ لأنه كان يعرف أنه إذا ارتدى ثياب العمل (الأوفرول) فى المتحف فسيصبح موضع شك، ثم قال: "أرجو أن تغفر لى حضورى متأخرا".

فقال روباشوف: "حسنا... فلنبدأ أولا بتصفح قائمة رجالك، هل أحضرت القائمة؟"

فهز الشاب ريتشارد رأسه قائلا: "أنا لا أحمل قوائم لقد جمعت كل شيء في رأسي، وكذلك العناوين وكل شيء".

قال روباشوف: "حسنا، لكن ماذا يحدث إذا تم القبض عليك؟"

فقال ريتشارد: "لقد أعطيت لهذا السبب قائمة لآني وهي كما تعلم زوجتي". ثم توقف وبلع ريقه فتحركت حدقتاه من أعلى إلى أسفل، ثم نظر لأول مرة إلى وجه روباشوف مباشرة. فلاحظ روباشوف أن له عينين ملتهبتين، أما مقلتاه البارزتان قليلا فكانتا مغطاتين بشبكة شرايين حمراء. وبدا ذقنه ووجنتاه غير حليقتين فوق ياقة الحلة السوداء الخاصة بالمناسبات، ثم قال وهو ينظر إلى روباشوف: "لقد تم القبض على آني ليلة أمس... هل تعرف؟"

قرأ روباشوف في عينيه الأمل الطفولي الواهي في أن يقوم بمعجزة لمساعدته؛ إذ إنه ضابط اتصال اللجنة المركزية.

فقال روباشوف وهو يمسح نظارته في كمه: "أحقا حدث هذا؟". إذن فقد حصلت الشرطة على القائمة كلها".

فقال ريتشارد: لا لأن أخت زوجتي كانت في الشقة حينما جاءوا ليبحثوا عن آني، وكما تعرف أعطتها زوجتي إياها. فالقائمة في أمان تام مع أخت زوجتي، إنها متزوجة من موظف مسئول عن الأمة، لكنها معنا".

قال روباشوف: حسنا أين كنت عندما تم القبض على زوجتك؟

قال ريتشارد: "إليك ما حدث: تعرف أننى لم أنم فى بيتى منذ ثلاثة أشهر، فلى صديق عامل سينما أذهب إليه وعند انتهاء العرض أنام فى كابينته؛ حيث يمكننى الدخول مباشرة من الشارع عن طريق باب الحريق، كما أننى أستطيع مشاهدة الفيلم بلا مقابل.... ثم توقف وابتلع ريقه. كما تعرف كان صديقى يعطى آنى تذاكر مجانية وحينما يحل الظلام تنظر إلى أعلى، حيث كابينة الإضاءة فلا تتمكن من رؤيتى، لكنى كنت فى بعض الأحيان أتمكن من رؤية وجهها بوضوح حين يظهر ضوء قوى على الشاشة". ثم توقف. كانت معلقة أمامه مباشرة لوحة "يوم الحشر" التى تظهر فيها صورة ملاك صغير مجعد الشعر، له عجيزة ممتلئة يطير فى عاصفة رعدية وهو ينفخ فى بوق. وإلى يسار ريتشارد كان هناك رسم بريشة فنان ألمانى، لم ير روباشوف سوى جزء منه، لأن الأريكة السوداء المنجدة بالقطيفة ورأس ريتشارد كانا يحجبانه، كان يرى يدىّ العذراء الناحلتين مرفوعتين إلى أعلى، وقد اتخذ الكفان شكل تجويف سلطانية، كما كان يرى جزءا من فراغ السماء المغطى بخطوط مقلمة أفقية - لم يستطع أن يرى أكثر من هذا؛ لأن رأس ريتشارد فى أثناء الحديث كانت لا تتحرك من مكانها فوق عنقه المائل للاحمرار والمنحنى قليلا.

ثم قال روباشوف: "أحقا هذا؟ كم عمر زوجتك؟"

قال ريتشارد: "هى فى السابعة عشرة".

فقال روباشوف: حقيقة؟ وكم عمرك؟

فقال ريتشارد: تسعة عشر عاما.

فسأله روباشوف وهو يحاول عبثا مد رأسه قليلا حتى يتمكن من رؤية المزيد من الرسم: "هل لديكما أطفال؟"

فقال ريتشارد: "المولود الأول فى الطريق". ثم جلس بلا حراك كما لو كان قد صب فى قالب من الرصاص.

وبعد فترة من الوقت طلب إليه روباشوف أن يتلو عليه قائمة أسماء أعضاء الحزب، التى كانت تتكون من حوالى ثلاثين اسما، ثم سأله بعض الأسئلة ودوّن عدة عناوين مكان الفراغات فى دفتر الطلبات الخاصة بالآلات، التى يستخدمها أطباء الأسنان والتى تنتجها شركة هولندية. كان قد ترك تلك الفراغات فى قائمة أسماء أطباء الأسنان المحليين وكبار المواطنين، التى نقلها من دليل التليفونات. وحينما انتهى قال ريتشارد: "والآن أحسب أنك تريد منى أن أعطيك تقريرا موجزا عن عملنا يا رفيق".

فقال روباشوف: حسنا وهأنذا أستمع إليك.

ألقى ريتشارد تقريره وهو يجلس منحنيا إلى الأمام قليلا على بعد قدمين من روباشوف على الأريكة الضيقة المنجدة بالقطيفة، وقد وضع

يديه المحموتين الكبيرتين على ركبتى بزته التى يلبسها فى المناسبات، ولم يغير وضعه ولو لمرة واحدة فى أثناء حديثه. تكلم بطريقة صارمة وتقريرية كطريقة كاتب الحسابات عن الأعلام المرفوعة على المداخن وعن الكتابة على الجدران والمنشورات، التى كانوا يتركونها فى مراحيض المصانع، كانت الملائكة تسبح أمامه في العاصفة الرعدية وهى تنفخ فى البوق. وفى مؤخرة مخيلته كانت تظهر له صورة غير مرئية لمريم العذراء وهى تمد يديها النحيفتين. وكانت تطل عليهم من جميع الجوانب.... النهود الضخمة والأفخاذ والأعجاز المحملقة فيهم، وخطر ببال روباشوف النهدان اللذان يشبهان كئوس الشمبانيا، فوقف ساكنا على قطعة البلاط السوداء الثالثة من جهة شباك الزنزانة ليسمع ما إذا كان رقم (٤٠٢) لا يزال يدق، لكنه لم يكن هناك صوت. فذهب روباشوف إلى ثقب الباب ونظر إلى رقم (٤٠٢)، الذى رآه من قبل يمد يديه لأخذ الخبز، فتمكن من رؤية باب الزنزانة رقم (٤٠٧) الرمادى المصنوع من الصلب بثقبه الصغير الأسود. كانت المصابيح الكهربائية تضىء الرواق كالعادة وبدا الجو كئيبا وساكنا، فمن الصعب على المرء أن يصدق أن هناك أناسا يعيشون خلف هذه الأبواب.

لم يقاطع روباشوف الشاب المسمى ريتشارد فى أثناء إدلائه بتقريره. لقد بقى سبعة عشر شخصا فقط من الثلاثين رجلا وامرأة، الذين تجمعوا مع ريتشارد بعد الكارثة. ألقى اثنان من المجموعة – وهما

عامل بأحد المصانع وفتاته - بنفسيهما من النافذة حينما جاءوا للقبض عليهما. ورحل آخر عن المدينة واختفى. وثارت الشبهات حول اثنين فيما يتعلق بالتجسس لحساب الشرطة وإن لم يثبت ذلك. وترك ثلاثة آخرون الحزب لاحتجاجهم على سياسة اللجنة المركزية، فالتحق اثنان منهم بجماعة معارضة جديدة. أما الثالث فانضم إلى المعتدلين وتم القبض ليلة أمس على خمسة ومن بينهم آنى، وكان من المعروف أن اثنين على الأقل من هؤلاء الخمسة لم يعد لهما بقاء على قيد الحياة. فبقى فى النهاية سبعة عشر شخصا استمروا فى توزيع المنشورات وفى الكتابة على الجدران.

ذكر ريتشارد كل هذا بأدق التفاصيل حتى يعرف روباشوف كل الاتصالات الشخصية وكذلك القضايا التى تعتبر مهمة فى حد ذاتها. ولم يكن يعرف أن اللجنة المركزية فى هذه الجماعة لها رجلها الخاص الذى أعطى روباشوف معظم المعلومات منذ زمن. ولم يكن يعرف أيضا أن هذا الرجل هو صديقه عامل السينما، الذى كان ينام فى كابينته. كما أنه لم يكن يعرف أن صديقه على علاقة حميمة منذ زمن بزوجته آنى، التى تم القبض عليها ليلة أمس. لم يكن ريتشارد على علم بكل هذا لكن روباشوف كان يعلمه. فعلى الرغم من أن الحركة قد دمرت، فإن قسم الاستخبارات والرقابة التابع لها كان لا يزال يؤدى وظائفه، وربما كان هو القسم الوحيد الذى يعمل. وقد كان يرأسه روباشوف فى ذلك الوقت.

لم يكن هذا أيضا معروفا لدى الرجل الصغير ذى الرقبة القصيرة الغليظة، والحلة السوداء الخاصة بالمناسبات فكل ما كان يعرفه هو أن آنى تم القبض عليها، وأن عليه أن يستمر فى توزيع المنشورات والكتابة على الجدران، وأنه يجب عليه أن يثق فى روباشوف، الرفيق التابع للجنة المركزية للحزب. كأب، لكنه لا يجب عليه أن يظهر هذا الشعور أو يعتريه أى ضعف؛ لأن الشخص الناعم المفرط فى عاطفته لا يصلح لهذه المهمة ويتعين تنحيته جانبا ليخرج من الحركة إلى الظلام الخارجى، حيث يعيش فى وحدة وانفراد.

سمع روباشوف خطوات تقترب من الرواق فذهب إلى الباب وخلع نظارته ووضع عينيه على فتحة الباب، فرأى مسئولين يرتديان أحزمة مسدسات من الجلد ويسوقان فلاحا شابا عبر الرواق، وكان السجان المسن يتبعهما وفى يده مجموعة المفاتيح. كان للفلاح وجه مسطح جامد وغير معبر وعين منتفخة وظهر على شفته العليا دم متجمد، وقد أخذ يمسح أنفه الدامى فى كمه أثناء سيره.

وفى نهاية الرواق، بعد صف الزنزانات المجاورة فتح باب إحدى الزنزانات ثم أغلق. ثم عاد المسئولان والسجان وحدهم. بدأ روباشوف يسير جيئة وذهابا فى الزنزانة ثم تخيل نفسه جالسا على الأريكة المستديرة المكسوة بالقطيفة إلى جوار ريتشارد، وسمع من جديد صوت السكون الذى خيم بعد أن انتهى الصبى من تقريره. وكان ريتشارد

جالسا بلا حراك واضعا يديه على ساقيه منتظرا، كابن فرغ من الإدلاء باعترافه أمام قسيس، وينتظر حكم هذا القسيس عليه. لم ينطق روباشوف بكلمة لفترة طويلة، ثم قال: "حسنا أهذا كل شيء؟"

فأومأ الفتى برأسه وأخذت جوزة حلقه تتحرك إلى أعلى وأسفل، وقال روباشوف: "هناك العديد من الأشياء غير الواضحة فى تقريرك، لقد تحدثت مرارا وتكرارا عن المطبوعات والمنشورات التى كتبتها بنفسك. نحن نعرفها جيدا. وقد تعرض مضمونها لنقد لاذع؛ إذ إن بها العديد من العبارات التى لا يقبلها الحزب". نظر إليه ريتشارد بخوف واحمر وجهه، ولاحظ روباشوف أن الجلد الذى يكسو عظمة وجهه بدأ يسخن كما أصبحت شبكة الشرايين الحمراء فى عينيه الملتهبتين أكثر كثافة. ثم أكمل روباشوف: "ومن جهة أخرى فقد أرسلنا إليك عدة مرات المطبوعات الخاصة بنا لتوزيعها وكان من بينها الطبعة الخاصة الصغيرة الحجم من الجهاز الرسمى للحزب وقد تسلمت هذه الشحنات".

فأومأ ريتشارد الذى لم تفارق السخونة وجهه.

استطرد روباشوف: لكنك لم توزع المواد الخاصة بنا، بل أنت لم تذكرها فى تقريرك، وبدلا من ذلك فقد كنتم توزعون المواد التى كتبتموها بأنفسكم دون رقابة أو موافقة من جانب الحزب، فقال ريتشارد بصعوبة بالغة: "ولكن كان ينبغى علينا أن نفعل ذلك". فنظر إليه روباشوف فى نظرة فاحصة من خلال نظارته؛ إذ إنه لم يلاحظ من قبل أن الصبى

يتلعثم فى كلامه. قال روباشوف فى نفسه "إنه لأمر غريب فهذه هى الحالة الثالثة فى خلال أسبوعين، فلدينا عدد هائل من ذوى العاهات فى الحزب، وقد يكون هذا نتيجة للظروف التى نعمل فيها، أو لأن الحركة نفسها تحتضن نخبة من ذوى العاهات".

تلعثم ريتشارد بأسى زائد قائلا: "يجب عليك أن تفهم يا رفيق أن نغمة مادتكم الدعائية كانت خطأ لـ... لأن...".

فقال روباشوف فجأة بحدة: "تحدث بهدوء ولا تدر رأسك نحو الباب". دخل الحجرة شاب طويل القامة يرتدى الزى الرسمى الخاص بالحرس الأسود التابع للنظام، وكان يصطحب فتاته الشقراء البضة واضعا يده على عجزها الممتلئ فى حين وضعت يدها فوق كتفه. لم يلقيا بالا إلى روباشوف وصاحبه، ووقفا أمام لوحة الملائكة النافخة فى الأبواق وقد أدارا ظهرهما للأريكة.

فقال روباشوف بصوت خفيض وهادئ: "استمر فى الحديث".

ثم أخرج علبة التبغ من جيبه بطريقة آلية، لكنه تذكر أن التدخين ممنوع فى المتاحف فأعادها إلى جيبه، وأخذ الصبى يحملق فى الاثنين كما لو كان قد أصيب بالشلل نتيجة لصدمة كهربائية. فقال روباشوف بهدوء: "استمر فى الحديث". هل كنت تتلعثم فى طفولتك؟ أجب ولا تنظر إلى هناك".

أجاب ريتشارد قائلا بصعوبة بالغة: "فـ... فى بعض الأحيان"

تحرك الشاب وفتاته عبر صف الصور ثم وقفا أمام جسم امرأة سمينة جدا وعارية ترقد على مضجع من الساتان وهى تنظر إلى المشاهدين، فهمس الرجل بشىء للفتاة، يبدو أنه كان مضحكا؛ لأنها ضحكت وألقت نظرة خاطفة على الجالسين على الأريكة، ثم تحركا قليلا أمام صورة من الطبيعة الساكنة تظهر فيها ديوك برية ميتة وبعض الفاكهة. فسأل ريتشارد متلعثما: "ألا ينبغى علينا أن نرحل؟".

وأجاب روباشوف الذى كان يخشى عند وقوفهما أن يتصرف الفتى فى اضطرابه بطريقة تلفت النظر: "لا، فسوف ينصرفان على الفور ولن يتمكنا من رؤيتنا بوضوح؛ لأن النور خلفنا. تنفس ببطء وعمق لعدة مرات فهذا سوف يساعدك". استمرت الفتاة فى الضحك ، ثم اتجه الاثنان نحو باب الخروج وفى أثناء مرورهما التفتا ناحية روباشوف وريتشارد. وبينما كانا فى طريقهما إلى مغادرة الحجرة أشارت الفتاة إلى صورة "الرحمة" للعذراء مريم المرسومة بالقلم ليلقيا نظرة عليها.

تساءل ريتشارد بصوت منخفض، وهو ينظر إلى الأرض: "أحقا إن تلعثمى شىء مزعج للغاية؟".

فقال روباشوف باقتضاب: "يجب على المرء أن يتحكم فى عواطفه". لم يكن باستطاعة روباشوف أن يسمح لأى إحساس بالألفة أن يتخلل الحديث.

قال ريتشارد وجوزة حلقه تتحرك بتشنج إلى أعلى وأسفل: "سوف أ.. أتحسن على الفور.. كانت آنى دائما تضحك من تعلثمى أنـ.. تـ..

تعلم". لم يستطع روباشوف أن يدير دفة الحديث طوال فترة وجود الشاب والفتاة فى الحجرة. فقد جعلته مشاهدة ظهر الرجل فى زيه الرسمى أكثر ثباتا بجانب ريتشارد، كما أن الخطر المشترك ساعد الصبى فى التغلب على خجله. اقترب من روباشوف بعض الشىء، ثم استكمل حديث المتلعثم هامسا فى اضطراب اتسم بالهدوء أكثر من ذى قبل.

"لقد كانت تحبنى هى الأخرى، لم أكن أعرف كيف أرضيها فلم تكن تريد أطفالا ولـ.. لكنها لم تستطع التخلص من جنينها، ومن المحتمل أنهم لن يصيبوها بأذى؛ لأنها حـ..حامل أعتقد أنك تفهم ذلك بوضوح شديد.. هل تعتقد أنهم يضربون السيدات الحوامل أيضا؟"، ثم أشار بذقنه إلى الشاب ذى الزى الرسمى فى اللحظة نفسها، التى التفت فيها هذا الشاب نحوه فجأة، فنظر كل منهما إلى الآخر للحظة، ثم همس الشاب ذو الزى الرسمى بشىء ما إلى فتاته التى التفتت هى الأخرى. أمسك روباشوف من جديد بعلبة التبغ، لكنه تركها هذه المرة دون أن يخرجها من جيبه.

قالت الفتاة شيئا للشاب ثم جذبته وخرج الاثنان من الدهليز ببطء، بينما ظهر التردد على الشاب. ثم سمع ريتشارد وروباشوف الفتاة تضحك ثانية بالخارج ووقع خطواتها يتلاشى، فأدار ريتشارد وجهه ليتبعهما، فاستطاع روباشوف حين تحرك ريتشارد أن يرى اللوحة جيدا،

فهو الآن يرى يدى السيدة العذراء حتى المرفقين... يدان نحيلتان كيدى فتاة صغيرة، مرفوعتان دون عناء تجاه الشعاع اللامرئى الذى ينبعث من الصليب. نظر روباشوف إلى ساعته فابتعد الفتى عنه بعض الشيء فى جلسته على الأريكة، وقال روباشوف: "يجب أن نصل إلى قرار نهائى، فإذا كنت أفهمك جيدا، أنت تقول إنك لم تقم بتوزيع مطبوعاتنا عمدا؛ لأنك لا توافق على مضمونها، لكننا أيضا لا نوافق على محتويات منشوراتك، وأنت تعرف يا رفيق أن هذا سوف يكون له عواقب". أدار ريتشارد عينيه الحمراوين تجاه روباشوف، ثم نكس رأسه وقال بصوت ممل بعدما زال عنه تلعثمه: "أنت نفسك تعرف أن المادة التى كنتم ترسلونها لم تكن سوى محض هراء".

قال روباشوف بلهجة جافة: "أنا لا أعرف شيئا عن هذا" فقال ريتشارد بنفس الصوت المُتعب: "أنتم تكتبون وكأن شيئا لم يحدث. إنهم يمزقون الحزب إلى أشلاء، بينما أنتم تكتبون مجرد عبارات جوفاء عن إرادتنا التى لاتنكسر من أجل إحراز النصر... نفس الأكاذيب التى كانت تتردد فى البلاغات الرسمية أثناء الحرب العالمية الثانية... أكاذيب لا يسع المرء إلا أن يبصق عليها... وأنت نفسك تعرف ذلك".

نظر روباشوف إلى الصبى الذى كان يجلس منحنيا إلى الأمام واضعا مرفقيه على ساقيه، وذقنه متكئ على قبضتى يديه الحمراوين، وأجاب بلهجة جافة: "للمرة الثانية تنسب إلىّ رأيا لا أعتنقه، يجب عليك أن تكف عن ذلك".

فنظر إليه ريتشارد وهو غير مصدق بعينين ملتهبتين، ومضى روباشوف قائلا: "إن الحزب يمر بمحنة شديدة وقد تعرضت أحزاب ثورية أخرى لمحن أصعب من ذلك، لكن العامل الحاسم هو إرادتنا التى لا تتحطم. إن من يضعف الآن أو يلين ليس له مكان بيننا، وكل من يسمح بنشر جو من الرعب والفزع يعين أعداءنا.. وأيا كانت دوافعه فليس هناك فرق. وهو بموقفه هذا يصبح خطرا على حركتنا وسوف يعامل على هذا الأساس".

قال ريتشارد وهو لا يزال جالسا ومتكئا بذقنه على يديه ووجهه ناحية روباشوف: "إذا فأنا أشكل خطرا على الحركة، كما أننى أعين الأعداء ومن المحتمل أن أكون مأجورا كى أفعل هذا.. وكذلك آنى".

أكمل روباشوف باللهجة الجافة نفسها: لقد تكررت فى منشوراتك التى اعترفت بنفسك أنها من تأليفك بعض العبارات مثل: "لقد عانينا الهزيمة.. ولقد حلت بالحزب كارثة.. ويجب علينا أن نبدأ من جديد ونغير سياستنا تغييرا جذريا. هذه هى الانهزامية فهى تثبط الهمم وتضعف روح الحزب القتالية".

قال ريتشارد: "أنا أعرف أنه يتعين على المرء أن يقول الحقيقة للجماهير؛ لأنهم يعرفونها مسبقا على أية حال. فما يدعو للسخرية هو أن نحاول خداعهم والكذب عليهم".

استمر روباشوف قائلا: "لقد أصدر أخر مؤتمر عقده الحزب بيانا جاء فيه أن الحزب لا يعانى هزيمة، لكنه قام بتراجع استراتيجى وليس هناك أى داع لتغيير سياسته السابقة".

فقال ريتشارد: "لكن هذا لغو".

فرد روباشوف: "لو اتبعت هذا الأسلوب فيجب علينا إنهاء هذا الحديث".

صمت ريتشارد برهة. وبدأ الظلام يخيم على الحجرة، وبدت الخطوط المحددة لمعالم صور الملائكة والنساء على الجدران أكثر نعومة وغموضا.

قال ريتشارد: "أنا آسف، كنت أقصد أن قيادة الحزب أخطأت. أنتم تتحدثون عن التراجع الاستراتيجى فى حين أن نصف رجالنا لقوا حتفهم. ومن بقى منهم على قيد الحياة يشعرون بالامتنان، لأنهم لا يزالون أحياء إلى درجة تجعل أفواجا منهم تنضوى إلى معسكر الأعداء، فهذه القرارات الدقيقة التى تمزق الصفوف والتى تخترعونها بالخارج غير مفهومة هنا". بدت ملامح ريتشارد غير واضحة مع حلول الغسق شيئا فشيئا. وأمسك عن الكلام ثم أضاف قائلا: "أعتقد أن آنى أيضا قامت ليلة أمس بتراجع استراتيجى. من فضلك يجب عليك أن تفهم فكلنا هنا نعيش فى غابة..".

انتظر روباشوف ليرى ما إذا كان لدى ريتشارد شىء آخر ليقوله، لكنه لم يقل شيئا. كان الغسق قد بدأ يخيم بسرعة فخلع روباشوف نظارته ومسحها فى كمه ثم قال: لا يمكن للحزب أن يخطئ. أنت وأنا

من الممكن أن نخطئ، لكن ليس الحزب، فالحزب يا رفيق أكبر منى ومنك ومن الآلاف أمثالك وأمثالى؛ لأن الحزب ما هو إلا تجسيد للفكرة الثورية فى التاريخ الذى لا يعرف الحيرة أو التردد فهو يندفع تجاه هدفه بلا أخطاء مخلفا وراءه الطمى، الذى يحمله عند كل منعطف فى طريقه، وكذلك جثث الغرقى. التاريخ يعرف طريقه ولا يقع فى الخطأ ومن لا يؤمن إيمانا مطلقا بالتاريخ يجب ألا ينتمى إلى صفوف الحزب.

لم يقل ريتشارد شيئا بل اتكأ برأسه على قبضتى يديه ووجهه الجامد متجهًا نحو روباشوف، وبينما هو صامت استكمل روباشوف حديثه: "لقد منعت توزيع مطبوعاتنا وأخمدت صوت الحزب ووزعت منشورات كل كلمة فيها ضارة وزائفة. لقد كتبت "إن بقايا الحركة الثورية يجب أن تتجمع وتتماسك وكل القوى المعادية للطغيان يجب أن تتحد. يجب أن نقضى على صراعاتنا الداخلية القديمة وأن نبدأ النضال المشترك من جديد". هذا خطأ فالحزب لا يجب أن ينضم للمعتدلين الذين خانوا الحركة بحسن نية مرات لا حصر لها ، سوف يفعلون ذلك من جديد فى المرة القادمة وبعد القادمة فمن يهادن ويتوصل إلى حل وسط معهم يدفن الثورة، ولقد كتبت "إذا شب حريق فى بيت وجب على الجميع المساعدة فى إطفائه. ولكن إذا ما تمادينا فى الشجار والاختلاف حول المذاهب فسوف نحترق كلنا ونصبح رمادا" إن هذا قول خاطئ؛ لأننا نحارب النار بالماء فى حين أن الآخرين يحاربونها بالزيت. ولهذا علينا

أولا أن نحدد الطريقة السليمة فى إطفاء النار: الماء أم الزيت قبل توحيد فرق الإطفاء. لا يمكن إدارة دفة السياسة على هذا النحو فمن المستحيل أن تنهض سياستنا على العاطفة واليأس. إن مسار الحزب محدد بدقة مثل ممر ضيق بين الجبال فأبسط انحراف إلى اليسار أو إلى اليمين يؤدى إلى السقوط فى هاوية. هناك نقص فى الهواء وكل من يصاب بالدوار يهلك ويضيع فيها.

خيم الدجى تماما حتى إن روباشوف لم يعد يرى يدى السيدة العذراء فى اللوحة، ودق الجرس مرتين بصوت عال رنان منبها أن المتحف سوف يغلق أبوابه خلال ربع ساعة. نظر روباشوف فى ساعته. فلا زالت أمامه الكلمة الحاسمة لينطق بها ثم ينتهى الأمر. أما ريتشارد فقد جلس بلا حراك إلى جواره متكئا بمرفقيه على ركبتيه ثم قال أخيرا بصوت فاتر ومتعب للغاية: "نعم ليس هناك أدنى شك فى صحة ما تقول. وما ذكرته عن الممر الجبلى شىء بديع جدا، لكن كل ما أعرفه هو أننا مهزومون وأن الباقين قد هجرونا، ربما لأن البرودة شديدة لأقصى حد فوق ممرنا الجبلى. أما الآخرون فموسيقاهم تصدح وراياتهم اللامعة تخفق، وجميعهم يجلسون حول نار لذيذة دافئة. ومن المحتمل أن يكون هذا هو السبب فى انتصارهم وكذلك فى أننا ندق أعناقنا". كان روباشوف ينصت فى سكون؛ لأنه كان يريد أن يعرف ما إذا كان لدى الشاب ما يضيف قبل أن ينطق هو بالقول الفصل. ولكن مهما قال ريتشارد فلن يغير قوله حكم روباشوف عليه على أية حال، ومع ذلك فإنه ظل ينتظر.

أصبحت هيئة ريتشارد الثقيلة أقل ما تكون وضوحا فى ظلمة الغسق وهو يتحرك على الأريكة المستديرة مبتعدا وقد أحنى كتفيه ويكاد يخفى وجهه بين يديه، بينما كان روباشوف يجلس معتدلا على الأريكة ينتظر، ثم شعر بوخزة بسيطة فى فكه العلوى، ربما كان ذلك بسبب ناب العين المصاب. وبعد قليل سمع صوت ريتشارد وهو يقول "ماذا سيحدث لى الآن؟". لمس روباشوف نابه الذى يؤلمه بلسانه وشعر بحاجة إلى لمسه بإصبعه قبل أن ينطق بالكلمة الحاسمة، لكنه منع نفسه وقال بهدوء: "على أن أخبرك يا ريتشارد بأنك لم تعد عضوا فى الحزب طبقا لقرار اللجنة المركزية". لم يتحرك ريتشارد وظل روباشوف فترة جالسا قبل أن ينهض على قدميه، لكن ريتشارد ظل جالسا ورفع رأسه إليه ليسأله: "أهذا ما جئت من أجله؟".

أجاب روباشوف الذى كان يرغب فى الرحيل ولكنه كان لا يزال واقفا أمام ريتشارد ومنتظرا: "نعم هذا ما جئت من أجله فى المقام الأول". فسأله ريتشارد: "وماذا سيكون مصيرى بعد الآن؟". لم يجد روباشوف جوابا. وبعد فترة قال ريتشارد: "أعتقد أننى لن أستطيع العيش الآن فى كابينة صديقى كذلك".

أجاب روباشوف بعد فترة قصيرة من التردد: "من الأفضل ألا تفعل ذلك". ولكنه أنب نفسه على الفور على ما نطق به لسانه، ولم يكن متأكدا إذا كان ريتشارد قد فهم معناه أم لا. ثم نظر إلى هيئة الشخص الجالس وقال: "من الأفضل أن نترك المبنى منفصلين. وداعا".

فاعتدل ريتشارد وهو لا يزال جالسا. ولم يكن بمقدور روباشوف في هذا الظلام سوى أن يخمن التعبير البادى فى عينى ريتشارد الملتهبتين الجاحظتين بعض الشيء، ومع ذلك التصقت بذاكرته إلى الأبد هذه الصورة الضبابية للهيكل المفتقر إلى الرشاقة والجالس أمامه.

ترك روباشوف الحجرة وعبر الحجرة المجاورة، التى كانت مثل سابقتها مظلمة وخالية. وكان وقع خطواته يسمع على الأرض الخشبية ولم يتذكر أنه فاته النظر إلى لوحة "اللوحة التى تصور السيدة العذراء" إلا بعد وصوله إلى ممر الخروج. الآن فقط استطاع أن يتعرف على التفاصيل الدقيقة لليدين المطويتين، وعلى جزء من الذراعين الناحلتين حتى المرفقين.

ثم توقف على درجات السلم بعد خروجه من المدخل وقد اشتد عليه ألم سنه؛ حيث كان الجو باردًا فى الخارج مما جعله يلف بإحكام وشاحا رماديا من الصوف الباهت حول عنقه.

كانت مصابيح الشارع تضيء الميدان الكبير أمام المعرض، ولم يكن هناك كثير من الناس فى ذلك الوقت. ثم جاء ترام ضيق يدق جرسه عبر الشارع المحاط بأشجار البلوط، وتساءل روباشوف إذا كان بإمكانه أن يجد سيارة أجرة هنا...

لحق به ريتشارد وهو يلهث على آخر درجة من درجات السلم. لكن روباشوف مضى فى طريقه دون أن يسرع أو يبطئ ودون أن يلتفت. كان

ريتشارد يفوقه طولا بمقدار نصف قامة ويفوقه عرضا، لكنه كان يحنى كتفيه إلى الأمام ويخطو بخطوات قصيرة؛ كى يبدو ضئيلا بجانب روباشوف.

ثم قال بعد بضع خطوات: "هل كنت تعنى إنذارى عندما سألتك عما إذا كان يمكننى العيش مع صديقى، وأجبتنى بأنه من الأفضل ألا أفعل ذلك؟". رأى روباشوف سيارة أجرة ذات أضواء لامعة قادمة فتوقف على حافة الرصيف ينتظر اقترابها. ووقف ريتشارد إلى جانبه، فقال روباشوف وهو يلوح لسيارة الأجرة: "ليس لدى المزيد لأقوله لك يا ريتشارد". وأشار إلى التاكسى للتوقف.

قال ريتشارد متلعثما: "لكن يا رفيق.. لا يمكن أن تتخلى عنى يا رفيق".

وقفت سيارة الأجرة على بعد عشرين خطوة منهما ووقف ريتشارد منحنيا أمام روباشوف، وقد أمسك بكم معطفه وأخذ يتكلم فى وجهه مباشرة لدرجة أن روباشوف شعر بأنفاسه وبرذاذ الشاب الخفيف المتطاير من لعابه على جبهته وهو يتلعثم مستعطفا: "أنا لست عدوا للحزب. لا يمكنكم أن تلقوا بى إلى الذئاب يا رفيق...." كانت السيارة الأجرة قد توقفت عند حافة الرصيف، ومن المؤكد أن السائق قد سمع الكلمة الأخيرة. فأيقن روباشوف على الفور أنه لا فائدة من إبعاد ريتشارد. كان هناك أحد رجال الشرطة واقفا على بعد مائة ياردة، لكن

السائق العجوز الضئيل الحجم الذى كان يرتدى سترة من الجلد رمقهما بعينين خاليتين من التعبير.

قال روباشوف.. وهو يدخل السيارة: "إلى المحطة". فمد السائق ذراعه اليمنى وأغلق باب التاكسى الخلفى وراء روباشوف، ظل ريتشارد يقف على حافة الرصيف ماسكا كابه بيده، بينما كانت جوزة حلقه تتحرك بسرعة إلى أعلى وأسفل. وتحركت السيارة متجهة فى طريقها نحو رجل الشرطة ثم مرت بجواره. فضّل روباشوف ألا ينظر إلى الوراء، لكنه كان يعرف أن ريتشارد لا يزال واقفا على حافة الرصيف يحملق فى الضوء الأحمر الخلفى المنبعث من السيارة الأجرة. ولبضع دقائق أخذت السيارة تمر فى شوارع مزدحمة. التفت السائق برأسه عدة مرات كما لو كان يريد التأكد من أن الراكب لا يزال فى الداخل. لم يكن روباشوف يعرف المدينة جيدا حتى يعلم إذا كان بالفعل فى طريقه إلى المحطة، ثم أصبحت الشوارع أكثر هدوءا، وفى نهاية الطريق ظهر مبنى ضخم عليه ساعة كبيرة مضيئة ثم توقفت المركبة عند المحطة.

خرج روباشوف من السيارة وسأل السائق: "كم تريد؟" إذ إن سيارات الأجرة فى هذه المدينة لم تكن مزودة بعدادات بعد. قال السائق ذو الوجه العجوز المتجعد: "لا شىء"، ثم أخرج من جيب سترته الجلدية قطعة قماش حمراء قذرة ومهلهلة، وأخذ يتمخط بطريقة تنم عن احترام راكبه، فنظر إليه روباشوف بانتباه من خلال نظارته. فقد كان متأكدا من

أنه لم ير هذا الوجه من قبل، ثم أعاد السائق منديله إلى مكانه قائلا: "لا أتقاضى أجرا أبدا من أمثالك" قال هذا وقد شغل نفسه بفرامل اليد، ثم مد يده فجأة – يد رجل عجوز ذات عروق غليظة وأظافر سوداء – وقال الرجل لروياشوف وهو يبتسم له ابتسامة خانعة: "حظ سعيد يا سيدى. لو احتاج صديقك الشاب أى شىء فمكان وقوفى أمام المتحف، وتستطيع يا سيدى أن تعطيه رقم سيارتى".

رأى روياشوف إلى يمينه بوابا يتكئ على عمود وهو ينظر إليهما، فأحجم عن مصافحة يد السائق الممتدة إليه ووضع فيها نقودا، ثم ذهب إلى المحطة دون أن يتفوه بكلمة.

كان عليه أن ينتظر لمدة ساعة حتى يحين موعد رحيل القطار، فتوجه إلى المقصف ليشرب فيه قهوة رديئة. واشتد عليه ألم سنه. ولما ركب القطار أخذته سنة من نوم ورأى فى منامه أنه يجرى أمام القطار، بينما ريتشارد وسائق التاكسى يقفان فى الداخل يريدان أن يسحقاه تحت العجلات؛ لأنه تهرب من دفع أجرة الركوب.

أخذ صوت العجلات يقترب منه شيئا فشيئا وتسمرت قدماه وأبتا أن تتحركا، وحينما استيقظ من نومه شعر بغثيان وعرق بارد يتصبب على جبينه ولاحظ أن ركاب مقصورة القطار ينظرون إليه بشىء من الدهشة؛ كان الليل يخيم بالخارج فى أثناء مرور القطار ببلد مظلم من بلاد الأعداء. وتذكر ريتشارد فقال لنفسه: "إنه يجب الانتهاء من مسألة ريتشارد ثم شعر بالوجع فى سنه. وبعد ذلك بأسبوع ألقى القبض عليه.

(١٠)

واتكأ روباشوف بجبينه على النافذة ونظر إلى الفناء؛ كانت قدماه تؤلمانه وكان يشعر بدوار فى رأسه من المشى جيئة وذهابا، نظر فى ساعته وكانت الثانية عشرة إلا ربعا. كان قد أمضى حوالى أربع ساعات فى السير جيئة وذهابا فى زنزانته منذ أن خطرت بباله لوحة "الرحمة للسيدة العذراء" لأول مرة، ولم يندهش لأنه كان معتادا على أحلام اليقظة فى السجون وحالات الثمل التى تسببها له الجدران البيضاء.

ثم تذكر روباشوف رفيقا أصغر سنا كان يعمل مساعدا لمصفف شعر حكى له أنه فى السنة الثانية، التى كانت أسوأ سنوات حبسه الانفرادى ظل يحلم لمدة سبع ساعات متواصلة وعيناه مفتوحتان مشى فيها ثمانية وعشرين كيلو مترا فى زنزانة طولها خمس خطوات حتى دميت وتقرحت قدماه دون أن يدرى. ولكن على أية حال حدث ذلك بسرعة هذه المرة؛ إذ إنه بدأ يسمع الأصوات منذ يومه الأول، فى حين أنه فيما مضى كان يسمعها بعد انقضاء بضعة أسابيع من دخول الزنزانة. ومن الغريب أيضا أنه كان يفكر فى الماضى؛ فأحلام اليقظة المزمنة فى السجون تدور فى الغالب حول المستقبل، وإذا دارت حول الماضى فإنها تدور حول الماضى كما كان ينبغى أن يحدث وليس كما حدث بالفعل. تعجب روباشوف مما يخبئه له عقله من مفاجآت ، فقد كان

يعرف من تجاربه أن مواجهة الموت دائما تغير آليات الفكر وتسبب ردود فعل عجيبة للغاية مثل حركات البوصلة حينما تقترب من القطب المغناطيسي.

كانت السماء لا تزال مثقلة بالثلوج التي تنذر بالسقوط، وكان في الفناء رجلان يقومان بالتريض اليومي على الطريق الممهدة، ونظر أحدهما عدة مرات إلى نافذة روباشوف مما يبين أن نبأ القبض عليه قد انتشر.

كان الرجل نحيلا أصفر اللون، أشرم الشفة، يرتدي سترة خفيفة واقية من الماء وكان يتدثر بها حول كتفيه كما لو كان يشعر بأنه يتجمد. أما الرجل الآخر فقد كان أكبر سنا. وكان يتدثر ببطانية. ولم يتبادل الرجلان الحديث خلال جولتهما، وبعد عشر دقائق اقتادهما إلى داخل المبنى موظف يرتدي الزي الرسمي يحمل عصا من المطاط ومسدسا.

كان الباب الذي انتظر عنده الموظف مواجها لنافذة روباشوف وقبل أن يُغلق الباب وراء السجين ذي الشفة الشبيهة بشفاه الأرانب المتدلية نظر هذا السجين مرة أخرى ناحية روباشوف، لكنه بالتأكيد لم يتمكن من رؤيته؛ حيث إنه من المؤكد أن نافذة روباشوف كانت تبدو مظلمة من الفناء. غير أن عيني ذي الشفة الشبيهة بشفة الأرنب المتدلية ظلتا تتفحصان النافذة .

فكر روباشوف: "أنا أراك لكني لا أعرفك، وأنت لا تستطيع أن تراني، لكن من الواضح أنك تعرفني".

ثم جلس على سريره وأخذ يدق على حائط الزنزانة المجاورة رقم (٤٠٢) "من هؤلاء؟" كان يعتقد أن رقم (٤٠٢) مستاء، وأنه لن يرد، لكن الضابط السجين لم يكن يحمل له ضغينة، فأجاب على الفور:

"سجناء سياسيون"، فدهش روباشوف؛ لأنه كان يعتقد أن الرجل النحيل ذا الشفة الأرنبية مجرم، ثم نقر على الحائط متسائلا: "من نوعك نفسه؟" فدق رقم (٤٠٢) مكشرا عن أسنانه لشعوره فى الغالب برضا من نوع معين "لا... من نوعك أنت". ثم جاءت الجملة الثانية بنقرة أعلى صادرة ربما عن الدق بنظارته ذات العدسة الواحدة. ثم دق (٤٠٢) "لقد عذبوا جارى رقم (٤٠٠) ذا الشفة الأرنبية بالأمس". سكت روباشوف دقيقة ثم مسح نظارته فى كمه على الرغم من أنه كان يستخدمها فى الدق فقط، كان يريد بدقته فى البداية أن يسأل: "لماذا؟" لكنه دق بدلا من ذلك "كيف؟" فدق رقم (٤٠٢) بطريقة جافة "عذبوه عن طريق حمام البخار".

لقد سبق لروباشوف أن ضرب مرات متعددة فى أثناء سجنه الأخير، لكنه لم يكن يعرف هذا الأسلوب فى التعذيب إلا من خلال الإشاعات وتناقل الأنباء؛ كان يعلم أن أى نوع من أنواع التعذيب الجسمانى يمكن احتماله إذا عرف الشخص مسبقا ماذا سيحدث له بالضبط، فيتحمله على أنه عملية جراحية كخلع الضرس مثلا. والحقيقة كان المجهول هو أسوأ ما فى الأمر؛ لأنه لا يعطى للمرء فرصة كى يدرك

رد فعله مسبقا ولا يفسح له المجال كي يعرف مدى قدرته على المقاومة، والأسوأ من هذا كله هو الخوف من أن يقول المرء أو يفعل ما لا يستطيع أن يذكره بعد ذلك.

ثم سأل روباشوف: "لماذا؟" فدق رقم (٤٠٢) بسخرية "خلافات سياسية". لبس روباشوف نظارته من جديد ومد يده فى جيبه باحثا عن علبة التبغ التى لم يتبق فيها سوى لفافتين، ثم دق "وكيف حالك؟" فدق رقم (٤٠٢) "شكرا أنا على ما يرام" وأنهى الحديث.

هز روباشوف كتفيه ثم أشعل لفافة التبغ قبل الأخيرة، وأخذ يستكمل سيره جيئة وذهابا. من الغريب أن المصير الذى كان ينتظره جعله يشعر بشيء من السرور وأنه قد شفى من الاكتئاب الذى يلازمه، وأصبح صافى الذهن غير متوتر الأعصاب، فغسل وجهه وصدره بالماء البارد فى الحوض ثم تمضمض وجفف نفسه بمنديله مترنما ببعض المقطوعات الموسيقية وهو يبتسم ؛ إذ إنه لم يكن يحسن التنغيم قط، ومنذ بضعة أيام قال له شخص: لو كان رقم (١) صاحب أذن موسيقية لوجد حجة منذ زمن لإطلاق النار عليك، فأجابه دون أن يعتقد جديا فى ذلك.. "إنه سوف يفعل ذلك على أية حال".

وأشعل لفافة التبغ الأخيرة وبدأ يخطط بذهن صاف لما سوف يفعله عندما يقتادونه للتحقيق معه. كانت تملؤه نفس الثقة بالنفس. التى كانت

تزوده بالهدوء والسكينة تحديداً قبل دخوله امتحانات صعبة حينما كان طالبا. وأخذ يسترجع بذاكرته كل ما يعرفه عن موضوع (حمام البخار) ثم بدأ يتخيل الموقف بالتفصيل ويحاول أن يحلل الإحساس البدنى المتوقع؛ كى يتخلص من وحشته وغرابته. فأهم شىء ألا يؤخذ المرء على غرة.. لقد أصبح الآن على ثقة من أنهم لن ينجحوا فى ذلك أكثر مما نجح فيه غيرهم هناك، وأنه لن يدلى بأى شىء لا يرغب فى الإفصاح عنه، لكنه كان يتمنى أن يبدأوا على الفور. تسلل حلم إلى ذهنه فرأى ريتشارد وسائق التاكسى يلاحقانه لشعورهما بأنه قد خدعهما وخانهما، فتخيل نفسه وقد ارتسمت عليه ابتسامة غريبة وهو يدفع الأجرة المستحقة عليه.

أوشكت لفافة التبغ الأخيرة على الانتهاء حتى كادت تحرق أطراف أصابعه فرماها على الأرض وكاد أن يسحقها بقدمه، لكنه غيّر فكره وانحنى والتقطها وسحق عقبها المتوهج ببطء على ظهر يده بين العروق الزرقاء الملتوية. استغرقت هذه العملية نصف دقيقة بالضبط؛ إذ إنه كان يرقب عقرب الثوانى فى ساعته. لقد كان راضيا عن نفسه لأن يده لم ترتعش أو تختلج ولو مرة واحدة فى أثناء الثلاثين ثانية، ثم عاود سيره واختفت العين التى كانت تراقبه من الكوة لمدة بضع دقائق.

(١١)

مرّ موكب توزيع الغداء فى الرواق تاركا زنزانة روباشوف، الذى آثر أن يوفر على نفسه ذل التطلع من الكوة فلم يكتشف نوع الغذاء، لكن رائحته الطيبة ملأت الزنزانة.

وشعر برغبة ملحة فى التدخين. فشعر بضرورة الحصول على أية سيجارة بأية طريقة كى يستطيع التركيز. فقد كان التبغ لديه أهم من الطعام. انتظر نصف ساعة حتى انتهوا من توزيع الغذاء ثم بدأ يقرع الباب، فجاء السجان المسن يجر قدميه بعد ربع ساعة وسأله بنبرة صوته الوقحة المعتادة: "ماذا تريد؟" أجاب روباشوف "أريد سجائر من المقصف"، فقال "هل لديك كوبونات السجن؟"

رد روباشوف بقوله: "لقد أخذوا نقودى عند وصولى".

قال له السجان: "إذن يجب عليك أن تنتظر حتى يحولوها إلى كوبونات"، فسأله بضجر روباشوف: "كم يستغرق ذلك من الوقت فى مؤسستكم النموذجية؟"، فقال السجان المسن: "يمكنك أن تكتب عريضة شكوى".

فقال روباشوف: "أنت تعرف جيدا أنه ليس لدى ورق ولا قلم". أجابه السجان: "إذا أردت شراء أدوات كتابية فيجب أن يكون لديك كوبونات".

شعر روباشوف بأنه بدأ يفقد أعصابه وبضغط وضيق تنفس فى صدره، كما شعر بغصة في حلقه، لكنه تمكن من التغلب عليها. رأى السجان المسن عينى روباشوف تبرقان بحدة من وراء نظارته، فتذكر صوره الملونة وهو يرتدى الزى الرسمى والتى كانت تشاهد فى غابر الأيام فى كل مكان. فابتسم ابتسامة تمتلئ بحقد الشيخوخة ورجع خطوة للوراء.

رد عليه روباشوف ببطء: "أيها الكومة الصغيرة من الروث" ثم أعطاه ظهره وذهب إلى النافذة، قال الرجل المسن من ورائه : "سوف أبلغ بأنك استخدمت معى كلمات مهينة". ثم أغلق الباب بعنف. مسح روباشوف نظارته فى كمه وانتظر حتى تمكن من التنفس بهدوء وشعر بضرورة الحصول على لفائف التبغ حتى لا ينهار، وأرغم نفسه على الانتظار لعشر دقائق ثم بدأ يدق على جدار زنزانة السجن لرقم (٤٠٢): "هل لديك تبغ؟" تعين عليه الانتظار قليلا حتى جاءه الرد واضحا على هيئة نقرات منتظمة على الحائط: "ليس لدى تبغ من أجلك".

عاد روباشوف ببطء إلى النافذة وتخيل الضابط الشاب ذا الشارب الصغير وهو يرتدى نظارته ذات العدسة الواحدة، ويحملق فى الحائط الذى يفصلهما ويبتسم ابتسامة لا تخلو من التكشير، وقد بدت عينه من وراء النظارة كالعين الزجاجية وجفنه الأحمر مقلوبا لأعلى. تُرى ماذا يدور فى خلده؟ من المحتمل أنه كان يفكر: "لقد أوفيتك حقك بالفعل". من المحتمل أيضا أنه كان يقول لنفسه: "أيها الخسيس كم قتلت من أهلى وناسى؟" نظر روباشوف إلى الجدار الأبيض وشعر بأن زميله السجين يقف خلفه شاخصا ببصره نحوه، وظن أنه يسمع أنفاسه اللاهثة. نعم إنى أسأل نفسى عن الذين قتلتهم من بنى جلدتك؟ لم يكن يتذكر فى واقع الأمر، فقد حدث هذا منذ زمن طويل جدا فى أثناء الحرب الأهلية: "أعتقد أن عددهم كان بين السبعين والمائة. وماذا فى ذلك؟ شعر بأنه كان

على صواب فيما فعل، وأن الأمر يختلف عن حالة ريتشارد. وهو اليوم على استعداد أن يفعل الشيء نفسه من جديد حتى لو علم من البداية أن الثورة سوف تضع رقم (١) في مركز السلطة في نهاية الأمر... حتى إذا حدث ذلك.

فكر روباشوف وهو ينظر إلى الحائط الأبيض، الذي يخفي عنه الشخص الآخر والذي يحتمل أن يكون قد أشعل لفافة تبغ، وبدأ ينفث دخانها على الحائط. وجال بخاطر روباشوف: "ليس لدي حسابات لأسويها معك، ولست مدينا لك بأي شيء أو أجرة أعطيك إياها . فليست هناك بيننا وبينك معاملات مشتركة ولا لغة مشتركة. حسنا فماذا تريد الآن؟".

عاد روباشوف إلى الحائط؛ لأنه سمع النزيل رقم (٤٠٢) يدق على الحائط من جديد ليقول: "مرسل لك تبغ" ثم سمعه روباشوف يدق على بابه بصوت خافت كي يجذب انتباه السجان. كتم روباشوف أنفاسه ثم سمع بعد بضع دقائق خطوات السجان المسن وهو يجر قدميه مقتربا، لكنه لم يفتح باب السجين رقم (٤٠٢) وسأله خلال ثقب الباب "ماذا تريد؟".

لم يتمكن روباشوف من سماع الإجابة على الرغم من أنه كان يرغب في سماع صوت رقم (٤٠٢)، ثم قال السجان العجوز بصوت عال حتى يسمعه روباشوف: "هذا غير مسموح به وضد اللوائح"، لكن

روباشوف لم يتمكن من سماع الإجابة للمرة الثانية، ثم أضاف السجان: "سوف أبلغ أنك استخدمت معى كلمات مهينة"، وجر قدميه على الأرض واختفى فى الرواق.

خيم السكون لفترة ثم دق النزيل رقم (٤٠٢) الكلمات التالية على الجدار: "لا تستبشر خيرا". لم يرد روباشوف وظل يسير جيئة وذهابا، وهو يشعر بالرغبة فى التدخين تلسع غشاء حلقه الجاف، ثم فكر فى السجين رقم (٤٠٢) وقال لنفسه: "ومع ذلك فإنى على استعداد لتكرار ما فعلت فهذا حق وضرورة. هل أنا يا ترى مدين لك بشىء؟ وهل يجب على المرء أن يدفع ثمن الأفعال الضرورية والسليمة؟

ازداد جفاف حلقه وشعر بضغط فى جبينه، فتحرك بقلق إلى الخلف والأمام. وبينما هو يفكر بدأت شفتاه تتحركان متساءلا: "هل يجب على المرء أن يدفع ثمن تقواه وأفعاله السليمة أيضا؟ هل هناك مقاييس أخرى غير معيار العقل؟". "هل من المحتمل أن يتحمل الرجل الورع أفدح الديون وأثقلها عند الحكم عليه بهذه المقاييس الأخرى؟ وهل من المحتمل أن يتضاعف دينه؛ لأن الآخرين لا يعرفون ما يفعلون؟"

وقف روباشوف بلا حراك على البلاطة السوداء الثالثة من جهة النافذة "ما هذا الذى يحدث لى؟ هل اعترتنى لفحة من الجنون الدينى؟" ثم بدأ يشعر بأنه كان يتحدث منذ عدة دقائق إلى نفسه بصوت مرتفع إلى حد ما. وحتى فى أثناء ملاحظته لنفسه تحركت شفتاه رغما عن

إرادته وقال "سوف أدفع الثمن".

كانت هذه هى المرة الأولى التى شعر فيها بالفزع منذ القبض عليه، فبحث عن سجائره لكنه لم يجدها.

سمع من جديد صوت نقر رقيق على الحائط المجاور للسرير، وتلقى من السجين (٤٠٢) الرسالة التالية:

"ذو الشفة الأرنبية يرسل إليك تحياته"

تخيل روباشوف وجهه الأصفر الشاخص إلى أعلى وجعلته الرسالة يشعر بعدم ارتياح، فدق على الجدار متسائلا بالشفرة: "فأجاب (٤٠٢)" إنه يرفض ذكر اسمه ولكنه يرسل إليك التحية".

(١٢)

ازدادت حالة روباشوف سوءا فى فترة ما بعد الظهيرة، فقد انتابته نوبات رعشة متكررة، وبدأ نابه المتصل بالعصب البصرى يؤلمه من جديد. وعلى الرغم من أنه لم يقدم إليه أى طعام منذ القبض عليه، فإنه لم يكن يشعر بالجوع.

حاول أن يستجمع قواه الذهنية، لكن الرعدة التى سرت فى أوصاله والوخز الخفيف الذى أصاب حلقه منعاه من ذلك. تركزت أفكاره حول نقطتين: رغبته الشديدة فى تدخين سيجارة وعبارة "سوف أدفع الثمن". اجتاحته الذكريات، التى كانت تطن وتئز بخفة فى أذنيه، وظهرت له

الوجوه والأصوات ثم اختفت. وكلما حاول الإمساك بها جرحته لدرجة أن كل لمسة أشعرته بأن ماضيه كان متقيحا ومليئا بالقرح. لقد تجسد ماضيه فى الحركة الشيوعية والحزب، كما أن حاضره ومستقبله أيضا ملك للحزب ويرتبطان به بعرى وأواصر لا تنفصم. لكن ماضيه كان قدره المحتوم وجزءا لا يتجزأ منه... ذلك الماضى الذى أصبح فجأة موضع شك. وبدا له كيان الحزب الدافئ المفعم بالحياة مليئا بالتقيحات والقرح والجروح الدامية. أين ومتى كان التاريخ يعرف بمثل هؤلاء القديسين الذين تشوبهم العيوب؟ متى صورت قضية عادلة بمثل هذه الدرجة من السوء؟ وإذا كان الحزب حقا يجسد إرادة التاريخ فلابد من أن هذا التاريخ تشوبه العيوب. فحملق روباشوف فى البقع الرطبة على جدران زنزانته ثم شد البطانية من فوق سريره المعلق، ولفها حول كتفيه ثم زاد من سرعة خطواته وأخذ يسير جيئة وذهابا بخطوات قصيرة وسريعة مع الدوران على عقبيه فجأة عند الباب وعند النافذة. لكن الرعشة كانت لا تزال تعترى ظهره. واستمر الطنين فى أذنه مختلطا ببعض الأصوات الناعمة الغامضة فلم يستطع معرفة ما إذا كانت بالفعل تأتيه من الرواق، أم أنه كان يعانى من الهلوسة. فقال فى نفسه: "إن جذر ناب العين المكسور قد أثر فى محاجر العين وسوف أخبر الطبيب بهذا غدا". لكن فى الوقت نفسه لا يزال هناك الكثير للقيام به فسبب وهن الحزب لابد أن يكتشف. إن كل مبادئنا كانت صائبة، لكن كل ما حققناه من نتائج يجانب الصواب. فهذا الجيل عليل. لقد فحصنا المرض وأسبابه

أدق الفحص، وكلما استخدمنا مبضع الجراحة والتأمت قرحة ظهرت قرحة جديدة. كانت لنا إرادة قوية ونزيهة. وكان يجب علينا أن نكسب حب الناس، لكنهم كرهونا فلماذا يحملون ضدنا كل هذا البغض والمقت؟ لقد قدمنا لكم الحقيقة، لكنها كانت تبدو كالأكاذيب فى أفواهنا، وقدمنا إليكم الحرية لكن بدت فى أيدينا كسوط يلهب الظهور، وأيضا قدمنا لكم الحياة لكن عند سماع أصواتنا تذبل الأشجار ويترامى إلى السمع حفيف أوراقها الجافة. وقدمنا لكم الأمل فى المستقبل لكن ألسنتنا تلعثمت وخرجت منها الكلمات كالنباح. شعر برعشة ثم حضرت إلى ذهنه صورة فوتوغرافية كبيرة ذات إطار خشبى. صورة المندوبين الحاضرين فى أول مؤتمر يعقده الحزب. وهم يجلسون حول مائدة خشبية طويلة بعضهم متكئين بمرافقهم عليها، والبعض الآخر متكئين بأيديهم على ركبهم. كانوا ملتحين وجادين يحملقون فى عدسة المصور.

وكان هناك فوق رأس كل منهم حلقة صغيرة يتوسطها رقم يدل على الاسم المكتوب أسفل الصورة. كانوا جميعا وقورين، أما رئيسهم - وهو رجل عجوز - فقد كان ذا نظرة ماكرة تتسم بالتسلية على عباد الله تشع من عينيه اللتين تشبهان أعين التتار. كان روباشوف يجلس إلى يمينه واضعا نظارته على أنفه، أما رقم (١)، أى الرئيس المربع الشكل وثقيل الوزن فكان يجلس فى مكان ما عند الطرف الآخر للمنضدة. بدا الاجتماع كأنه اجتماع مجلس مدينة محلى؛ كانوا يخططون لأكبر ثورة

فى التاريخ الإنسانى. لم يكونوا فى ذلك الوقت سوى حفنة من الرجال من نوع جديد، وكانوا فلاسفة مناضلين يألفون السجون فى مدن أوربا كما يألف التجار الجائلون الفنادق التى يبيتون فيها، وكانوا يحلمون بالحصول على السلطة بهدف القضاء على السلطة، وبحكم الشعب من أجل تحريره وتخليصه من خضوعه لحكامه. وتحولت جميع أفكارهم إلى أفعال وتحققت جميع أحلامهم. فأين كانوا؟ إن أدمغتهم التى غيرت مسار العالم قد أصيب كل منها برصاصة؛ البعض تلقاها فى جبينه والبعض الآخر فى مؤخرة رأسه، لم يبق منهم على قيد الحياة إلا هو ورقم (١) واثنان أو ثلاثة أصابهم الإعياء والتعب وتفرقوا حول العالم.

شعر بأنه يتجمد من البرودة وبرغبة عارمة فى التدخين، فتذكر نفسه عندما كان فى الميناء البلجيكى القديم يرافقه لوى الصغير المرح الأحدب بعض الشىء والذى كان يدخن غليون البحارة، وشم من جديد رائحة الميناء وهى خليط من رائحة أعشاب البحر المتعفنة ورائحة البترول، وسمع صوت الساعة الموسيقية تدق فوق برج قاعة النقابة القديمة ورأى الشوارع الضيقة المطلة على الشواطئ من مشربيات نوافذ عاهرات الميناء اللاتى ينشرن عليها غسيلهن فى أثناء النهار. كان ذلك بعد سنتين من وقوع حادث ريتشارد، لم ينجحوا فى إثبات أى شىء ضد روباشوف الذى التزم الصمت عندما كانوا يضربونه ويهشمون أسنانه ويدمرون سمعه ويكسرون نظارته. التزم الصمت واستمر فى إنكار كل شىء وفى الكذب ببرود وحيطة وحذر.

كان يسير فى زنزانته المظلمة جيئة وذهابا، ويزحف على ألواحها الحجرية، ويشعر بالخوف ويفكر فى سبل الدفاع عن نفسه، وحينما كان يفيق من غيبوبته نتيجة إلقاء الماء البارد عليه تلمس طريقه إلى سيجارة ينفث دخانها وهو يواصل رقاده. ولم يكن يدهش فى تلك الأيام للكراهية التى كان يكنها له من يعذبونه. ولم يعجب من أنهم كانوا يمقتونه إلى هذا الحد. وكشرت جميع آليات النظام الديكتاتورى عن أنيابها لتعمل فى جسده نهشا، ولكنهم عجزوا عن إثبات أى شىء ضده. وبعد إطلاق سراحه أعادوه بالطائرة إلى بلده فى أرض الثورة، فأقاموا له الاستقبالات والاجتماعات الجماهيرية البهيجة والعروض العسكرية. حتى رقم (١) ظهر مرارا وتكرارا معه فى العلن.

وجد أن الكثير قد تغير فى بلده بعد غيابه عنها بعدة سنوات. فقد قضى نحبهم نصف الملتحين، الذين ظهروا فى الصورة. لم تعد أسماؤهم تذكر وإذا ذكرت فهى تستمطر اللعنات باستثناء ذلك الرجل المسن ذى العينين الضيقتين، اللتين تشبهان عيون التتار زعيم الأيام الخوالى، الذى مات فى الوقت المناسب، فقد كانوا يبجلونه ويطلقون عليه لقب "الأب الروحى"(*) كما يطلقون على رقم (١) "الابن"(**) تشبيها له بالمسيح ابن

(*) لعل هذا إشارة إلى لينين. (المترجم)

(**) لعل هذا إشارة إلى ستالين. (المترجم)

الله، لكنهم كانوا يتهامسون فى كل مكان بأن رقم (١) زور وصية الرجل المسن كى يخلفه. أما من بقى من الرجال الملتحين، الذين كانوا يظهرون فى الصورة القديمة، فقد أصبحوا لا يحظون باعتراف أى أحد بهم؛ حيث إنهم صاروا حليقى الذقون واهنين بعد أن تحرروا من الوهم، وأصبح الحزن الذى ينتاب البشر يملؤهم. ومن وقت إلى آخر كان رقم (١) يتصيد منهم فريسة جديدة فيشقون صدورهم ويبدون ندمهم جميعا فى صوت واحد على ما ارتكبوا من أوزار. وبعد مرور أسبوعين طلب روباشوف أن يذهب فى مهمة جديدة بالخارج، على الرغم من أنه كان لا يزال يسير على عكازين، فقال له رقم (١) وهو ينظر إليه من خلف سحب الدخان المتصاعد "يبدو أنك متعجل بعض الشىء". فبعد مرور عشرين سنة على وجودهما معًا فى قيادة الحزب كانا لا يزالان يتخاطبان بلهجة رسمية، كانت صورة الرجل المسن معلقة فوق رأس رقم (١) وإلى جواره صورة ذوى الرءوس المرقمة التى اختفت الآن ولم يعد لها وجود. كان الحديث بينه وبين رقم (١) قصيرًا ولم يدم أكثر من بضع دقائق، لكن عند الرحيل شد رقم (١) على يد روباشوف بحرارة خاصة مما جعله يفكر بعمق لفترة طويلة فى معنى هذا السلام الحار، وفى نظرة السخرية الغريبة التى ألقاها عليه رقم (١) من خلف سحب الدخان، ثم خرج روباشوف من الحجرة على عكازين دون أن يصحبه رقم (١) إلى الباب. فى اليوم التالى رحل إلى بلجيكا؛ ليسترد صحته قليلا على الباخرة التى

أقلته. وهو يفكر فى مهمته. وعند وصوله جاء لوى الصغير ومعه غليونه، الذى يتميز البحارة بتدخينه لمقابلته؛ إذ إنه كان الزعيم المحلى لقسم عمال أحواض السفن بالحزب. فما لبث روباشوف أن أحبه، واصطحب لوى روباشوف ليفرجه على أحواض السفن وشوارع الميناء الملتوية وهو يشعر بالفخر كما لو كانت كلها من صنعه. كان له معارف من عمال أحواض السفن والبحارة والعاهرات فى كل حانة، وكانوا يقدمون له الشراب فى كل مكان، كما كان يرد تحيتهم برفع غليونه إلى أذنه. حتى شرطى المرور فى ساحة السوق، غمز إليه بعينه فى أثناء مروره أمامه، أما الرفاق العاملون على السفن الأجنبية الذين لم يستطيعوا التعبير عن أنفسهم فقد كانوا يربتون برفق على كتفه المشوه.

لم يدهش روباشوف كثيرا من كل ما رأى؛ لأن لوى الصغير لم يكن مكروها أو بغيضًا. كان قسم عمال السفن فى هذه المدينة من أفضل أقسام الحزب من حيث التنظيم على المستوى العالمى. وفى المساء جلس روباشوف ولوى الصغير وشخصان آخران فى حانة بالميناء، وكان أحد هذين الشخصين رجلا يدعى "بول"، وهو سكرتير التنظيم بالقسم ومصارع سابق ذو رأس أصلع ووجه به بثور تبرز منه أذنان كبيرتان بارزتان، ويرتدى تحت معطفه سترة بحار سوداء وقبعة مستديرة سوداء أيضا. وكانت لديه القدرة على تحريك أذنيه فترتفع قبعته وتهبط ثانية. وكان يرافقه "بيل"، وهو بحار سابق كان قد كتب رواية عن حياة البحر

فاشتهر لمدة سنة ، ثم خبا نجمه بسرعة وطواه النسيان. وهو الآن يكتب مقالات لجريدة الحزب، أما بقية الجلساء فكانوا من عمال أحواض السفن من أصحاب الوزن الثقيل الذين لا يؤثر فيهم الشراب.

وتوافد فى حالة تسكع أشخاص جدد إما للجلوس، أو الوقوف بجوار المائدة لاحتساء دور من الشراب ثم يغادرون الحانة لمواصلة تسكعهم، وكان صاحب الحانة السمين ينضم إلى مائدتهم قليلاً كلما حانت له فرصة؛ ليعزف على الهرمونيكا بين كثير من السكارى.

قدم لوى الصغير روباشوف على أنه رفيق من "هناك" دون أى تعليق آخر. فقد كان لوى الصغير الوحيد الذى يعرف حقيقة هويته. وحين أدرك الناس حول المائدة أن مزاج روباشوف عازف عن الكلام معهم، أو أن لديه أسبابا تدعوه للإمساك عنه كانوا لا يثقلون عليه بالأسئلة، وحتى الأسئلة التى سألوها كانت تتعلق بأحوال الحياة المادية "هناك" مثل الأجور ومشكلات الأرض وتطور الصناعة. كل ما قالوه كشف عن معرفتهم الفائقة بالتفاصيل التقنية الدقيقة، وكذا جهلهم الصارخ بالوضع العام والجو السياسى "فى تلك البلاد". فقد تساءلوا عن تطوير الإنتاج بالنسبة للصناعات المعدنية الخفيفة، كما يتساءل الأطفال عن الحجم المضبوط للعنب فى أرض كنعان.

وقف أمام الباب لفترة عامل عجوز فى أحواض السفن دون أن يطلب شيئا حتى ناداه لوى الصغير؛ ليتناول قدحا من الشراب، وسلم

الرجل على روباشوف وقال له: "أنت لم تتغير وها أنا أرى أمامى روباشوف القديم إلى حد كبير"، فرد روباشوف بقوله: "إنهم فى الغالب يقولون هذا عنى". فقال الرجل العجوز وهو يفرغ كأسا فى جوفه: "روباشوف القديم ها أنا ذا أحييك".

لم يكن قد مرّ شهر على إطلاق سراح روباشوف، ولم تكن قد مرت ستة أسابيع منذ أن أدرك أن الحياة كتبت له من جديد.

عزف صاحب الحانة السمين على آلة الهارمونيكا، وأشعل روباشوف لفافة تبغ وطلب شرابا لجميع الحاضرين. شرب الجميع نخب روباشوف ونخب صحة الناس "هناك"، بينما أخذ بول السكرتير يحرك قبعته بأذنيه إلى أعلى وأسفل. وبعد ذلك بقى روباشوف ولوى الصغير فى المقهى لبعض الوقت، بينما لوى الصغير يحكى لروباشوف قصة حياته دون أن يسأل عنها روباشوف.

أسدل صاحب المقهى الستائر الخفيفة وكوم المقاعد فوق الموائد ونام على الطاولة، وتوقع روباشوف على الفور المشكلات والتعقيدات التى سوف تنتظره فى اليوم التالى. ولم يجد مناصا من أن يتحمل رغبة جميع الرفاق فى إطلاعه على قصة حياتهم. كان فى الواقع يرغب فى الانصراف، لكنه ما لبث أن شعر بالإعياء الشديد، وتبين له فى النهاية أنه بالغ فى تقدير قوته على التحمل، وهكذا مكث ليستمع إلى هؤلاء الرفاق.

اتضح له أن لوى الصغير ليس من أهالى البلد على الرغم من أنه يتكلم لغتها كأحد أبنائها، ويعرف كل شخص فى المدينة. والواقع أنه كان من مواليد مدينة بجنوب ألمانيا، وتعلم حرفة النجارة والعزف على الجيتار وتلقى محاضرات عن الداروينية فى رحلات يوم الأحد، التى كان يقوم بها نادى الشباب الثورى فى أثناء شهور الاضطرابات قبل مجىء الدكتاتورية للحكم... وحينما كان الحزب فى مسيس الحاجة إلى الأسلحة استطاع الحصول عليها عن طريق قيامه بخدعة جريئة فى هذه المدينة تحديدا: ففى فترة بعد ظهيرة أحد أيام الآحاد تم نقل خمسين بندقية وعشرين مسدسا ومدفعين رشاشين من النوع الخفيف وعتاد حربى فى عربة أثاث من قسم الشرطة، الذى يقع فى أكثر أحياء المدينة ازدحاما بناء على أمر كتابى مختوم بالأختام الرسمية أبرزه من العربة رجلا شرطة مزيفان يرتديان الزى الرسمى، وبعد ذلك تم العثور على هذه الأسلحة فى مدينة أخرى أثناء البحث فى جراج أحد أعضاء الحزب. ولم تتضح أبعاد هذه العملية قط بجلاء، لكن لوى الصغير اختفى من المدينة فى اليوم التالى، ووعده الحزب بجواز سفر وأوراق تحقيق الشخصية، لكن هذا الوعد لم يتحقق لأن المبعوث من قبل دوائر الحزب العليا الذى كان مكلفا بإحضار جواز السفر والنقود إليه ليقوم برحلته - لم يحضر إلى المكان المتفق عليه، ثم أضاف لوى الصغير بنغمة فلسفية "هذا ما يحدث معنا على الدوام"، لكن روباشوف ظل صامتا.

وعلى الرغم من ذلك تمكن لوى الصغير من الهرب وعبور الحدود، حيث إنه صدر أمر بالقبض عليه وأصبحت صورته التى يظهر فيها كتفه المشوه تغطي جدران جميع أقسام الشرطة، مما جعله يتجول فى البلاد لعدة شهور. وحين توجه لوى للقاء الرفيق المبعوث من دوائر الحزب العليا لم يكن فى جيبه نقود تكفى إلا لثلاثة أيام فقط؛ الأمر الذى جعله يعلق على ذلك قائلا: "لقد كنت أعتقد من قبل أن الجوع يجعل الناس يأكلون لحاء الأشجار فى الكتب فقط، لكن خبرتي تدلني على أن شجرة الجنار الصغيرة لها مذاق أفضل". ودفعته هذه الذكريات إلى النهوض لإحضار شطيرتين من السجق من فوق الطاولة، فتذكر روباشوف حساء السجن والإضراب عن الطعام وأخذ يأكل معه. وفى النهاية استطاع لوى الصغير أن يعبر الحدود الفرنسية، ثم تم القبض عليه بعد بضعة أيام لعدم وجود جواز سفر معه، ولكنهم أطلقوا سراحه وأمروه بمغادرة البلاد.

وعلى حد قول لوى: "كان من الممكن أيضا أن يأمرونى بالصعود إلى القمر". طلب المساعدة من الحزب، لكنه لم يكن معروفا لدى الحزب فى هذا البلد، ولذا أخبروه بضرورة قيامهم ببعض التحريات عنه فى بلده الأصلي، فظل يتجول حتى تم القبض عليه ثانية بعد مضى بضعة أيام وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة أشهر فقضى فترة العقوبة التى أعطى خلالها زميله الصعلوك فى الزنزانة مجموعة من المحاضرات عن

القرارات التي اتخذها آخر مؤتمر عقده الحزب. وفى مقابل ذلك أطلعه زميله الصعلوك على أسرار كسب العيش عن طريق اصطياد القطط وبيع جلدها، وبعد انقضاء الثلاثة أشهر اقتادوه فى الليل إلى غابة عند الحدود البلجيكية؛ حيث أعطاه رجال الشرطة خبزا وجبنا وعلبة تبغ فرنسية وقالوا له: "امضِ فى طريقك وبعد نصف ساعة ستجد نفسك فى بلجيكا". أما إذا تم القبض عليك هنا مرة أخرى فسوف ندق عنقك. ظل لوى الصغير يسير على غير هدى لعدة أسابيع فى بلجيكا ولجأ للحزب من جديد من أجل المساعدة، لكنه تلقى الرد نفسه الذى سبق أن تلقاه فى فرنسا. وعندما ضاق ذرعا بكثرة أكل لحاء شجر الجنار، أخذ يجرب تجارة القطط. كان الإمساك بالقطط أمرا سهلا، وكان يتحصل على نصف رغيف من الخبز وعلبة تبغ لغليونه نظير كل قطة صغيرة خالية من الجرب. إلا أن عملية الإمساك بالقطط وبيع جلدها دعته إلى التقزز بعض الشيء. كانت عملية صيدها تتم على وجه السرعة إذا ما أحكم قبضته على أذنى القطة بيده، وعلى ذيلها باليد الأخرى ثم يقصم ظهرها على ركبته. فى المرات القليلة الأولى كان يشعر بالغثيان لكنه فيما بعد تعود على ذلك. ولسوء الحظ تم القبض على لوى الصغير بعد بضعة أسابيع؛ لأنه فى بلجيكا أيضا كان يتعين على المرء أن يحمل أوراقا لإثبات شخصيته، وتبع ذلك ترحيله والإفراج عنه، ثم القبض عليه للمرة الثانية ثم سجنه. وفى إحدى الليالى أخذه اثنان من رجال الشرطة البلجيكية

إلى غابة على الحدود الفرنسية وأعطوه خبزا وجبنا وعلبة تبلغ بلجيكية وقالوا له: "امضِ في طريقك وسوف تجد نفسك بعد نصف ساعة في فرنسا. أما إذا تم القبض عليك هنا مرة أخرى فسوف ندق عنقك".

وفي خلال السنة التالية تم تهريب لوي الصغير على الحدود ثلاث مرات في اتجاهات شتى بتواطؤ السلطات الفرنسية والبلجيكية تبعا للحالة، واكتشف أن هذه اللعبة تمارس منذ سنوات مع المئات من أمثاله. وكان يلجأ باستمرار إلى الحزب لأن فقدانه الاتصال بالحركة كان يعتبر الطامة الكبرى بالنسبة إليه، وكان الحزب يرد عليه: "لم نتلق إخطارا بوصولك من التنظيم الذي تنتمي إليه، ويجب أن تنتظر حتى نتلقى الرد على استفساراتنا. فإذا كنت عضوا في الحزب، التزم بالنظام الذي يفرضه عليك الحزب". في ذلك الوقت استمر لوي الصغير يمارس تجارة القطط تاركا لهم أمر ترحيله ذهابا وإيابا عبر الحدود. وفي هذه الأثناء استشرت الدكتاتورية في بلاده. وبعد انقضاء عام آخر تدهورت حالته الصحية بسبب كثرة أسفاره، وبدأ يبصق دما ويحلم بالقطط. وكان يكابد حمى وهم مفاده أن كل شيء أصبح يفوح برائحة القطط.. طعامه وغليونه وحتى العاهرات العجائز ذوات القلوب الطيبة اللائي وفرن له المأوى أحيانا. وكان الحزب يقول له «لم نحصل بعد على إجابة عن استفساراتنا» وبعد مرور سنة أخرى اتضح أن كل الرفاق، الذين كان

بمقدورهم تقديم المعلومات المطلوبة عن دور لوى الصغير انتهى أمرهم إما إلى القتل أو السجن أو الاختفاء.

وقال الحزب: "نحن نخشى أننا لن نستطيع عمل أى شىء من أجلك، وكان الواجب عليك ألا تأتى دون تكليف رسمى، ومن المحتمل أيضا أنك سافرت دون إذن الحزب فكيف يتسنى لنا أن نتبين كل ذلك؟ فالعديد من الجواسيس والمحرضين يحاولون التسلل إلى صفوفنا، ويجب على الحزب أن يكون على حذر"، فسأله روباشوف متمنيا لو أنه ترك المكان من قبل: "لماذا تقص علىّ هذا؟".

أحضر لوى الصغير قدحا من الجعة لنفسه من الصنبور وحيا بغليونه وقال: "لأن ذلك يعلمنا درسا ولأنه مثال حى، ويمكننى أن أقص عليك مئات الأمثلة الأخرى، فمنذ عدة سنوات وأفضل عناصرنا تتحطم على هذا النحو. إن الحزب أصبح أكثر تحجرا وكل طرف من أطرافه أصبح مصابا بالنقرس وبالدوالى، ومن ثم فإنه لا يمكن أن تقوم للثورة قائمة إذا استمرت الأمور هكذا".

قال روباشوف فى نفسه: "أستطيع أن أروى لك المزيد عن ذلك"، لكنه لم ينطق بشىء.

وعلى كل حال فإن قصة لوى الصغير الأوفر حظا من غيرها انتهت نهاية سعيدة غير متوقعة، فبينما كان يقضى إحدى عقوبات السجن التى لا تعد أو تحصى الصادرة ضده، زامله فى الزنزانة مصارع سابق

اسمه "بول". كان بول آنذاك عاملا فى أحواض السفن، وقد دخل السجن بسبب ممارسة احترافه السابق للمصارعة فى أثناء أحد الإضرابات، فاعتدى على رجل من رجال الشرطة باستخدام خنقة نيلسون المزدوجة، وهى خنقة يلحقها المصارع بغريمه بتمرير اليدين من تحت إبط الخصم من الخلف وشبكهما من وراء عنقه ثم الضغط على رأسه لأسفل حتى تتكسر فقرات رقبته. كان بول ينال دائما استحسانا وتصفيقا عظيما لقيامه بهذه الحركة داخل حلبة المصارعة، لكنه ندم على الإتيان بها عندما أدرك أن قبضة نيلسون المزدوجة لا تنفع فى مجال الصراع الطبقى.

أصبح لوى الصغير والملاكم السابق بول صديقين، واتضح بعد ذلك أن بول هو السكرتير الإدارى لقسم عمال أحواض السفن بالحزب. وبعد أن تم الإفراج عنهما دبر بول للوى بعض الأوراق، وتمكن من إعادته إلى صفوف الحزب فعاد يلقى محاضراته عن الداروينية من جديد وعن آخر اجتماعات الحزب على عمال أحواض السفن، وكأن شيئا لم يحدث له. كان سعيدا ونسى اصطياده القطط واستياءه من بيروقراطية الحزب، وبعد نصف عام أصبح السكرتير السياسى للقسم المحلى وهكذا أصبح لا شىء يهم ما دامت العبرة بالخواتم.

وتمنى روباشوف من كل قلبه، الذى أحس بأنه قلب عجوز متعب، أن ينتهى الأمر على خير ما يرام. ولكن كيف؟ وهو يدرك المهمة التى أرسل إلى هنا من أجلها، كما يدرك أنه لم يتعلم فضيلة واحدة من الفضائل الثورية، وهى فضيلة خداع النفس.

نظر روباشوف بهدوء من خلال نظارته إلى لوى الصغير، الذى لم يفهم معنى هذه النظرة، لكنه لوى الصغير شعر ببعض الارتباك فقام بتحيته بغليونه مبتسما. كان روباشوف يفكر فى القطط، ولاحظ بشىء من الرعب أنه بدأ يفقد أعصابه، ربما لأنه أسرف فى الشراب لدرجة أنه لم يستطع التخلص من الفكرة التى سيطرت عليه، وهى أن يحكم قبضته على أذنى لوى الصغير ورجليه ويكسره على ركبته بما فى ذلك كتفه المشوه وكل أجزاء جسمه.

أحس روباشوف بالإعياء فنهض ليرحل، وقام لوى الصغير بتوصيله إلى المنزل. واستنتج أن روباشوف يعانى نوبة كآبة فسكت احتراما لشعوره، وبعد أسبوع شنق لوى الصغير نفسه.

شهدت الفترة التى امتدت بين هذه الليلة وموت لوى عدة اجتماعات غير مؤثرة وعادية عقدتها خلية الحزب. وبدت الحقائق بسيطة. وكان الحزب قد دعى عمال العالم قبل ذلك بعامين إلى محاربة الدكتاتورية الجديدة التى ظهرت فى قلب أوربا، عن طريق المقاطعة السياسية والاقتصادية والامتناع عن شراء البضائع المستوردة من بلاد الأعداء وعدم السماح بمرور أية شحنات ضخمة خاصة من السلاح الذى ينتجونه؛ فنفذت فروع الحزب هذه الأوامر بحماس، ورفض عمال أحواض السفن فى الميناء الصغير شحن أو تفريغ البضائع القادمة من بلاد الأعداء أو الذاهبة إليها، وشاركتهم فى ذلك نقابات عمالية أخرى.

وكان من الصعب المضى فى الإضراب فقد أسفرت الصراعات مع الشرطة عن جرحى وقتلى.

لم تكن النتيجة النهائية لهذا الصراع قد حسمت عندما أبحر إلى الميناء أسطول صغير مكون من خمس سفن شحن سوداء غريبة الشكل من طراز قديم. وكانت كل واحدة منها تحمل على مؤخرتها اسم أحد كبار قادة الثورة مكتوبا بحروف الهجاء الغريبة التى كانت تستخدم "هناك"، وكان علم الثورة يرفرف على مؤخرة السفن. رحب العمال المضربون فى حماس بهذه السفن وبدأوا على الفور فى تفريغ الشحنات وبعد بضع ساعات اكتشفوا أن الشحن عبارة عن بعض المعادن النادرة، التى كانت فى طريقها إلى دولة العدو لدعم مجهودها الحربى. فدعا قسم عمال أحواض السفن التابع للحزب فورا إلى عقد اجتماع اللجنة؛ حيث تشاجر المجتمعون وتبادلوا الكلمات. وانتشر خبر النزاع عن طريق الحركة فى جميع أنحاء البلاد واستغلت الصحافة الرجعية الحادثة بسخرية وتهكم، وتوقفت الشرطة عن محاولة فض الإضراب وأعلنت حيادها وتركت عمال الميناء يقررون بأنفسهم ما إذا كانوا سيفرغون شحنة الأسطول الأسود الغريب المنظر أم لا. أما قيادة الحزب فأصدرت الأوامر بإنهاء الإضراب وتفريغ الشحن وقدموا تفسيرات معقولة وحججا ماكرة لتبرير تصرفات "بلاد الثورة"، لكن القليلين اقتنعوا بهذه الحجج. وانقسم الحزب على نفسه فهجره معظم الأعضاء القدامى. ولم يعد

للحزب لبضعة شهور سوى وجود مظهرى، لكن الحزب استعاد شعبيته وقوته بالتدريج مع اشتداد أزمة البلاد الاقتصادية. وبعد مرور عامين نشأت دكتاتورية مسعورة أخرى فى جنوب أوربا تهدف إلى سلب وغزو أفريقيا. وعاد الحزب من جديد للدعوة إلى انتهاج سياسة المقاطعة فوجد استجابة أكثر حماسا من المرة السابقة، وفى هذه المرة قررت الحكومات نفسها فى جميع دول العالم تقريبا منع تزويد المعتدين بالمواد الخام. فبدون المواد الخام وبخاصة البترول يجد المعتدون أنفسهم فى حالة عجز وضياع... كان هذا هو الوضع عندما أقلع فى طريقه الأسطول الصغير الأسود والغريب الشكل تحمل أكبر سفنه اسم الرجل الذى أعدمته الثورة بسبب معارضته للحرب. وعلى قمم الصوارى رفرف علم الثورة فى حين أن عنابر السفن كانت تنقل البترول للمعتدين.

لم يكن أمام الأسطول سوى رحلة يوم حتى يصل إلى هذا الميناء، ولكن لوى الصغير وأصدقاءه لم يكن لديهم علم بقدومه. وقد كانت مهمة روباشوف هى تهيئتهم لقدومه. لم يقل روباشوف أى شىء فى اليوم الأول. كان يجس النبض فقط. ثم بدأت المناقشة فى صباح اليوم التالى فى قاعة اجتماعات الحزب، وهى قاعة كبيرة قليلة الأثاث، غير مرتبة ومفروشة دون عناية شأنها فى ذلك شأن قاعات الاجتماع الخاصة بالحزب فى جميع المدن فى شتى أنحاء العالم، وهذا يرجع إلى حد ما إلى فقر الحزب، لكن السبب الأساسى فى ذلك هو تقاليده التقشفية

الكئيبة. كانت الجدران مغطاة بملصقات انتخابات قديمة وبالشعارات السياسية والبيانات المطبوعة على الآلة الكاتبة. وفى أحد أركان القاعة كانت توجد آلة نسخ قديمة مغطاة بالتراب، وفى ركن آخر كانت توجد كومة من الملابس القديمة خصصت لعائلات المضربين وإلى جانبها توجد أكوام من المنشورات والنبذات، التى بدأ لونها يصفر من القدم. أما المنضدة الطويلة فكانت مكونة من لوحين من الخشب يرتكزان على حاملين وكانت النوافذ ملطخة بالدهان كما هو الحال فى مبنى لم يكتمل بناؤه بعد، وفوق المنضدة كان مصباح كهربائى عار يتدلى بحبل من السقف وإلى جانبها وضع ورق لازق لصيد الذباب.

جلس لوى الصغير الأحدب والملاكم السابق بول والكاتب بيل وثلاثة آخرون حول المنضدة، وأخذ روباشوف يتكلم لفترة. وكانت الظروف المحيطة به مألوفة لديه، وأثار القبح التقليدى للمكان شعوره بالألفة نحوه، وأحس فى هذا الجو من جديد بأنه مقتنع تماما بضرورة المهمة التى يضطلع بها وفائدتها ولم يفهم لماذا كان يشعر بعدم الارتياح فى الليلة الماضية فى أثناء وجوده فى الحانة الصاخبة، ثم بدأ يشرح حقيقة الحالة بموضوعية لا تخلو من الحماس دون أن يذكر السبب الأساسى لمجيئه فقال: لقد فشلت مقاطعة العالم للمعتدين بسبب نفاق الحكومات الأوربية وجشعها، فبعضها لا يزال يدعى الالتزام بالمقاطعة بينما لا يعبأ البعض الآخر حتى بمجرد الادعاء. إن المعتدين يحتاجون إلى البترول،

وفى الماضى كان البلد الذى نشبت فيه الثورة يوفر لهم نسبة كبيرة من هذه الحاجة. فإذا ما توقف عن إمدادهم الآن فسوف تبادر دول أخرى طامعة وجشعة بسد حاجتهم. وفى الحقيقة إن هذه الدول لا تتمنى شيئا سوى إخراج بلاد الثورة من الأسواق العالمية. ولن تعمل سياسات المقاطعة الرومانسية من هذا النوع إلا على إعاقة تطور الصناعة "هناك" فى بلاد الثورة، وكذلك تعطيل الحركة الثورية فى جميع أنحاء العالم. وبذلك يتضح المقصود من كل اللعبة...

أومأ بول وعمال السفن الثلاثة برؤوسهم؛ إذ إنهم كانوا يتسمون ببطء التفكير وبدا لهم كل ما قاله لهم الرفيق القادم من "هناك" مقنعا للغاية. فقد كان هذا بالنسبة إليهم مجرد خطاب نظرى لا تترتب عليه أية عواقب مباشرة يدركون الهدف، الذى كان يرمى إليه، ولم يفكر أحدهم فى الأسطول الأسود الصغير، الذى كان على وشك الاقتراب من مينائهم. لكن لوى الصغير والكاتب ذا الوجه المشوه تبادلا نظرة خاطفة لاحظها روباشوف، فأنهى حديثه بجفاء أكبر، ودون حماس قال: "هذا هو فى الحقيقة كل ما لدى لأقوله لكم فيما يتعلق بالمبدأ وعليكم أن تنفذوا قرارات اللجنة المركزية وأن تشرحوا بواطن الأمور وظواهرها للرفاق الأقل نضجا من الناحية السياسية إذا كان لدى أحدهم أية شكوك، أما الآن فليس لدى المزيد لأقوله".

خيم السكون للحظة فخلع روباشوف نظارته وأشعل لفافة تبغ فقال لوى الصغير بطريقة عابرة "نشكر المتحدث، هل يرغب أحد منكم فى أن يسأل أى سؤال؟" ولكن أحدا لم يتكلم. وبعد برهة قال أحد عمال

أحواض السفن الثلاثة فى حرج: "ليس هناك ما يقال فالرفاق "هناك" يعلمون ما هم بصدده، ونحن بالطبع يجب علينا أن نستمر فى المقاطعة. يمكنكم الوثوق بنا. لن يتسرب أى شىء من مينائنا إلى هؤلاء الخنازير". فأومأ زميلاه بالموافقة، وأكد بول الملاكم على هذا بقوله: "ليس هنا"، قال هذا وقد ارتسمت عليه ملامح القتال والحرب، ثم هز أذنيه بطريقة مازحة مضحكة. أعتقد روباشوف للحظة أنه أمام عناصر معارضة، لكنه أدرك تدريجيا أن الآخرين لم يدركوا ما كان يقصده ، فنظر إلى لوى الصغير على أمل أن يوضح سوء الفهم، لكن لوى الصغير غض طرفه وسكت، فجأة قال الكاتب باختلاجة عصبية: "ألا يمكنكم أن تختاروا ميناء آخر هذه المرة لعقد صفقاتكم الصغيرة فيه ؟ أيجب أن يحدث هذا فى مينائنا دائما؟" فنظر إليه عمال السفن بدهشة ولم يفهموا ماذا يقصد بكلمة "صفقة". ففكرة الأسطول الأسود الصغير، الذى يقترب من شاطئهم من خلال الضباب والدخان كانت أبعد ما تكون عن أذهانهم. لكن روباشوف الذى كان يتوقع هذا السؤال قال: إن هذا الذى يحدث مستحسن من الناحية السياسية وكذلك من الناحية الجغرافية، فسوف ننقل البضائع من هنا عن طريق البر. ونحن بالطبع ليس لدينا أى سبب يدعونا لإخفاء أى شىء، لكننا يجب أن نتوخى الحصافة لتجنب أى حدث مثير قد تستغله الصحافة الرجعية". تبادل الكاتب ولوى الصغير نظرة أخرى. ونظر عمال أحواض السفن إلى روباشوف نظرات تنم عن عدم الفهم،

وكان من الواضح أنهم يفكرون فى الأمر ببطء، وفجأة قال بول بصوت متغير أجش". "ما الذى تتحدثون عنه بالضبط؟".

فنظر الجميع إليه واحمرت رقبته ونظر إلى روباشوف بعينين جاحظتين فقال لوى الصغير وهو يضبط انفعالاته "ألم تدرك هذا سوى الآن فقط؟". نظر إليهم روباشوف واحدا تلو الآخر ثم قال بهدوء: لقد أغفلت شرح التفاصيل فمن المتوقع أن تصل صباح غد - إذا سمحت الأحوال الجوية - السفن الخمس المحملة بالبضائع والتابعة لقومسارية التجارة الخارجية". مرت عدة دقائق قبل أن يستوعب الجميع هذا، ولم يتفوه أحد بكلمة. نظر الجميع مستطلعين إلى روباشوف، ونهض بول على قدميه ببطء وألقى قبعته بقوة على الأرض، وغادر الحجرة فأدار اثنان من زملائه رأسيهما نحوه ولم يتكلم أحد. ثم تنحنح لوى الصغير ليقول "لقد شرح لنا الرفيق المتحدث لتوه أسباب قيامنا بهذا العمل فإذا لم نزودهم بالإمدادات سوف يقوم آخرون بتزويدهم بها، هل هناك من يريد أن يتحدث؟"

فتململ عامل أحواض السفن الذى كان قد تحدث من قبل على كرسيه وقال: "نحن نعرف هذه النغمة، ففى الإضرابات نجد دائما من يقول: إذا لم أقم بالعمل سوف يقوم غيرى به. لقد سمعنا الكثير من هذا القبيل، هكذا يتكلم مفسدو الإضرابات. ساد الصمت من جديد للحظة، ثم سمع صوت الباب الخارجى يغلقه بول بعنف فقال روباشوف:

"يا رفاق إن مصالح التنمية الصناعية (هناك) يجب أن تكون فى المقدمة، فالعواطف المفرطة لن تساعدنا على التقدم، فكروا فى ذلك جيدا".

حرك عامل أحواض السفن ذقنه إلى الأمام وقال: "لقد فكرنا من قبل ومللنا من سماع هذه النغمة. يجب عليكم يا من تعيشون فى تلك البلاد أن تكونوا قدوة لنا. فالعالم ينظر إليكم وينتظر هذه القدوة منكم. أنتم تتحدثون عن التضامن والتضحية والنظام وفى الوقت نفسه تستخدمون أسطولكم لإفساد الإضراب". عند سماع ذلك رفع لوى الصغير رأسه فجأة وبدا شاحبا وحيا روباشوف بغليونه، وقال بصوت خفيض وسرعة كبيرة: "إننى اتفق مع ما قاله الرفيق. هل لدى أحدكم شيء آخر يقوله؟ انتهت الجلسة".

خرج روباشوف من الحجرة يعرج متكئا على عكازيه فقد سارت الأحداث فى مجراها المقدر والمحتوم، وبينما كان الأسطول الصغير القديم الطراز يدخل الميناء تبادل روباشوف بعض البرقيات مع الجهات المختصة "هناك" فى تلك البلاد، وبعد ثلاثة أيام تم فصل زعماء قسم عمال أحواض السفن من الحزب واتهم الجهاز الرسمى للحزب الشيوعى لوى الصغير بأنه عميل ومحرض وبعد ثلاثة أيام شنق لوى الصغير نفسه....

(١٣)

كان الليل أكثر سوءا وظل روباشوف مستيقظا حتى الفجر. أخذت تعتريه رعشات على فترات منتظمة وأخذت سنه تؤلمه مع كل نبضة، وشعر بأن مراكز تداعى الأفكار فى دماغه متقرحة وملتهبة، ومع ذلك كانت هناك قوة تجبره على أن يستحضر فى مخيلته بألم الأصوات والصور، فتذكر الشاب ريتشارد بعينيه الملتهبتين وهو يرتدى حلته السوداء الخاصة بالمناسبات وقوله "ولكنكم لن تلقوا بى للذئاب يا رفيق..." وتذكر لوى الصغير المشوه وهو يقول "من منكم أيضا يريد الكلمة"، فتقدم الكثيرون طالبين الكلمة.

لم يكن للحركة وازع من ضمير؛ لذا كانت تمضى نحو أهدافها باطمئنان وارتياح. وكانت تتخلص من جثث غرقاها فى منحنيات ومنعطفات طريقها. هذه هى القاعدة التى تحكم وجودها، وكل من لا يقدر على مسايرة طريقها الملتوى يجرفه التيار بعيدا على الشاطئ؛ لأن هذا هو قانونها. فهى لا تعبأ بدوافع الأفراد ولا تعبأ بما تنطوى عليه ضمائرهم أو أفئدتهم ولا بما يدور بخلدهم؛ فالحزب يعرف جريمة واحدة فقط وهى الانحراف عن المسار الذى يحدده، كما أنه لا يعرف سوى عقاب واحد هو الموت؛ فالموت ليس سرا أو شيئا غامضا بالنسبة للحركة، وليس هناك أى شموخ أو مجد فيه فهو الحل المنطقى للانحرافات السياسية.

لم يستطع روباشوف المنهوك القوى النوم على سريره المعلق قبل ساعات الصبح الأولى، ثم استيقظ ثانية على صوت البوق معلنا بدء يوم جديد، وبعدها بقليل جاء السجان العجوز ومسئولان آخران يرتديان الزى الرسمى؛ ليأخذوه إلى الطبيب.

تمنى روباشوف لو استطاع أن يقرأ بطاقات الأسماء على باب زنزانتى ذى الشفة الأرنبية المتدلية والنزيل رقم (٤٠٢)، ولكنهم اقتادوه فى الاتجاه العكسى. وكانت الزنزانة التى على يمينه خالية من السجناء، وهى إحدى الزنازين الواقعة فى نهاية الرواق، وكان جناح زنزانات الحبس الانفرادى مغلقا بباب من الخرسانة الثقيلة نجح الرجل المسن فى فتحه بعد كثير من العناء وتقليب المفاتيح وتحسسها، ثم مر روباشوف يتقدمه السجان العجوز وخلفهما الرجلان اللذان يرتديان ملابس رسمية عبر بهو طويل حيث كانت بطاقات الأسماء على أبواب الزنزانات تحمل أسماء عديدة، ثم سمعوا أحاديث وضحكا وغناء آتيا من داخل الزنازين. فعرف روباشوف على الفور أنهم فى قسم الجرائم الخفيفة، ثم مروا بحانوت الحلاق؛ حيث كان بابه مفتوحا وظهر منه سجين له وجه نحيل كوجه عصفور طالت فترة مكوثه فى الحبس، وحلق ذقنه للتو ومعه اثنان من الفلاحين قص الحلاق شعرهما تماما حتى صار رأساهما أملسين. فالتفت ثلاثتهم بفضول فى أثناء مرور روباشوف ومن معه. بعد ذلك وصلوا إلى باب مرسوم عليه صليب أحمر فطرقه

السجان باحترام، ثم دخل هو وروباشوف فى حين انتظر فى الخارج الرجلان اللذان يرتديان الزى الرسمى.

كانت العيادة صغيرة وكان الجو خانقا بسبب رائحة الفينيك والتبغ وقد امتلأ دلو وصفيحتان عن آخرهما بالشاش والأربطة القذرة، وكان الطبيب يجلس إلى المنضدة وظهره لهما وهو يقرأ الجريدة ويلوك الخبز، الذى تتساقط منه الدهون. وكانت الجريدة ملقاة على كومة من الآلات والكماشات والحقن. أغلق السجان الباب بعد دخوله فأدار الطبيب رأسه الأصلع ببطء، وكانت جمجمته أصغر من المعتاد ومغطاة بشعر كالزغب الأبيض الأمر الذى ذكر روباشوف بالنعامة.

قال الرجل المسن: "يقول إن أسنانه تؤلمه". نظر الطبيب تجاه روباشوف وسأله: "أتعانى من ألم فى أسنانك؟ افتح فمك حتى ننتهى من أمرك بسرعة". رمق روباشوف الطبيب بنظرة من خلال نظارته وقال له بهدوء: "أود أن أشير إلى أننى سجين سياسى، ويجب أن أعالج علاجا سليما".

التفت الطبيب نحو السجان وسأله: "من هذا الشخص؟" فأجاب السجان "اسمه روباشوف". فشعر روباشوف للحظة بعينى الطبيب المستديرتين، اللتين تشبهان عينى النعامة وقد شخصتا إليه.

ثم قال الطبيب: "إن صدغك متورم. "افتح فمك". فتح روباشوف فمه، لكن سنه لم يكن يؤلمه فى تلك اللحظة. فقال الطبيب وهو يتحسس بإصبعه فى داخل فم روباشوف: "لم يتبق لك أسنان فى الجانب الأيسر

من فكك العلوى". وفجأة شحب وجه روباشوف واضطر إلى الاستناد إلى الحائط. فقال الطبيب: "وجدتها.. جذر الناب العلوى الأيمن قد كسر وبقى فى الفم".

تنفس روباشوف بعمق عدة مرات؛ إذ إن الألم كان ينتقل من فكه إلى عينيه إلى مؤخرة رأسه، وأصبح يشعر بنبض كل قطرة من دمه منفردة وعلى فترات منتظمة. عاد الطبيب إلى الجلوس وبسط جريدته ثم قال وهو يأكل الخبز المغموس فى الدهن المتساقط: "يمكننى أن أخلع لك جذر الناب إذا أردت، وبالطبع ليس لدينا هنا مخدر، والعملية تستغرق نصف ساعة أو ساعة". سمع روباشوف صوت الطبيب مشوشا، واستند إلى الحائط وتنفس بعمق ثم قال له: "شكرا ليس الآن".

فكر روباشوف فى ذى الشفة الأرنبية المتدلية وحمام البخار وفى الحركة المضحكة السخيفة التى أتى بها بالأمس عندما أطفأ عقب لفافة التبغ على ظهر يده. وقال محدثا نفسه: "إن الأمور لن تسير على ما يرام".

وعندما عاد إلى زنزانته ألقى بنفسه على سريره المعلق وسرعان ما استغرق فى النوم.

وعندما حان موعد توزيع الحساء وقت الظهيرة لم يتجاهلوه، فمنذ ذلك الحين أصبح يتلقى وجباته بانتظام. خف ألم الناب وأصبح محتملا،

وتمنى روباشوف لو أن خراج جذر الناب انفتح تلقائيا. وبعد ثلاثة أيام اقتادوه للتحقيق معه للمرة الأولى.

(١٤)

كانت الساعة الحادية عشرة صباحا عندما جاءوا ليأخذوا روباشوف الذى استنتج على الفور من تعبيرات وجه السجان الكئيبة إلى أين يذهبون به. فتبع السجان يخامره إحساس صافٍ رقراق بعدم الاكتراث، سيطر عليه دائما فى أوقات الخطر، وكان ذلك بمثابة رحمة من الله لم يكن يتوقع هبوطها عليه.

سار روباشوف والسجان فى الطريق نفسه، الذى كانا قد مرا فيه منذ ثلاثة أيام حينما ذهبا إلى الطبيب، وفتح السجان الباب المصنوع من الخرسانة من جديد ثم أغلقه. وقال روباشوف لنفسه "ما أسرع تعود المرء على الجو المكتظ الخانق"، فقد شعر، كأنه يتنفس هواء ذلك الرواق منذ سنين، كأن الهواء الراكد الذى يملأ جميع السجون التى عرفها قد اختزن هنا. ثم مرا على حانوت الحلاق وباب الطبيب الذى كان مغلقا؛ حيث وقف ثلاثة مساجين بالخارج فى انتظار دورهم فى حراسة سجان ناعس. وبعد أن تجاوز باب الطبيب أدرك روباشوف أن المكان جديد عليه، ووجد نفسه يمر بسلم حلزونى يفضى إلى الأعماق. حاول روباشوف أن يستخدم خبرته بالسجون ليعرف إلى أين يؤدى ذلك السلم. "هل يؤدى إلى المخازن أم إلى زنزانات التعذيب"، لكن منظر درج السلم لم يرق له.

مرّ روباشوف والسجان عبر فناء ضيق ليس له نوافذ فقد كان ممرا محجوبا يميل إلى الظلمة، على الرغم من أن السماء المفتوحة كانت تطل عليه. وعلى الجانب الآخر من الفناء كانت الأروقة أكثر إنارة، ولم تعد الأبواب من الخرسانة، بل كانت من الخشب المطلى وعليها مقابض نحاسية. ومر عليهما موظفون مشغولون. وانبعثت من وراء أحد الأبواب نغمات جهاز راديو ومن خلف باب آخر سمع صوت آلة كاتبة. ولا غرو فقد كانا فى القسم الإدارى. ثم توقفا عند آخر باب فى نهاية الرواق، وطرق السجان الباب. كان هناك شخص يجرى مكالمة هاتفية فى الداخل. نادى ذلك الشخص بصوت هادئ "لحظة من فضلك". ثم استكمل المكالمة بهدوء وهو يرد "نعم"،"حقا". كان هذا الصوت مألوفًا لدى روباشوف، لكنه لم يستطع تحديد صاحبه. كان صوتا رجوليا محببا للنفس، لكنه أجش بعض الشىء... صوتًا سمعه بالتأكيد فى مكان ما من قبل. قال الصوت "ادخل" ففتح السجان الباب وأغلقه على الفور خلف روباشوف. رأى روباشوف أمامه مكتبا يجلس إليه زميله وصديقه القديم إيفانوف قائد الكتائب السابق، الذى نظر إلى روباشوف مبتسما وهو يضع سماعة التليفون، ثم قال "ها نحن نلتقى من جديد"، فقال روباشوف، الذى ظل واقفا عند الباب بجفاء: "يا لها من مفاجأة سارة". قال إيفانوف بإيماءة مهذبة "تفضل بالجلوس". وكان قد هم واقفا فبدا أطول من روباشوف بنصف قامة. نظر إيفانوف إلى روباشوف

مبتسما ثم جلس كلاهما، إيفانوف خلف مكتبه وروباشوف أمامه. حملق كل منهما فى الآخر لفترة بفضول جامح. إيفانوف بابتسامته الرقيقة وروباشوف بتفحص وإمعان، فوقع نظره على رجل إيفانوف اليمنى تحت المكتب. قال إيفانوف: لا تشغل بالك إنها رجل صناعية ذات مفاصل أتوماتيكية مطلية بالكروم لمنع الصدأ؛ لتمكننى من السباحة وركوب الخيل وقيادة السيارة والرقص. هل لك فى لفافة تبغ؟ "ثم أخرج علبة سجائر خشبية وقدمها له. فنظر روباشوف إلى السجائر وتذكر أول زيارة له للمستشفى الحربى بعد بتر رجل إيفانوف، الذى سأله حينئذ أن يحضر له حبوبا منومة، وأخذ يحاول أن يثبت فى نقاش استمر طيلة فترة بعد الظهر، أن لكل إنسان الحق فى الانتحار. وفى النهاية طلب إليه روباشوف إعطاءه فسحة من الوقت لتقليب الأمر والتفكير فيه، لكن حدث فى الليلة نفسها أنه تم نقله إلى قطاع آخر فى الجبهة، الأمر الذى حال بينه وبين مقابلة إيفانوف منذ ذلك الحين إلا بعد عدة سنوات. نظر روباشوف إلى لفائف التبغ فى العلبة الخشبية فوجدها غير محكمة اللف ومصنوعة يدويا من التبغ الأمريكى الفاتح اللون فقال: "هل ما زال ذلك يعتبر تمهيدا غير رسمى لما تريد أن تقول أم أن العداء بيننا قد بدأ؟". فى الحالة الثانية لن آخذ منك لفافة تبغ فأنت تعرف أصول الإتيكيت". قال إيفانوف: "هذا هراء"، فرد روباشوف: "إذن فهو هراء". وأشعل لفافة تبغ من لفائف إيفانوف وأخذ يدخن بعمق محاولا أن يخفى شراهة

استمتاعه بالتبغ، ثم سأل: وكيف حال الروماتيزم فى كتفك؟ رد إيفانوف عليه بقوله: على ما يرام وشكرا لك على سؤالك. أجاب إيفانوف بقوله: "وما أخبار الحرق؟" قال إيفانوف هذا وهو يبتسم ويشير ببراءة إلى يد روباشوف اليسرى، فقد كان هناك على ظهر يد روباشوف حرق فى حجم العملة النحاسية بين العروق الزرقاء فى الموضع الذى أطفأ فيه عقب السيجارة منذ ثلاثة أيام. نظر كلاهما لمدة دقيقة إلى يد روباشوف، التى كان يضعها فى حجره. وفكر روباشوف. "كيف عرف ذلك؟ لقد كان يتجسس علىّ". شعر بالخزى أكثر من شعوره بالغضب ثم جذب نفسا طويلا وأخيرا من لفافته قبل أن يلقيها بعيدا ثم قال: "بالنسبة إلىَّ أرى أن التعامل غير الرسمى بيننا قد انتهى".

أخذ إيفانوف ينفث حلقات الدخان وهو يراقب روباشوف بنفس الابتسامة الرقيقة الساخرة وقال "لا تكن عدوانيا". قال روباشوف: "التمس لى العذر، هل أنا الذى قبضت عليك أم هل أنتم الذين قبضتم علىّ؟"

أجاب إيفانوف: "نحن الذين قبضنا عليك" وأطفأ لفافة التبغ وأشعل أخرى وقدم علبة التبغ لروباشوف، الذى لم يتحرك من مكانه، فقال إيفانوف: "لعنة الله عليك... هل تتذكر قصة الحبوب المنومة؟" ثم انحنى إلى الأمام ونفخ دخان سيجارته فى وجه روباشوف. ثم قال ببطء: "لا أريدك أن تموت رميا بالرصاص؟" ثم عاد إلى وضعه الأول على المقعد

وكرر من جديد وهو يبتسم: "لعنة الله عليك". رد روباشوف: "شيء لطيف منك، لكن لماذا تريدون قتلي؟" انتظر إيفانوف بعض الوقت دون أن يحير جوابا وهو يدخن ويرسم أشكالا بقلمه الرصاص على ورق النشاف، وبدا كأنه يبحث عن الكلمات المناسبة وفي النهاية قال: "اسمع يا روباشوف، هناك شيء واحد أريد أن أوضحه لك. لقد كررت الآن كلمة "أنتم" عدة مرات، وأنت تعني بها الدولة أو الحزب في مقابل "أنا"، التي تعني نيكولا سالمانوفيتش روباشوف. إن الجمهور بطبيعة الحال يحتاج إلى محاكمة ومبررات قانونية، أما بالنسبة إلينا فما قلته لك الآن لابد أن يكون كافيا".

فكر روباشوف في ذلك مليا وقد فوجئ إلى حد ما، وبدا للحظة وكأن إيفانوف ضرب شوكة رنانة فاستجاب لها ذهنه طواعية، ومر في ذهنه كل ما كان يؤمن به وكل ما حارب من أجله ودعا إليه في خلال الأربعين سنة الماضية، كموجة عارمة لا تقاوم، ومفاده أن الفرد لا شيء والحزب كل شيء، والفرع الذي يكسر من الشجرة لابد وأن يذبل.

مسح روباشوف نظارته في كمه، وجلس إيفانوف مستندا إلى ظهر مقعده وهو يدخن، لكنه لم يعد يبتسم. وفجأة وقعت عين روباشوف على بقعة مربعة على الحائط لونها أفتح من بقية ورق الحائط، فعرف على الفور أن صورة الرؤوس الملتحية والأسماء الرقمية، التي كانت تعلق هناك أزيلت من مكانها، فتتبع إيفانوف نظراته دون أن تتغير تعبيرات وجهه.

قال روباشوف لمحدثه: إن المحاجة التى تستخدمها قد عفا عليها الزمن إلى حد ما، كما أشرت - وأنت على حق- تعودنا على استخدام صيغة الجمع "نحن" وعلى أن نتجنب قدر الإمكان استخدام صيغة المفرد. لقد تخليت تقريبا عن عادة التحدث بهذا الشكل، أما أنت فما زلت ملتزما بها، لكن من هم "نحن" الذين تتكلم باسمهم اليوم؟ إن هذا الضمير المستخدم يحتاج إلى إعادة تعريف. هذه هى المشكلة".

فقال إيفانوف: "هذا مطابق لرأيى تماما، وأنا سعيد أننا قد توصلنا إلى لب الموضوع بمثل هذه السرعة؛ بمعنى آخر أنك مقتنع بأن "نحن" أى "الحزب" والدولة والجماهير من حلفهما لم تعد تمثل مصالح الثورة".

فقال روباشوف: "لننحى الجماهير جانبا ونخرجها من الثورة..".

قال إيفانوف: "منذ متى أصبحت تكن هذا الاحتقار الشديد للجماهير؟ هل هذا أيضا له علاقة بالتغيير النحوى إلى صيغة المفرد؟" ثم اتكأ على مكتبه بنظرة ساخرة لا تخلو من السماحة. كانت رأسه تخفى البقعة الخفيفة الطلاء الموجودة على الحائط. وفجأة خطر على ذهن روباشوف المشهد الذى حدث بمعرض الصور حينما حالت رأس ريتشارد بينه وبين رؤية صورة يدى السيدة العذراء فى لوحة الرحمة. فى اللحظة نفسها انتفض فكه بخلجة ألم سرت حتى انتقلت لجبينه وأذنه فأغلق عينيه للحظة وقال لنفسه: "الآن أرى نفسى أدفع الثمن". وبعد لحظة تساءل بينه وبين نفسه عما إذا كان قد تكلم بصوت مرتفع أو لا.

وصل صوت إيفانوف إلى سمعه متساءلا. وبدا أنه قريب من أذنه ويحمل نبرة ساخرة يشوبها شيء من الدهشة: "ماذا تقصد؟"

خفت حدة الألم وخيمت على ذهن روباشوف حالة من السكينة والهدوء. ثم كرر قوله: "فلندع الجماهير جانبا... فأنت لا تعرف شيئا عنها. ربما أنا نفسى لم أعد أفهمها. فيما مضى حينما كان هناك وجود لصيغة الجمع "نحن" العظيمة كنا نفهم هذه الجماهير كما لم يفهمها أحد من قبل. كنا نغوص فى أعماقها. وعملنا على تشكيل مادة التاريخ الطيعة، التى لم تمسها يد صانع". ودون أن يشعر مد يده ليأخذ لفافة تبغ من علبة إيفانوف التى كانت لا تزال مفتوحة على الطاولة. فمال إيفانوف إلى الأمام وأشعلها له.

مضى روباشوف قائلاً: "فى ذلك الوقت كانوا يسموننا حزب الجماهير... ماذا يعرف الآخرون عن التاريخ؟ المويجات الصغيرة العابرة، الدوامات الصغيرة والأمواج المتكسرة. تعجبوا لمنظر الأشكال المتغيرة على السطح ولم يستطيعوا تفسيرها، لكننا غصنا فى الأعماق؛ فى أعماق الجماهير المجهولة الشكل والهوية التى تشكل مادة التاريخ فى جميع الأوقات. وقد كنا أول من اكتشف قوانين حركتها. لقد اكتشفنا قوانين قصورها الذاتى... قوانين التغيير البطىء لجزئيات بنيتها وانفجاراتها المفاجئة. هذه هى عظمة عقيدتنا. وبينما كان اليعاقبة(*)

(*) فئة متطرفة يقودها روبسبيير من ثوار الثورة الفرنسية. (المترجم)

أخلاقيين كنا نحن تجريبيين، فقمنا بحفر طين عصور التاريخ الغابرة منذ القدم واستخلصنا قوانينه. لقد عرفنا ما لم يعرفه أحد من قبل عن الإنسانية. لهذا السبب نجحت ثورتنا لكنكم الآن قمتم بدفن التاريخ فى الطين من جديد".

كان إيفانوف يجلس مستريحا وقد مد ساقيه، يسمع ويرسم أشكالا على ورق النشاف حين قال:

"أكمل فأنا متشوق لمعرفة ما ترمى إليه". شعر روباشوف بلذة التدخين فقد كان النيكوتين يشعره بدوار خفيف بعد امتناعه عنه لفترة طويلة.

ثم قال وهو ينظر مبتسما إلى الرقعة الباهتة على الحائط؛ حيث كانت تعلق صور الحرس القديم فى يوم من الأيام:

إنى أعرض نفسى للتهلكة نتيجة إطلاقى الكلام على عواهنه

هذه المرة لم يتتبع إيفانوف نظرات روباشوف الذى أضاف: "هلاك شخص آخر لن يقدم أو يؤخر فكل شىء قد هلك، ودفن الرجال، كما دفنت حكمتهم وآمالهم. لقد قتلتم ضمير الجمع "نحن" وحطمتموه. هل لا تزال تعتقد أن الجماهير ما زالت تساندكم؟ هناك مغتصبون آخرون(*) فى أوربا يزعمون أحقيتهم فيما تدعونه لأنفسكم".

(*) لعله يشير هذا إلى النازيين. (المترجم).

أخذ لفافة تبغ أخرى وأشعلها بنفسه هذه المرة إذ إن إيفانوف لم يتحرك. ثم مضى يقول: "اغفر لى غرورى... لكن هل تعتقد حقيقة أن الجماهير لا تزال تؤيدكم؟ إنها تتحملكم فى صمت وإذعان كما تتحمل غيركم فى بلاد أخرى، لكنها لا تستجيب لكم من أعماقها، فقد أصبحت الجماهير خرساء من جديد، كأنها ذلك المجهول فى التاريخ الذى يرمز إليه بحرف إكس X أو (س) مثل لجج البحر العاتى وغير المكترث بالسفن التى تمخر عبابه وينعكس على سطحه كل ضوء عابر. بيد أنه مظلم وصامت فى أعماقه. لقد نجحنا فى تحريك الأعماق منذ أمد بعيد، لكن كل هذا ولى وانتهى. ثم مضى يقول "بعبارة أخرى.."، لكنه توقف عن الكلام ثم أطرق وخلع نظارته ومضى يقول: "إننا صنعنا التاريخ فى تلك الأيام. أما الآن فأنتم تصنعون السياسة. هذا هو كل الفرق".

استند إيفانوف إلى ظهر مقعده وأخذ ينفث حلقات الدخان ثم قال: "عفوا ولكن الفرق ليس واضحا تماما بالنسبة لى. هل تتكرم بأن تشرحه لى". قال روباشوف: "بالتأكيد لقد قال عالم رياضيات ذات مرة إن الجبر هو علم الكسالى فهم لا يستطيعون تعريف الرّمز (س)، لكنهم يستخدمونه كما لو كانوا على دراية به. فبالنسبة إلى حالتنا يرمز الرمز (س) للجماهير المجهولة؛ أى الشعب فى حين إن السياسة تعنى استخدام هذا الرمز (س) دون تجشم عناء فهم طبيعته الفعلية، أما صنع التاريخ فهو إدراك ما يرمز إليه (س) فى المعادلة".

فقال إيفانوف: "هذا كلام حسن لكنه للأسف كلام مجرد وأبعد ما يكون عن الواقع. فلو إننا رجعنا إلى الحقائق الملموسة لوجدنا أنك تعني بكلامك أن "نحن" أى الحزب والدولة لم تعد تمثل مصالح الثورة أو الجماهير أو إذا شئت لم تعد تعني تقدم الإنسانية".

رد روباشوف مبتسما: "لقد أدركتها هذه المرة".

لكن إيفانوف لم يبادله الابتسام بل سأله: "متى توصلت إلى هذا الرأى؟"

رد روباشوف بقوله: "توصلت إليه بالتدريج فى السنوات القليلة الماضية".

قال إيفانوف: "ألا يمكنك أن تكون أكثر تحديدا؟ منذ سنة، سنتين، ثلاث سنوات؟"

أجاب روباشوف: "هذا سؤال سخيف شبيه بالسؤال التالى متى أصبحت راشدا؟ فى سن السابعة عشرة؟ أو الثامنة عشرة والنصف؟ أم فى التاسعة عشرة؟"

فقال له إيفانوف: "أنت الذى تدعى السخافة والتغفيل؛ لأن كل خطوة فى تطور الإنسان الأخلاقى محصلة تجارب معينة. ولعلمك، فقد أصبحت رجلا فى سن السابعة عشرة حينما أرسلت إلى المنفى لأول مرة.

قال روباشوف: "لقد كنت فى ذلك الوقت شخصاً مهذبا للغاية. دعك من ذلك"، ثم نظر ثانية إلى الرقعة الباهتة الطلاء على الحائط وألقى

بلفافة التبغ. مال إيفانوف إلى الأمام بعض الشىء وقال: "أكرر عليك السؤال، منذ متى وأنت تنتمى للتنظيم المعارض؟".

دق جرس التليفون فرفع إيفانوف السماعة وقال: "أنا مشغول"، ووضعها ثم اتكأ على مقعده ممددا ساقه فى انتظار رد روباشوف. قال روباشــوف: "أنت تعلم مــثلمــا أعلم أننى لم أنضم قط إلى أى تنظيم معارض". فقال إيفانوف: "كما تشاء. إنك تضعنى فى موقع حرج، وتضطرنى إلى أن ألعب دور الموظف البيروقراطى". ثم مد يده فى الدرج وأخرج مجموعة من الملفات، وقال وهو يبسط الورق أمامه: فلنبدأ من عام ١٩٣٣؛ حيث نطالع "اندلاع الدكتاتورية وسحق الحزب فى البلد، الذى بدا فيه انتصار هذا الحزب وشيكا"، لقد أرسلت هناك بطريق غير مشروع من أجل تطهير الصفوف وإعادة تنظيمها".

كان روباشوف قد استند بظهره على مقعده وهو يستمع إلى سيرة حياته ولاحت له صورة ريتشارد، وظلمة الغسق فى الشارع العريض أمام المتحف، حيث استوقف سيارة الأجرة.

"بعد ثلاثة أشهر تم القبض عليك..."

"حكم عليك بسنتين سجن... أعفى عنك لحسن السير والسلوك...

ولم يثبت شىء ضدك... افرج عنك وعدت عودة الظافرين".

توقف إيفانوف ونظر إليه نظرة سريعة ثم استكمل قائلا: "لقد كرمت تكريما عظيما عند عودتك، ولم نتقابل منذ ذلك الحين. ربما كنت

مشغولا للغاية. بالمناسبة فأنا لست مستاء من هذا. على كل حال لم يكن من المتوقع أن تبحث عن جميع أصدقائك القدامى، لكننى رأيتك مرتين فى الاجتماعات جالسا على المنبر، وكنت لا تزال تتوكأ علىّ عكازيك وتبدو منهمكا. كان يجب عليك منطقيا أن تذهب إلى مصحة للاستشفاء لعدد قليل من شهور، ثم تطلب الالتحاق بوظيفة حكومية خاصة بعد قضائك أربع سنوات فى مهام خارج البلاد، لكن بدلا من ذلك طلبت بالفعل بعد أسبوعين إرسالك فى مهمة أخرى بالخارج".

ثم انحنى إلى الأمام فجأة وهو يقترب بوجهه من روباشوف وسأله "لماذا؟"، ولأول مرة أصبح صوته حادا. من المفترض أنك لم تشعر بالارتياح لما يحدث هنا؟ فى أثناء غيابك حدثت فى البلد بعض التغيرات التى من الواضح أنها لم ترق لك. وانتظر حتى يقول روباشوف شيئا، لكن روباشوف ظل صامتا على مقعده وهو يمسح نظارته فى كمه دون أن يرد. واصل إيفانوف حديثه قائلا: حدث هذا بعد فترة قصيرة من إدانة وتصفية أول مجموعة من المعارضين، الذين كان من بينهم أصدقاء لك. وبعد القضاء عليهم وحينما عرفنا درجة الفساد التى وصلت إليها المعارضة، عمت البلاد ثورة من السخط، لكنك التزمت الصمت وبعد أسبوعين سافرت للخارج على الرغم من أنك لم تكن تستطيع السير دون عكازين".

بدا لروباشوف أنه يستنشق من جديد رائحة أحواض السفن فى الميناء الصغير، وهى خليط من أعشاب البحر والبترول، ويدا له بول

الملاكم يحرك أذنيه إلى أعلى وأسفل كما بدا له، لوى الصغير وهو يحيى بغليونه. لقد شنق لوى الصغير نفسه على عارضة خشبية فى غرفة سطوح المنزل القديم المتهدم، الذى كان يهتز عند مرور أية عربة لورى. قالوا لروباشوف إنهم حينما وجدوا لوى الصغير فى الصباح كان جسده يدور بطيئا حول محوره حتى ظنوا فى البداية أنه لا يزال يتحرك. ثم استمر إيفانوف قائلا: "وعندما أنجزت المهمة بنجاح انتخبت لرئاسة وفدنا التجارى فى القطر (ب). وقد قمت بواجبك فى هذه المرة أيضا على أكمل وجه، الأمر الذى أدى إلى توقيع معاهدة تجارية جديدة ناجحة بكل المقاييس مع (ب). من الناحية الظاهرية، ظل سلوكك نموذجيا ولا غبار عليه، ولكن بعد ستة شهور من توليك هذا المنصب استدعى للاستجواب اثنان من أقرب مساعديك إليك، بينهما سكرتيرتك أرلوفا وذلك بسبب الشك فى تآمرهما ومعارضتهما. وقد تأكد هذا الشك من خلال التحقيقات. وكان المتوقع منك أن تتنكر لهما علانية ولكنك التزمت الصمت. وبعد مرور ستة أشهر أخرى تم استدعاؤك. وكانت الاستعدادات لإجراء محاكمة ثانية للمعارضة قد بدأت. وفى هذه المحاكمة تكرر ورود اسمك.

ولجأت إليك أرلوفا لتبرئتها. وتحت تلك الظروف كان استمرارك فى الصمت يفسر على أنه إقرار بذنبك، وعلى الرغم من أنك تعرف ذلك فقد رفضت أن تصدر تصريحا علنيا لدرجة أن الحزب أرسل لك إنذارا. فقط

عندما أصبحت حياتك فى خطر، تنازلت عن كبريائك وصرحت بولائك، الأمر الذى قضى على حياة أرلوفا على الفور... أنت تعرف أن مصيرها...".

لاحظ روباشوف فى أثناء صمته أن سنه بدأت تؤطه من جديد. كان يعرف مصير أرلوفا وكذلك مصير ريتشارد ومصير لوى الصغير بل ومصيره هو أيضا. شخص ببصره إلى البقعة الفاتحة اللون على الحائط، وهى الأثر الوحيد الذى تركه وراءهم نوو الرؤوس المرقمة، الذين كان يعرف مصيرهم أيضا بعد انتزاع صورتهم من مكانها. لقد دار التاريخ دورته إيذانا بمقدم حياة أكرم للإنسانية فى النهاية، أما الآن فقد انتهى كل شىء ، اذن فلماذا كل هذا الحديث وكل هذه الرسميات الفارغة؟ لو أن فى بنى البشر شيئا يتجاوز الموت، ويستمر على قيد الحياة ظلت الفتاة أرلوفا تشغل حيزا ما فى الفراغ السحيق الهائل تحملق بعينيها الجميلتين الشبيهتين بعيون المها فى الرفيق روباشوف معبودها، الذى أرسلها إلى حتفها... شعر روباشوف بالألم فى سنه يزداد سوءاً.

سأله إيفانوف: "هل أقرأ لك التصريح العلنى الذى أدليت به فى ذلك الوقت؟" فأجاب روباشوف وقد لاحظ أن صوته صار مبحوحا: "لا شكرا لك". قال إيفانوف: "لعلك تذكر أنك ختمت بيانك الذى يمكن اعتباره إقرارا بالذنب بأنك تدين المعارضة بشدة وتعلن استمساكك غير المشروط بسياسة الحزب وزعيمه.

قال روباشوف بصوت فاتر: "كفى أنت تعلم كيف أدليت بهذا البيان، وإن كنت لا تعرف فهذا أفضل لك بكثير... بالله عليك كف عن هذه المهزلة".

قال إيفانوف: "لقد انتهينا تقريبا. فلم يتبق إلا سنتان فقط حتى نصل بسجل حياتك إلى الوقت الحاضر، وفى خلال هاتين السنتين كنت رئيسا لشركة الألومنيوم التى تملكها الدولة. ومنذ سنة وفى أثناء المحاكمة الثالثة للمعارضين، ذكر المتهم الأول اسمك عدة مرات فى سياق غامض بعض الشىء. لم ينكشف النقاب عن شىء ملموس، لكن الشك بدأ يتطرق إلى صفوف الحزب، ثم قدمت تصرحا علنيا جديدا أظهرت فيه من جديد ولاءك لسياسة القيادة وأدنت إجرام المعارضين بطريقة أكثر حدة... كان ذلك منذ ستة شهور. واليوم تقر بأنك كنت منذ سنوات تعتبر سياسة القيادة خاطئة وضارة".

أطرق إيفانوف وغاص فى مقعده المريح ثم مضى يقول: "إذن فإعلانك الولاء فى المرات الأولى لم يكن سوى مجرد وسيلة لغاية محدودة، أرجوك أن تلاحظ أننى لا أعظك أو أعطيك دروسا فى الأخلاق. فكلانا ترعرع فى ظل التقاليد نفسها وله المفاهيم نفسها فى هذه الأمور. لقد كنت مقتنعا بأن سياستنا خاطئة وبأن سياستك سليمة، ونظرا لأن إفصاحك عن هذا فى ذلك الوقت كان سيؤدى إلى فصلك من الحزب بحيث يصبح من المستحيل استمرارك فى العمل لصالح أفكارك الخاصة

فقد تعين عليك أن تنحنى للعاصفة كى تتمكن من تأييد السياسة التى تعتبرها من وجهة نظرك السياسة السليمة الوحيدة. بالطبع لو كنت مكانك لتصرفت بالطريقة نفسها. وحتى الآن لا يوجد أى غبار على تصرفاتك.

سأل روباشوف: "وماذا بعد ذلك؟"

عادت إلى إيفانوف ابتسامته الأولى اللطيفة من جديد وقال: "ما لا أستطيع فهمه هو ذلك. أنت تعترف الآن علنا أنه منذ سنوات وأنت ترى أننا ندمر الثورة وفى الوقت نفسه تنكر أنك تنتمى للمعارضة وأنك تآمرت ضدنا. أحقا تتوقع منى أن أصدق أنك جلست تراقبنا واضعا يديك على حجرك دون أن تفعل شيئا بينما كنا، حسب اعتقادك، نقود البلاد والحزب إلى الدمار؟".

أجاب روباشوف وهو يهز كتفيه: "ربما لأنى أصبحت طاعنا فى السن ومنهوك القوى... لكن صدق ما شئت".

أشعل إيفانوف لفافة تبغ أخرى وأصبح صوته هادئا وخارقًا: "هل حقا تريدنى أن أصدق أنك ضحيت بأرلوفا وتنكرت لهؤلاء؟" – وهنا أشار بذقنه تجاه الرقعة الفاتحة الطلاء على الحائط – "كى تنقذ نفسك فقط؟!"

ومرت فترة طويلة ظل روباشوف خلالها صامتا. وانحنى إيفانوف برأسه آنذاك بالقرب من المكتب الجالس إليه. ثم قال إيفانوف: "أنا لا

أفهمك. فمنذ نصف ساعة ألقيت على مسامعى محاضرة مليئة بالهجوم المحموم على سياستنا يكفى أى جزء منها للقضاء عليك، والآن تنكر هذا الاستدلال المنطقى البسيط مثل انتمائك لجماعة معارضة، والذى نملك على أية حال كل الأدلة عليه".

قال روباشوف: "حقيقة؟ إذا كان لديكم كل الأدلة فلماذا تريدون الحصول على اعترافى؟ أدلة على أى شىء يا ترى؟"

قال إيفانوف ببطء: "من ضمنها أدلة على محاولتك التآمر على حياة الرئيس رقم (١)". ساد الصمت من جديد ولبس روباشوف نظارته ثم قال: "اسمح لى أن أسألك سؤالا: هل تعتقد حقيقة فى صحة هذه الحماقات أم إنك تدعى أنك...؟" وكشفت عينا إيفانوف عن الابتسامة الرقيقة نفسها التى ارتسمت عليه من قبل، وقال: "لقد قلت لك إن لدينا أدلة. وكى أكون أكثر دقة أقول إنها اعترافات الرجل، الذى قمت بتحريضه على هذه المؤامرة".

قال روباشوف: "أهنئك وما اسمه؟ ظل إيفانوف مبتسما وأجاب: "سؤال أحمق تنقصه الكياسة".

سأل روباشوف: "هل تسمح لى بقراءة الاعتراف أو مواجهة الرجل؟"

ابتسم إيفانوف وهو ينفث دخان التبغ فى وجه روباشوف بسخرية

ودية لم ترق لروباشوف الذى لم يحرك رأسه. وقال إيفانوف ببطء: "هل تتذكر الحبوب المنومة؟ أظن أننى سألتك السؤال نفسه من قبل. لقد تبادلنا الأدوار الآن. فاليوم أنت الذى توشك أن تلقى برأسك أولا فى الهاوية دون أن يكون لى يد فى ذلك. وأنت الذى أقنعتنى بأن الانتحار رومانسية البورجوازية الصغيرة، وسوف أبذل قصارى جهدى حتى لا تنجح فى الإقدام عليه. عندئذ سوف نصبح خالصين".

ظل روباشوف صامتا يفكر فيما إذا كان إيفانوف صادقا أم كاذبا، وفى الوقت نفسه كانت لديه رغبة غريبة، أو بالأحرى دافع حسى نحو لمس الرقعة الفاتحة الطلاء على الحائط بأصابعه.

وقال فى نفسه: أعصابى تلعب بى... الهواجس التى تداهمنى، السير على بلاط السجن الأسود فقط... الغمغمة بعبارات لا معنى لها، مسح نظارتى فى كمى... وها أنانذا أفعل ذلك من جديد".

ثم قال بصوت مرتفع: "أنا مشتاق لمعرفة الخطة التى وضعتموها من أجل خلاصى. إن الطريقة التى أجريت بها التحقيق معى حتى الآن تبدو بالضبط كأنها عكس الهدف الذى ترمون إليه".

ابتسم إيفانوف ابتسامة عريضة ومشرقة وقال لروباشوف وهو يمد يده عبر المكتب ليمسك بزرار سترته: "أيها العجوز الأحمق لقد اضطررت لأن أجعلك تنفجر مرة واحدة حتى لا تنفجر فى الوقت غير

الملائم. ألم تلاحظ عدم وجود كاتب اختزال هنا لتدوين محاضر التحقيق؟" ثم أخذ لفافة تبغ من العلبة ودفعها إلى فم روباشوف دون أن يترك زر سترته وقال: "إنك تتصرف كالطفل... كالطفل الرومانسى"، ثم أضاف: "والآن سوف نعد اعترافا صغيرا لطيفا وسيكون هذا كافيا اليوم".

نجح روباشوف أخيراً فى أن يخلص نفسه من قبضة إيفانوف، ونظر إليه بحدة من خلال نظارته، وقال: "وماذا هناك فى ذلك الاعتراف؟" فابتسم إيفانوف بلا توقف وقال: "سوف نطالع فى الاعتراف أنك تقر بأنك منذ عام كنت تنتمى إلى جماعة معارضة، لكنك تنكر بكل تأكيد أنك نظمت أو خططت لاغتيال الرئيس. بل العكس، انسحبت من هذه الجماعة حينما عرفت الخطط الإجرامية والإرهابية التى أعدتها المعارضة".

ابتسم روباشوف أيضا لأول مرة منذ بدء الحديث وقال: "إذا كان هذا هو الهدف من كل هذا الحديث فيمكننا أن ننهيه على الفور".

رد عليه إيفانوف غير نافد الصبر: "دعنى أكمل ما كنت أقول، لقد عرفت بالطبع أنك ستراوغ لكسب الوقت. دعنا أولا نفكر فى الجانب الأخلاقى أو العاطفى لهذا الأمر. إنك لن تخون أى شخص باعترافك هذا؛ فالمجموعة كلها قد تم القبض عليها قبلك بزمن طويل، ونصفهم تم تصفيته بالفعل. وأنت نفسك تعرف أنه يمكننا نحصل من الآخرين إذا أردنا على اعترافات أشد ضررا وأنكى من ذلك النوع من المعلومات غير

المؤذى المطلوب منك تقديمه لنا. فى الواقع بإمكاننا الحصول على أية اعترافات نريدها، وأعتقد أنك تفهمنى وأن صراحتى تقنعك".

فقال روباشوف: "بعبارة أخرى أنت نفسك لا تصدق قصة تآمرى ضد الرئيس، إذن فلماذا لا تواجهنى بهذا الشخص المجهول الغامض، الذى قدم هذا الاعتراف المزعوم؟".

قال إيفانوف: "فكر فى الأمر قليلا وضع نفسك مكانى، وحاول لو تبادلنا المواقع أن تجيب عن سؤالك بنفسك".

فكر روباشوف فى الأمر ثم قال: "لقد صدرت إليك أوامر عليا محددة لتتولى قضيتى. "فابتسم إيفانوف وقال: "إنك تتعسف فى قولك بعض الشىء، ففى حقيقة الأمر لم يحدد بعد ما إذا كانت قضيتك سوف تحال إلى قسم (أ) أو قسم (ب). أنت تعرف مدلول هذه الرموز؟". فأومأ روباشوف برأسه مشيرا إلى أنه يعرفها.

فقال إيفانوف: "لقد بدأت تفهم فـ(أ) تعنى أن قضيتك إدارية أما (ب) فتعنى تقديمك إلى محاكمة علنية. إن معظم القضايا السياسية تحاكم إداريا... أعنى بها تلك القضايا التى لا تصلح للمحاكمة العامة. فإذا أحيلت قضيتك إلى قسم (أ) فلن تكون تحت سلطتى فمحاكمة الهيئة الإدارية تتسم بالسرية، وهى كما تعلم سريعة إلى حد ما، وليس فيها فرصة للمواجهة أو لشىء من هذا القبيل. فكر فى... وتلا إيفانوف

ثلاثة أو أربعة أسماء وألقى نظرة خاطفة على الرقعة الفاتحة الطلاء على الحائط. وحينما التفت تجاه روباشوف من جديد، لاحظ روباشوف لأول مرة نظرة ألم وعذاب على وجهه وثباتا فى عينيه كما لو كان لا يركز بصره على روباشوف نفسه، بل على نقطة بعيدة من خلفه. ثم ردد إيفانوف من جديد بصوت منخفض أسماء أصدقائهم السابقين الذين أراد منه الاعتراف بتورطهم، ثم أضاف: "لقد عرفتهم مثلك، لكن يجب عليك أن تفهم أننا مقتنعون بأنك أنت وهم تستهدفون القضاء على الثورة، كما أنكم مقتنعون بأننا نحن الذين نعمل على القضاء عليها. هذه هى النقطة الأساسية. هذا ما نصل إليه عن طريق الاستدلال المنطقى. نحن لا نملك تبديد طاقتنا الذهنية فى خلافات فقهية وقانونية. أكنت تفعل ذلك إبان وجودك فى السلطة؟" لم ينطق روباشوف بحرف واحد.

ومضى إيفانوف قائلا: "كل شىء يعتمد على إدراجك على قائمة القسم (أ) وعلى بقاء القضية فى يدى"، وأنت تعرف الأسس فى اختيار تلك القضايا التى تحال للمحاكمة العلنية. علىّ أن أثبت رغبتك فى ذلك، ومن ثم فإنى أريد منك إقرارا يتضمن اعترافا جزئيا. أما إذا لعبت دور البطل وصممت على إعطاء الانطباع أننا لن نستطيع أن نأخذ منك حقا أو باطلا فسوف تكون فى ذلك نهايتك على أساس اعتراف من المجهول (س) عليك. ومن جهة أخرى إذا قدمت اعترافا جزئيا فسيكون هذا أساسا لتحقيق أكثر شمولا. وعلى هذا الأساس يمكننى أن أواجههم،

وسوف ندحض أسوأ نقاط الاتهام، ونقر بأنك مذنب فى حدود ضيقة محسوبة بعناية... وحتى فى مثل هذه الحالة فلن تتمكن من تخفيض مدة العقوبة إلى أقل من عشرين سنة، وهذا يعنى فى الحقيقة سنتين أو ثلاثًا من السجن، وبعد ذلك يصدرون عفوا عاما عنك، وبعد خمس سنوات سوف تعود إلى وضعك السابق من جديد. والآن تفضل بالتفكير فى هذا الأمر بهدوء قبل أن تجيب".

أجاب روباشوف: "لقد فكرت فى الأمر جيدا، وأنا أرفض عرضك. ربما تكون على حق من ناحية المنطق، لكننى سئمت هذا النوع من المنطق. لقد تعبت ولم أعد أرغب فى الاستمرار فى هذه اللعبة. كن كريما معى ومر بعودتى لزنزانتى".

فقال إيفانوف: "كما تشاء، لم أكن أتوقع أنك ستوافق على الفور، فهذا النوع من الحديث تظهر نتائجه متأخرة دائما؛ أمامك أسبوعان وبعدها اطلب منهم أن يحضروك إلىّ من جديد عندما تكون قد فكرت فى الأمر مليا أو أرسل إلىّ تصريحا مكتوبا؛ لأننى على يقين من أنك سترسله إلىّ".

هم روباشوف واقفا. فوقف إيفانوف أيضا فبدا أطول منه بنصف قامة، ثم ضغط على جرس كهربائى بجانب مكتبه، وبينما كانا فى انتظار مجيء السجان لأخذ روباشوف قال إيفانوف: "لقد كتبت فى مقالك الأخير منذ بضعة شهور أن العقد القادم سوف يحدد مصير

العالم فى عصرنا، ألا تريد أن تبقى لتشهد ذلك؟" وابتسم إيفانوف فى وجه روباشوف، ثم سمعا خطوات تقترب فى الرواق، وفتح الباب فدخل سجانان وأديا التحية الرسمية. ودون أن ينطق روباشوف بكلمة خطا خطوة بينهما وبدأ ثلاثتهم طريق العودة للزنزانة. اختفت الآن الأصوات من الرواق؛ حيث كان ينبعث من بعض الزنزانات غطيط خافت صوته كالأنين، وكانت الأضواء الصفراء الخافتة تضىء المبنى بأكمله.

"التحقيق الثانى"

إن الكنيسة تتحقق من الوصايا الأخلاقية ، حينما تشعر بأن كيانها مهدد بالانهيار ، وحتى تحمى الكنيسة نفسها من التفكك يحق لها استخدام كل الوسائل ، أيا كانت بما فى ذلك الختل والخديعة والعنف وبيع المناصب الكهنوتية والسجن والموت . فغاية كل نظام هو خدمة المجتمع ويجب التضحية بالفرد من أجل الصالح العام .

ديتربيش فون نايهايم

أسقف فردن

مجلة الانشقاق الجزء الثالث عام ١٤١١م

(١)

مقتطفات من يوميات ن.س.روباشوف في اليوم الخامس من سجنه:

"إن الحقيقة المطلقة دائما ما تتحول إلى كذبة فى المرحلة قبل النهائية، فكل من يبدو ذا صواب فى نهاية الأمر يبدو دافعا للإحباط وضارا قبل ذلك".

"لكن من سيكون على حق؟ سيظهر ذلك فيما بعد. وفى الوقت نفسه عليه أن يسحب من رصيد الثقة القديمة فيه، وأن يبيع روحه للشيطان طمعا فى غفران التاريخ".

يقال إن الرئيس يحتفظ بكتاب (الأمير) لمكيافيلى دائما بجوار سريره. لابد أن يفعل ذلك؛ إذ إنه منذ صدور ذلك الكتاب لم يصدر أى شىء مهم عن قواعد الأخلاق السياسية. لقد كنا أول من استبدل أخلاقيات العدل الليبرالية فى القرن التاسع عشر بالأخلاقيات الثورية فى القرن العشرين.

وقد كنا على حق فى ذلك أيضا، فالثورة التى تحكمها قوانين لعبة الكريكيت مضحكة وغير معقولة. ويمكن للسياسة أن تكون عادلة بعض الشىء فى الفترات التى يلتقط فيها التاريخ أنفاسه، أما عند المنعطفات ونقاط التحول الحرجة فإن المرء لا يجد سوى القاعدة القديمة المنادية بأن الغاية تبرر الوسيلة.

لقد أدخلنا المكيافيلية الجديدة فى هذا البلد وقد قلدتها الديكتاتوريات المناهضة للثورة دون براعة أو إتقان؛ وسرنا على نهج المكيافيلية الجديدة باسم رفع لواء العقل العالمى. وهنا كانت تكمن عظمتنا. أما الآخرون فيتبعون النظم الديكتاتورية باسم الرومانسية القومية، وهو الأمر الذى عفا عليه الزمن.

لذلك سوف يغفر لنا التاريخ فى النهاية ولن يغفر لهم... لكن بالنسبة للوقت الحاضر فنحن نفكر ونتصرف على أساس الثقة القديمة الموضوعة فينا، حيث إننا ضربنا عرض الحائط بكل المعتقدات والقواعد والأخلاقيات الشبيهة بالأخلاقيات التى تحكم لعبة الكريكيت وأصبح مبدؤنا الوحيد الهادى لنا هو ما يترتب على المنطق، وأصبحنا نقع تحت ضغط رهيب يجبرنا على تتبع أفكارنا حتى نصل بها إلى نتائجها المحتومة، ثم على التصرف تبعا لذلك.

نحن نبحر دون أثقال تعوق سير سفننا وتمنعها من الاحتفاظ بتوازنها؛ لذا فكل لمسة لتحريك الدفة تعتبر مسألة حياة أو موت. منذ فترة قصيرة أعدم بالرصاص أكبر خبير فى الزراعة فى بلادنا ومعه ثلاثون من معاونيه، لأنه أكد الرأى القائل بأن سماد النترات الصناعى يفوق البوتاس. كان الرئيس يشجع البوتاس بكل جوارحه، لهذا أعدم (ب) والثلاثين الآخرين باعتبارهم مخربين. إن البديل لنترات البوتاس فى نظام زراعى مركزى قومى أمر عظيم الأهمية؛ فذلك البديل يمكنه تحديد

قضية الحرب القادمة. وإذا كان الرئيس على حق فسوف يغفر له التاريخ كل ذنوبه، وسيصبح إعدام الواحد والثلاثين رجلا شيئا تافها؛ أما إذا كان مخطئا...

إن ما يهمنا فقط هو معرفة، من الناحية الموضوعية، من هو على حق، أما المشكلة التى يعنى بها أتباع أخلاقيات لعبة الكريكيت فهى مختلفة تمام الاختلاف: فالذى يعنيهم هو ما إذا كان (ب) من الناحية الذاتية صادق النية حقا، حينما أوصى باستخدام النيتروجين. فإن لم يكن صادقا مع ذاته يصبح رميه بالرصاص متمشيا مع أخلاقياتهم، حتى لو اتضح لهم فى نهاية المطاف أن النيتروجين أفضل لهم. إذا كان حسن النية ينبغى تبرئته والسماح له بالاستمرار فى رعاية وتشجيع استخدام النيترات حتى إذا كان فى ذلك دمار البلد وخرابه.

هذا بالطبع هراء كامل فمسألة حسن النية من الناحية الذاتية لا تهمنا. فالمخطئ يجب أن يدفع الثمن ومن يكون على صواب سوف تغفر له خطاياه. هذا هو قانون المصداقية التاريخية الذى كنا نتبعه.

لقد علمنا التاريخ أن الأكاذيب تخدمه أكثر من الحقيقة؛ لأن الإنسان بطىء الفكر وعليه أن يمضى أربعين سنة بالصحراء قبل أن يخطو أى خطوة فى طريق تطوره، ويجب أن يساق إلى الصحراء... بالوعيد والوعود والرعب والعزاء الوهميين، اللذين لا أساس لهما فى الحقيقة. حتى لا يلجأ المرء للراحة والدعة قبل الأوان وحتى لا ينحرف إلى عبادة العجول الذهبية.

لقد تعلمنا من التاريخ على نحو أكثر اكتمالا مما تعلمه الآخرون. فنحن نختلف عن سوانا فى اتساقنا المنطقى. نحن نعلم أن التاريخ لا يعبأ بالفضيلة وأن الجرائم تبقى بلا عقاب، لكن لكل خطأ عواقبه التى تستمر وتثأر لنفسها حتى الجيل السابع؛ لذلك ركزنا كل جهودنا على تجنب الأخطاء واجتثاثها من جذورها. لم يحدث فى التاريخ قط أن تركزت فى أيدى عدد قليل من الناس مثل هذه القوة العظمى، التى تسيطر على مستقبل الإنسانية كما حدث فى حالتنا. فكل فكرة خاطئة اتبعناها كانت جريمة اقترفناها فى حق الأجيال القادمة، لذلك فإن علينا أن نعاقب الأفكار الخاطئة بالموت على نحو ما يعاقب الآخرون اقترافنا الجرائم بالموت. لقد اعتبرونا مجانين ؛ لأننا تتبعنا كل فكرة تعن لنا حتى نتائجها الحتمية. ووجدوا فينا نظيرا لمحاكم التفتيش؛ لأننا كنا نشعر دائما بثقل المسئولية الملقاة على عاتقنا عن توفير الحياة القادمة التى تعلو على حياة الأفراد وتتجاوزها. لقد شابهنا كبار المحققين فى محاكم التفتيش فى أننا قضينا على جذور الشر ليس فقط فى أفعال الناس بل أيضا فى أفكارهم ، ولم نسمح بأن يكون للإنسان أى نوع من الحياة الخاصة حتى ولو كانت هذه الأفكار لا تبارح جمجمته. كنا نعيش مرغمين على الوصول بالأشياء إلى نتائجها المحتومة. وكانت أذهاننا مشحونة بتيار قوى، حتى إن أقل ماس كهربائى كان من الممكن أن يؤدى إلى انقطاع كامل للتيار. لذا كان مصيرنا الدمار الشامل على

الجانبين. وكنت أنا واحدا منهم. فكرت وتصرفت كما كان ينبغى على أن أفعل. لقد حطمت أناسا كنت أعتز بهم وأعطيت سلطة لآخرين لم أكن أحبهم. فقد وضعنى التاريخ فى وضع جعلنى استنفد المصداقية، التى منحنى التاريخ إياها، وإذا كنت محقا فليس هناك ما أندم عليه. أما إذا كنت مخطئا فسوف أدفع الثمن. لكن كيف يمكن للحاضر أن يقدر ما سوف يُعتبر حقيقة فى المستقبل؟ نحن نقوم بدور الرسل لكن بدون مواهبهم. نحن نستبدل الوحى بالاستدلال المنطقى. ولكن على الرغم من أننا قد بدأنا جميعا من نقطة البداية نفسها فقد توصلنا إلى نتائج مختلفة. كنا نستخدم الحجة لإثبات بطلان الحجة. وفى النهاية كان على الواحد منا أن يرجع إلى الإيمان البديهى بسلامة تفكيره. هذه هى النقطة الحرجة والمفصلية. لقد تخلصنا من جميع أثقال السفينة للحفاظ على توازنها وحتى لا تغرق، بحيث أصبح الواحد منا يستند إلى ركيزة واحدة لا غير هى إيمان المرء بنفسه. إن علم الهندسة يتمثل فى العقل البشرى الخالص، لكن بديهيات إقليدس لا يمكن إثباتها. ومن لا يؤمن بهذه البديهيات يرى البناء كله ينهار أمام عينيه.

إن الرئيس يؤمن بنفسه... إيمانا قويا وبطيئا ، ولهذا فهو ثابت الجنان ويشعر بمنتهى الأمان، لكن وثوقى بنفسى صار هزيلا واهنا فى السنوات القليلة الأخيرة. فالحقيقة إننى لم أعد أؤمن بأننى معصوم من الخطأ وهذا هو سبب ضياعى.

(٢)

في اليوم التالي للتحقيق الأول الذي أجري مع روباشوف، كان إيفانوف القاضي المنوط بالتحقيق يجلس مع زميله جلتكين في المقصف بعد تناول الغداء. كان إيفانوف يشعر بالتعب فمد قدمه الصناعية فوق ياقة زيه الرسمي، ثم صب بعض النبيذ الرخيص الذي يقدمه المقصف وهو ينظر متعجباً في صمت إلى جلتكين، الذي كان يجلس معتدلا على مقعده وزيه المنشى الذي كان يصدر صوت احتكاك ويزيق مع كل حركة، لم يخلع حتى جراب مسدسه على الرغم من أنه لابد أنه كان متعبا للغاية هو الآخر.

أفرغ جلتكين كأسه كلها في جوفه فاحمر بعض الشيء الندب البادي على رأسه الحليق تماما. لم يكن في المقصف سوى ثلاثة ضباط آخرين يجلسون على مائدة بعيدة؛ اثنان منهم يلعبان الشطرنج في حين كان الثالث.... يشاهد لعبهما.

سأل جلتكين: "ماذا سيحدث بشأن روباشوف؟" فأجاب إيفانوف بقوله: "موقفه سيئ بعض الشيء. لكنه لا يزال منطقيا كالعادة. لهذا سوف يستسلم لوجهة نظرنا. قال جلتكين: "لا أعتقد ذلك". قال إيفانوف: "بل سيفعل، حينما يصل بتفكيره إلى النتائج المنطقية للأشياء سوف يسلم بصحة وجهة نظرنا، ولهذا فمن الضروري أن نتركه في هدوء ولانزعجه، لقد سمحت له بورق وتبغ؛ كي نعجل أمر بدئه في التفكير".

قال جلتكين: "أنا أعتبر هذا تصرفا خاطئا"، فرد إيفانوف: "أنت لا تحبه. لقد دبت مشاجرة بينكما منذ بضعة أيام على ما أظن؟" تذكر جلتكين المشاجرة عندما جلس روباشوف على سريره المعلق لابسا حذاءه فوق جوربه المهلهل، ثم قال: "هذا لا يهم وإني لا أعلق أهمية على شخصيته، بل أعرف أن طريقته هي الخاطئة فهذه الطريقة لن تؤدي إلى استسلامه".

أجاب إيفانوف: "حينما يستسلم روباشوف فلن يكون هذا نابعا من الجبن، بل من المنطق، ولا جدوى من استخدام الأساليب العنيفة معه؛ لأنه من معدن معين يزداد صلابة كلما ازداد الطرق عليه".

قال جلتكين: "هذا مجرد لغو فلا يوجد إنسان يستطيع مقاومة أي مقدار من الضغط البدني عليه؛ لم أر واحدا قط من هذا النوع. لقد علمتني التجارب أن مقاومة الجهاز العصبي في الإنسان للضغوط محدودة بطبيعتها".

أجاب إيفانوف مبتسما، لكن بشيء من عدم الارتياح: "لا أحب أن أكون تحت رحمتك وأقع في قبضتك. على أية حال فأنت مثال حي يدحض نظريتك".

استقرت نظرة إيفانوف الباسمة للحظة على أثر الجرح برأس جلتكين. كانت قصة هذا الجرح معروفة فقد وقع جلتكين في يد الأعداء أثناء الحرب الأهلية، فربطوا فتيل شمعة مشتعلة في رأسه، الذي حُلق

بالموسى ، كى يحصلوا منه على معلومات معينة. وبعد بضع ساعات استولى أتباعه على الموقع ووجدوه فاقد الوعى وقد احترق الفتيل تماما، لكن جلتكين لم ينطق بشىء.

نظر جلتكين إلى إيفانوف بعينيه الخاليتين من التعبير وقال: "هذا مجرد لغو أيضا، فأنا لم أستسلم لأننى فقدت الوعى ولو ظللت واعيا لدقيقة أخرى لتكلمت فالمسألة تتعلق ببنية الجسم".

ثم أفرغ كأسه فى جوفه وهو يلوح بإشارة مقصودة وأخذ كمه يصدر احتكاكا وهو يضع الكأس مرة أخرى على المائدة، ثم قال: "فى البداية حينما أفقت كنت مقتنعا بأننى قد تكلمت، لكن ضابطين سجينين ممن تم تحريرهما معى أكدا عكس ذلك. لهذا منحونى وساما. إن المسألة تتعلق ببنية الجسم. أما ما عدا ذلك فمجرد أساطير وحكايات خرافية".

هز إيفانوف كتفه وهو يشرب الخمر بعد أن احتسى الكثير من النبيذ الرخيص ثم سأله: "منذ متى وأنت تعتنق هذه النظرية الفذة الخاصة بربط صمود المرء أمام التعذيب بقوته الجسدية. ففى السنوات الأولى من الثورة حين كانت الأوهام تسيطر علينا لم يكن هناك وجود لمثل هذه الأساليب المتبعة فى تعذيب الجسد. كنا آنذاك نحلم بإلغاء العقوبة والقصاص من الجرائم، وبإقامة المصحات ذات الحدائق الغناء للعناصر غير المهتمة بأمر المجتمع، ثم اتضح أن كل هذا هراء.

قال جلتكين: "لا أعتقد ذلك. أنت كثير الشك فى نوايا البشر، ففى خلال مائة عام سوف نحقق كل هذه الأحلام، لكن علينا أن نبدأ. وكلما أسرعنا كان هذا أفضل. أما الوهم الوحيد فهو الاعتقاد بأن الوقت قد حان لتحقيق هذه الأحلام. فى بداية تقلدى منصبى هنا كنت أنا أيضا خاضعا لذلك الوهم. معظمنا كان كذلك، فى الواقع أن النظام كله حتى القمة كان كذلك. كنا نريد أن نبدأ على الفور بإنشاء حدائق الزهور، لكن هذا كان خطأ؛ حيث إنه سيمكننا أن نناشد عقل المجرم وغرائزه الاجتماعية فى غضون مائة عام. أما اليوم فعلينا الاعتماد على بنيته الجسمانية، وأن نسحقه جسديا وعقليا إذا لزم الأمر.

حار إيفانوف فيما إذا كان جلتكين سكران ، لكنه عرف من عينيه الهادئتين والخاليتين من التعبير أنه لم يكن كذلك، فابتسم فى شىء من الغموض، وقال باختصار "أنا كثير الشك فى الناس فى حين أنك صاحب مواقف أخلاقية". لم يرد جلتكين بأى شىء، وجلس جامدا بزيه الرسمى المنشى على مقعده، وكانت رائحة الجلد الحديث الدبغ تنبعث من جراب مسدسه، ثم قال جلتكين بعد فترة: "منذ عدة سنوات فى الأقاليم أحضروا إلىّ فلاحا ضئيل الحجم لاستجوابه، وحينئذ كنا نؤمن بنظرية الحدائق اليانعة كما تسميها، وكنا نقوم بعمليات الاستجواب بطرائق مهذبة للغاية. كان هذا الفلاح قد أخفى محصوله فى بداية تطبيق نظام المزارع الجماعية. راعيت فى معاملتى له اتباع قواعد الذوق

المنصوص عليها. وشرحت له بطريقة ودية أننا نحتاج إلى القمح لإطعام سكان المدينة المتزايدين، وأننا بحاجة كذلك للتصدير؛ كى نتمكن من بناء صناعاتنا الوطنية. وطلبت إليه أن يخبرنى بالمكان الذى أخفى فيه محصوله. حينما دخل الفلاح غرفتى كان يتوقع الضرب فأحاط رأسه بكتفيه. كنت أعرف هذا النوع من الفلاحين، لأننى أنا نفسى من أبناء الريف. وحين بدأت فى إقناعه بالحجة والتحدث إليه كند لى وناديته بـ"المواطن"؛ ظن أنى مخبول. رأيت ذلك فى عينيه. وظللت أتحدث إليه لمدة نصف ساعة دون أن يتفوه بكلمة وأخذ يعبث فى أذنه تارة، وفى أنفه تارة أخرى، فواصلت التحدث على الرغم من أننى كنت أعرف أنه يعتبر الأمر كله ضربا من المزاح الرائع. لم يكن يسمع ما أقوله له على الإطلاق فبكل بساطة سد أذنيه حتى لا يسمع الحجج... سدهما بشمع قرون من الشلل الذهنى القائم على الخوف من السلطة، وكنت ألتزم تماما باللوائح ولم يخطر على بالى أن هناك أساليب أخرى لإرغامه على الكلام.

فى ذلك الوقت كانوا يحضرون إلى حوالى عشرين أو ثلاثين حالة من هذا القبيل يوميا، وكذلك كان الحال مع زملائى، وكانت الثورة تتعرض لخطر الانهيار على يد هؤلاء الفلاحين الصغار البدناء.

كان العمال يعانون من نقص فى التغذية. وكان التيفود الناتج عن المجاعة قد خرب مقاطعات بأكملها، ولم يكن لدينا رصيد لإقامة صناعة الأسلحة. وكنا نتوقع الهجوم علينا من شهر لآخر، وقد أخفى هؤلاء

الحمقى الفلاحون ما يعادل مائتى مليون قطعة ذهبية فى شراباتهم المصنوعة من الصوف. فضلا عن أنهم دفنوا نصف المحصول تحت الأرض، وحينما كنا نستجوبهم كنا نلقبهم "بالمواطنين"، بينما كانوا ينظرون إلينا فى استخفاف بطرف أعينهم الحمقاء الماكرة وهم يعتبرون الأمر كله مزاحا عظيما وينظفون أنوفهم من القذى.

"بدأت المحكمة الثالثة للرجل الذى كنت أقوم باستجوابه فى الساعة الثانية صباحا، وكنت قد عملت قبلها لمدة ثمانى عشرة ساعة متواصلة. فأيقظت الرجل من نومه، وكان يبدو ثملا من شدة رغبته فى النوم، كما بدا عليه الخوف فاعترف. منذ ذلك الحين وأنا أقوم بعمليات الاستجواب فى الليل. ففى ذات مرة شكت امرأة من وقوفها طوال الليل خارج غرفتى فى انتظار دورها فى الاستجواب. كانت ساقاها ترتعشان وكانت فى غاية الإنهاك فنامت أثناء التحقيق. أيقظتها فواصلت الحديث وهى تغمغم بصوت ناعس دون أن تعى تماما ما تقول، ثم نامت من جديد فأيقظتها وأقرت بكل شىء ووقعت الاعتراف دون أن تقرأه حتى أتركها تنام. كان زوجها قد أخفى بندقيتين آليتين فى مخزن الحبوب الخاص به وحرض فلاحى القرية على حرق القمح؛ لأنه رأى المسيح الدجال فى المنام.

كان انتظار المرأة فى الخارج واقفة على قدميها طوال الليل ناجما عن إهمال الشاويش، الذى يقوم على خدمتى، فبدأت منذ ذلك الحين أشجع هذا النوع من الإهمال. وتعين فى حالة العنيدين الوقوف فى بقعة

واحدة مشدودى القامة لمدة ثمانى وأربعين ساعة بعد أن يكون الصماغ فى آذانهم قد ذاب، ويمكن التحدث إليهم".

توقف الرجلان اللذان كانا فى ركن الحجرة عن لعب الشطرنج، وبدآ يلعبان دورا جديدا، أما الرجل الثالث فقد غادر المكان. كان إيفانوف يراقب جلتكين وهو يتكلم؛ حيث كان صوته وقورا وغير معبر كعادته.

ثم أكمل جلتكين حديثه: "مر زملائى بتجارب مشابهة فقد كانت هذه هى الطريقة الوحيدة للوصول إلى نتائج، ومع ذلك فقد كنا نلتزم باللوائح ولا نمس أى سجين بسوء، لكن الذى كان يحدث هو أننا كنا نجعلهم يشاهدون، بمحض الصدفة(*)، إعدام زملائهم السجناء. وكان لهذه المشاهد تأثير فيهم بعضه ذهنى والآخر جسدى. وهناك مثال آخر: كانت هناك حمامات ودوشات للاغتسال تقتضيها دواعى الصحة. فكنا نوقف عمل أنابيب الماء الساخن والتدفئة فى صقيع الشتاء بحجة وجود بعض الأعطال الفنية. كان العامل المسئول يتحكم فى إطالة أو تقصير مدة الحمام، كما كان فى بعض الأحيان يجعل جهاز الماء الساخن والتدفئة يعود إلى العمل بكفاءة. كان جميع العمال المسئولين عن تشغيل الحمامات رفاقا قدامى، ولم يكن من الضرورى إعطاؤهم تعليمات مفصلة. فهم يفهمون من تلقاء أنفسهم ما يجب عليهم عمله.

(*) السخرية هنا واضحة. (المترجم).

قال إيفانوف: "نعم كان فهمهم كافيا".

قال جلتكين: "لقد سألتنى كيف اكتشفت نظريتى... هأنذا أشرحها لك. فكل ما يهم هو أن يتذكر المرء دائما الحتمية المنطقية لكل ذلك، وإلا فسوف يصبح شكاكا مثلك فى نوايا الناس. لقد تأخرت ويجب أن أرحل".

شرب إيفانوف كأسه وثبت ساقه الصناعية على المقعد، ثم بدأ يشعر بآلام روماتيزمية فى الجزء الباقى منها، وكان يؤنب نفسه لبدئه الحديث مع جلتكين.

دفع جلتكين الحساب وحينما انصرف القائم على الخدمة فى المقصف سأل جلتكين: "ماذا سيتم بشأن روباشوف؟" رد إيفانوف بقوله: "لقد قلت لك رأيى. يجب أن يترك فى هدوء وسلام".

وقف جلتكين وحذاؤه يزيق ويصر بجانب المقعد، الذى كان إيفانوف يضع ساقه عليه ثم قال: "أنا أعرف جيدا حسناته القديمة ولكنه اليوم أصبح ضارا كالفلاح السمين الذى كنت أستجوبه بل أشد منه خطرا".

نظر إيفانوف إلى عينيه غير المعبرتين وقال: "لقد أعطيته مهلة أسبوعين للتفكير، فحتى تنتهى تلك المدة أريد أن أتركه فى هدوء وسلام".

كان إيفانوف يتكلم بلهجته الرسمية إذ إن جلتكين كان مرؤوسه. أدى جلتكين له التحية العسكرية وترك المقصف وحذاؤه يصدر صريرا. ظل إيفانوف جالسا ثم شرب كأسا أخرى، وأشعل لفافة تبغ وأخذ ينفخ فى الدخان أمامه ثم وقف بعد فترة وسار برجله العرجاء نحو الضابطين ليراقبهما وهما يلعبان الشطرنج.

(٣)

تطور مستوى معيشة روباشوف تطورا خارقا للعادة بعد التحقيق الأول. ففى الصباح التالى لهذا التحقيق أحضر له السجان المسن ورقا وقلما وقطعة من الصابون ومنشفة، كما أعطاه كوبونات بقيمة المبلغ الذى وجدوه معه عندما تم القبض عليه، وأوضح له السجان أن من حقه الآن أن يشترى بهذه الكوبونات تبغا وطعاما إضافيا من مقصف السجن، فطلب روباشوف تبغا وبعض الطعام.

كان كلام السجان المسن معه مقتضبا ووقحًا كعادته ، لكنه أحضر فى الحال الأشياء التى طلبها روباشوف، وفكر روباشوف للحظة فى طلب طبيب من خارج السجن، لكنه نسى أن يفعل هذا؛ حيث إن نابه لم يكن يؤلمه فى ذلك الوقت. وحينما اغتسل وتناول بعض الطعام شعر بتحسن كبير فى حالته.

أزيل الثلج الذى كان يغطى الفناء وبدأت جماعات السجناء يمشون حوله يمارسون التريض اليومى، الذى كان قد توقف بسبب الثلج. لقد كانوا يسمحون لذى الشفة الأرنبية المتدلية وزميله فقط بالسير لمدة عشر دقائق يوميا ، ربما يكون هذا بأمر خاص من الطبيب. كان ذو الشفة الأرنبية المتدلية ينظر إلى نافذة روباشوف عند الدخول إلى الفناء وعند الخروج منه، وكانت حركته واضحة وضوح الشمس ولا لبس فيها . وفى الأوقات التى لم يكن روباشوف منشغلا فيها بكتابة مذكراته أو بالسير

جيئة وذهابا فى زنزانته، كان يقف عند النافذة متكئا بجبينه على إطارها الزجاجى وهو يراقب المسجونين فى أثناء تريضهم. كانوا يقومون بتريضهم فى جماعات تتكون من اثنى عشر سجينا فى المرة الواحدة. التفوا حول الفناء فى مجموعات كل منها تتكون من اثنين وتقف على بعد عشر خطوات بعضها من بعض ، وكان يقف وسط الفناء أربعة من المسئولين يرتدون الزى الرسمى يقومون بمراقبة السجناء، حتى لا يتبادلون الحديث. كان هؤلاء الأربعة يشكلون محور دوران السجناء الذى استمر لمدة عشرين دقيقة بالضبط. بعد ذلك اقتيد السجناء للعودة إلى المبنى من باب جهة اليمين فى حين تدخل الفناء فى الوقت نفسه مجموعة جديدة من باب يقع جهة اليسار، ثم يؤدون الدوارن الممل نفسه حتى فترة الاستراحة التالية.

ظل روباشوف طوال الأيام الأوائل القليلة يبحث بينهم عن وجوه مألوفة لكنه لم يجد وجها يعرفه فشعر بالارتياح؛ لأنه كان يرغب فى الوقت الحالى فى تجنب أى شىء يذكره بالعالم الخارجى ويثنيه عن بلورة أفكاره والوصول بها إلى نتائجها المنطقية حتى يتآلف مع الماضى والمستقبل ومع الأحياء والأموات؛ إذ إنه لم يتبق سوى عشرة أيام من المهلة التى حددها له إيفانوف.

كان روباشوف يحافظ على أفكاره عن طريق تدوينها؛ لكن الكتابة أنهكت قواه حتى أصبح لا يستطيع إرغام نفسه عليها إلا لمدة ساعة أو

ساعتين على الأكثر فى اليوم الواحد، أما الوقت المتبقى فقد أمضاه فى التفكير فى أى شىء يعن له.

كان روباشوف يعتقد دائما أنه يعرف نفسه جيدا إلى حد كبير. ولأنه كان يخلو من التحيزات الأخلاقية، فهو لم يكن لديه أى وهم حول مصطلح "صيغة المفرد"، وقد كان يسلم تسليما قاطعا دون أية عاطفة خاصة بأن ظاهرة صيغة المفرد، تخفى وراءها دوافع معينة يحجم الناس عادة عن الاعتراف بها.

وعندما كان روباشوف يقف متكئا بجبينه على النافذة أو يقف فجأة على البلاطة السوداء الثالثة كان يكتشف أشياء لم يتوقع اكتشافها، فقد اكتشف أن العمليات التى يطلق عليها خطأ مونولوج أو مناجاة الشخص لنفسه هى بالفعل حوار أو ديالوج من نوع خاص... فهو حوار يسكت فيه طرف من طرفى هذا الحوار، بينما يتحدث إليه الطرف الآخر متجاوزا كل القواعد اللغوية مخاطبا إياه بصيغة "أنا"، بدلا من "أنت" حتى يتمكن من كسب ثقته وسبر غوره وفهم نواياه، فى حين يظل الطرف الصامت صامتا يتجنب إبداء الملاحظات ويرفض حتى أن يكون له وجود فى الزمان والمكان.

على أية حال فقد بدا لروباشوف الآن أن الطرف، الذى اعتاد الصمت، يتكلم فى بعض الأحيان دون أن يوجه الطرف الآخر إليه الحديث ودون أية علة ظاهرة فبدا صوته غير مألوف بالمرة لدى

روباشوف، الذى كان يستمع إليه بدهشة صادقة. واكتشف روباشوف أن شفتيه تتحركان. كانت هذه التجربة أبعد ما تكون عن الصوفية أو الغموض، بل ذات طبيعة ملموسة للغاية. وقد اقتنع روباشوف تدريجيا عن طريق ملاحظاته بوجود مكون ملموس تماما فى صيغة الفرد، ظل صامتًا طوال هذه السنوات ثم بدأ يتكلم الآن.

لقد انشغل روباشوف بهذا الاكتشاف أكثر من انشغاله بتفاصيل حواره مع إيفانوف، واعتبر الأمر منتهيا فهو لن يقبل عروض إيفانوف ومقترحاته، وسيرفض الاستمرار فى هذه اللعبة. وبناء على ذلك فليس هناك سوى فترة محدودة يعيشها، وأصبح هذا الاعتقاد أساس تفكيره.

لم يفكر قط فى تلك القصة المضحكة الخاصة بالتآمر على حياة الرئيس ، بل اهتم أكثر بشخصية إيفانوف نفسه. لقد سبق لإيفانوف أن قال إنه هو وروباشوف يمكن أن يتبادلا موقعيهما، وهو بلا شك على حق فى ذلك. فقد كانا توأمين فى تطورهما. وعلى الرغم من أنهما لم يولدا من بويضة واحدة فإنهما قد تغذيا من الحبل السرى نفسه والمعتقدات المشتركة ، كما أنهما ترعرعا بكثافة وعمق فى بيئة الحزب نفسه الذى شكل شخصيتهما أثناء السنوات الحاسمة فى تطورهما، فقد جمعت بينهما نفس القواعد الأخلاقية وذات الفلسفة وطريقة التفكير. ولو أنهما استبدلا أوضاعهما لجلس روباشوف خلف مكتب المحقق وجلس إيفانوف

أمامه ليواجه الاستجواب. وانطلاقا من هذا الوضع كان من المحتمل أن يستخدم روباشوف الحجج نفسها التى استخدمها إيفانوف، لأن قواعد اللعبة محددة فهى تسمح فقط ببعض الاختلافات فى التفاصيل. لقد سيطرت عليه من جديد فكرة التفكير من خلال عقول الآخرين، فوضع نفسه محل إيفانوف وأخذ يرى نفسه من خلال عينى إيفانوف... رأى نفسه فى موضع الاتهام، كما كان ينظر هو نفسه ذات مرة إلى ريتشارد ولوى الصغير، رأى نفسه إنسانا منحطا اسمه روباشوف، هو خيال زميل قديم، وتفهم سر معاملة إيفانوف له بمزيج من الرقة والاحتقار.

لقد سأل روباشوف نفسه مرارا وتكرارا فى أثناء المناقشة عما إذا كان إيفانوف مخلصا أو منافقا، وعما إذا كان ينصب له الفخاخ أم يرغب حقيقة فى أن يجد له مخرجا، لكنه حينما وضع نفسه محل إيفانوف أدرك أنه كان يتمتع بدرجة إخلاصه نفسها كبرت أم صغرت، هى درجة إخلاصه نفسها مع كل من ريتشارد ولوى الصغير.

اتخذت هذه الأفكار أيضا صورة المناجاة أو المونولوج، التى تسير وفق المنهج المألوف... لكن ذلك الكائن الحديث الاكتشاف... ذلك الشريك الصامت لم يشترك كما جرت العادة فى تلك المناجاة، على الرغم من أنه كان من المفترض أنه الشخص المخاطب فى كل المناجيات من أولها إلى آخرها... أصبح صامتا يقتصر وجوده على التجريد النحوى الذى يطلق عليه "صيغة المفرد". ولم تنجح الأسئلة المباشرة والتأملات المنطقية فى

حمله على الكلام أو إغرائه به. وعندما كان هذا الشريك الصامت يخرج عن صمته ويتكلم فإنه كان يفعل هذا دون سبب واضح. ومن الغريب أن كلامه كان دائما مصحوبًا بألم حاد يصيب سنه. ويبدو أن المجال الذهنى لهذا الكائن الحديث الاكتشاف تكوّن من تلك الجزئيات المتنوعة غير المترابطة مثل أيدى السيدة العذراء فى لوحة.. الرحمة" وقطط لوى الصغير ونغمة الأغنية، التى يتردد فيها مقطع "إلى التراب مآلهم" أو جملة معينة قالتها أرلوفا فى مناسبة ما. وأن وسيلة هذا الكائن فى التعبير عن نفسه كانت مفككة ومتناثرة. فهو يعبر عن نفسه على سبيل المثال عن طريق دافع لا سبيل إلى مقاومته يدفعه إلى مسح نظارته فى كمه، وعن طريق الحافز الذى يحفزه على لمس الرقعة الخفيفة الطلاء الموجودة على حائط غرفة إيفانوف، وأيضا عن طريق حركات الشفاه التى لا يمكن السيطرة عليها، والتى تتمتم بجمل لا معنى لها مثل جملة "سوف أدفع الثمن"، كما يعبر عن نفسه أيضا عن طريق الذهول الناجم عن أحلام اليقظة التى تدور حول أحداث مضت فى حياة الإنسان بدقة بالغة.

حاول روباشوف أن يدرس هذا الكائن حديث الاكتشاف أثناء جولاته فى الزنزانة، ولخجله من تأكيد صيغة المفرد... ذلك الخجل المعتاد فى الحزب أطلق روباشوف اسم "الخيال النحوى" على الكائن الحديث الاكتشاف. من المحتمل أنه كانت أمامه أسابيع قليلة يعيشها، فأحس

بدافع جارف يدفعه لاستجلاء أمر هذا الكائن، وأن يفكر فيه حتى يصل بتفكيره إلى نتيجة منطقية. ولكن بدا له أن "مجال" الخيال النحوى يبدأ فقط عند انتهاء الفكر الذى يؤدى إلى نتائج. فمن الواضح أن الاستعصاء على مجال التفكير المنطقى يعتبر جزءا لا يتجزأ من طبيعة تكوين ذلك الكائن الذى يأخذ المرء على حين غرة ويهاجمه كما لو كان من كمين بأحلام اليقظة وآلام الناب. وهكذا قضى روباشوف اليوم السابع من سجنه والثالث بعد إجراء التحقيق الأول معه فترة ماضية من حياته من جديد... وتحديدا فترة علاقته بالفتاة أرلوفا التى أطلقوا عليها النار.

وعلى الرغم من تصميمه وإصراره فقد استحال عليه فيما بعد استعادة اللحظة التى انزلق فيها إلى أحلام اليقظة كما يستحيل على المرء أن يحدد بعد نومه اللحظة التى ينزلق فيها إلى سباته. وفى صباح اليوم السابع بعد تدوين جانب من مذكراته انتصب واقفا ليمد ساقيه لبعض الوقت. ولم يشعر بأن النهار قد انتصف وبأنه قد قضى ساعات متواصلة فى السير جيئة وذهابا فى زنزانته، إلا حينما سمع صوت المفتاح يفتح القفل. كان قد لف البطانية حول كتفيه ربما لأنه كان يشعر لبضع ساعات برعشات منتظمة نتيجة نوع من القشعريرة، كما كان يشعر بنبض عصب الناب فى صدغه. ودون أن يشعر أكل بملعقته كل ما أفرغه موزعا الطعام بمغارفهما فى إنائه ثم واصل سيره. ولاحظ

السجان الذى كان يراقبه من الكوة من وقت إلى آخر أنه كان يحنى كتفيه وهو يرتعش، وأن شفتيه كانتا تتحركان.

مرة أخرى شم روباشوف رائحة مكتبه السابق فى الوفد التجارى، وقد ملأته رائحة مألوفة هى رائحة جسد أرلوفا البديع التكوين والمتراخى، ثم رأى مرة أخرى ثنايا رقبتها المحنية على قميصها الأبيض، هى تميل على كراستها بينما هو يملى عليها ما تكتب، وعيناها المستديرتان تتبعانه وهو يتجول فى الحجرة حينما يتوقف عن الإملاء.

كانت دائما ترتدى قمصانا بيضاء من النوع نفسه الذى كانت ترتديه أخوات روباشوف فى البيت؛ كانت قمصانها مطرزة بورد صغير أعلى الرقبة. كما كانت ترتدى دائما الأقراط الرخيصة نفسها التى كانت تتدلى بالقرب من وجنتيها كلما انحنت على كراستها، وكانت تبدو كأنها قد خلقت لهذا العمل بسبب بطئها وطريقتها السلبية، وكان لديها تأثير مهدئ غير عادى على أعصاب روباشوف حينما يكون مثقلا بالعمل. لقد تقلد منصبه الجديد كرئيس للوفد التجارى فى بلاد (ب) على الفور بعد لوى الصغير. فأغرق نفسه فى العمل. كان يشعر أولا بالامتنان تجاه اللجنة المركزية لأنها وفرت له هذا العمل البيروقراطى؛ إذ إنه كان من النادر جدا دخول البارزين فى الدولة الشيوعية إلى السلك الدبلوماسى، ومن المحتمل أن يكون رقم (١) ينتوى شيئا من إلحاقه بالسلك الدبلوماسى، هاتان الجهتان كانتا منفصلتين تماما ولا يسمح لهما

بالاتصال ، وفى بعض الأحيان كانا يتبعان سياسات متعارضة... هذا التعارض الظاهرى لم يحسم أو تتضح دوافعه إلا من خلال رؤيته من وجهة نظر الدوائر العليا المحيطة برقم (١).

كان روباشوف يحتاج لبعض الوقت، كى يتأقلم مع حياته الجديدة. وقد كان شيئا مسليا بالنسبة إليه أنه أصبح يمتلك الآن جواز سفر دبلوماسيا سليما يحمل اسمه، وتعين عليه حضور الاستقبالات بزيه الرسمى فيقف له رجال الشرطة فى حالة انتباه، فضلا عن أن حراسه من الرجال المتخفين من لابسى القبعات العالية السوداء، الذين يتبعونه فى بعض الأحيان فى روحاته وغدواته، كانوا يفعلون هذا من منطلق الحفاظ على سلامته فقط.

فى البداية كان روباشوف ينفر بعض الشىء من جو الغرف فى مقر الوفد التجارى التابع للمفوضية الدبلوماسية، وقد فهم من هذا الجو أنه يجب على المرء فى المجتمعات البورجوازية أن يكون ممثلا لبلاده، وأن يحذو حذو هذه المجتمعات ويلعب لعبتها، لكنه رأى أنه بالغ فى إجادة لعبة العالم البورجوازى إلى حد يصعب معه التفرقة بين الظاهر والحقيقة. كان السكرتير الأول للبعثة الدبلوماسية يقوم بتزوير النقود قبل الثورة لخدمة الحزب. وعندما لفت نظر روباشوف إلى ضرورة إجراء بعض التغيرات اللازمة فى هندامه، وفى طريقة معيشته ، فإنه لم يفعل ذلك بطريقة ودية ولطيفة وفكهة، بل فعله بكثير من التأكيد على أهمية الاعتبارات والكياسة لدرجة أحرجت روباشوف وأثارت أعصابه.

كان لروباشوف اثنا عشر مرءوسا كل منهم له رتبة محددة، فكان هناك المساعد الأول والمساعد الثانى وكاتب الحسابات الأول وكاتب الحسابات الثانى وسكرتيرون ومساعدو سكرتارية. كان يشعر بأنهم جميعا ينظرون إليه كشيء وسط بين البطل القومى ورئيس عصابة لصوص. فقد كانوا يعاملونه باحترام مبالغ فيه وبمنتهى السماحة، وحين تعين على سكرتير المفوضية رفع تقرير له عن وثيقة ما، بذل جهدا كى يعبر عن نفسه بأبسط الطرق. التى تستخدم مع شخص بدائى أو مع طفل. ولكن أرلوفا سكرتيرته الخاصة لم تكن تثير أعصابه كثيرا، ولكنه لم يكن يفهم لماذا ترتدى أحذية مثيرة للضحك ذات كعوب عالية، وجلد لامع مصقول مع قمصانها وجيباتها البسيطة اللطيفة.

مضى شهر تقريبا قبل أن يبدأ روباشوف فى التحدث معها بطريقة غير رسمية. فقد تعب من الإملاء ومن السير جيئة وذهابا فى الغرفة، وشعر فجأة بالسكون يخيم على الغرفة فسألها: لماذا لا تقولين شيئا على الإطلاق أيتها الرفيقة أرلوفا؟ ثم جلس على المقعد المريح خلف مكتبه. فأجابت بصوتها الناعس "إذا كنت ترغب فسأعيد دائما آخر كلمة من الجملة التى تمليها على".

كانت تجلس على مقعدها كل يوم أمام مكتبه وهى ترتدى قميصها المطرز مائلة بصدرها الممتلئ الجميل على كراستها، منحنية الرأس وأقراطها تتدلى على جانبى وجنتيها. وكان حذاؤها ذو الجلد اللامع

والكعب العالى هو الشىء الوحيد غير المنسجم مع جسمها، لكنها لم تكن تضع ساقا على ساق كما كانت تفعل معظم السيدات اللائى عرفهن روباشوف. وبينما يسير جيئة وذهابا فى أثناء إملائه عليها كان دائما يراها فى العادة من الخلف أو من الجانب، والشىء الذى يتذكره جيدا هو قوس عنقها المنحنى. ولم يكن الشعر الناعم الكثيف يغطى مؤخرة رأسها كما أنها لم تخلُ منه. وقد بدا جلدها الأبيض مشدودا على عمودها الفقرى، وكانت بعض الورود الصغيرة المطرزة تظهر على ياقة قميصها الأبيض، ولم يكن لروباشوف علاقات كثيرة بالنساء فى شبابه فقد كان معظمهن رفيقات فى الحزب، وفى العادة كانت بداية علاقته بهن تبدأ بمناقشة تطول لوقت متأخر من الليل فتجد الرفيقة نفسها قد تخلفت عن موعد آخر ترام يقلها إلى منزلها.

مرّ أسبوعان على هذه المحاولة الفاشلة لتبادل أطراف الحديث. وفى البداية كررت أرلوفا بصوتها الناعس الكلمة الأخيرة من الجملة، التى كان روباشوف يمليها عليها، ثم أقلعت عن ذلك. وحين توقف روباشوف عن الكلام ساد السكون الحجرة من جديد ورائحة عطر أرلوفا الأنثوى تملؤها.

وبعد ظهيرة أحد الأيام وقف روباشوف خلف مقعدها ولدهشته وجد نفسه يضع يديه برقة على كتفيها وسألها عما إذا كانت ترغب فى

الخروج معه فى المساء. لم تبد حراكا وظل كتفاها ثابتين تحت لمسة يديه فأومأت فى سكون دون أن تحرك رأسها.

لم تكن من عادة روباشوف أن يمزح باستخفاف وعبث، لكنه فى الليلة نفسها لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يقول لها مبتسماً: يخيل لى أنك ما زلت تكتبين ما يملى عليك.

كانت ملامح ثدييها الكبيرين البديعى الشكل تبدو مألوفة فى ظلام الحجرة، كما لو كانت موجودة على الدوام هناك، والآن كانت أقراطها ملقاة على الوسادة. كان لعينيها التعبير المعتاد نفسه، حينما نطقت تلك الجملة... ذلك التعبير الذى لم يفارق ذاكرة روباشوف منذ ذلك الحين مثلما لم يفارقها منظر اليدين المطويتين فى لوحة "الرحمة"، ورائحة أعشاب البحر فى مرفأ المدينة. قالت له أرلوفا فى خضوع: "تستطيع دائما أن تفعل معى ما يحلو لك".

سألها روباشوف بدهشة وبشىء من الذهول: "ولكن لماذا؟"، لكنها لم تجب؟ لأنه من المحتمل أن النعاس غلبها. كان تنفسها فى صحوها خافتا مثل تنفسها فى نعاسها، ولم يلاحظ روباشوف قط أنها تتنفس. فلم يكن قد رآها مغلقة العينين قط مما جعل وجهها يبدو غريبا عليه. فقد كان وجهها وهى مغمضة العينين أكثر تعبيرا منه حينما تكون مفتوحة العينين، وكان ظل أبطيها الداكن غريبا عليه أيضا، وكذلك ذقنها المائل على صدرها برز فى حدة بشكل نسوى مكتمل، ولكن العبير الأنثوى الخفيف الذى يفوح من جسدها كان مألوفا لديه حتى وهى نائمة.

في اليوم التالى وكذلك فى كل الأيام التالية كانت أرلوفا تجلس منحنية على مكتبها وهى ترتدى قميصها الأبيض. وفى الليلة التالية وأيضا فى كل الليالى التالية كان ظل صدرها الباهت يظهر على ستارة غرفة النوم المظلمة. وعاش روباشوف نهاره وليله فى جو جسدها الكبير الناعس. لم تتغير تصرفاتها مطلقًا فى أثناء العمل وظل صوتها كما هو، وكذلك تعبيرات عينيها التى لم تكن تنم عن شىء قط. ومن وقت إلى آخر عندما كان يشعر روباشوف بالتعب من الإملاء وقف خلف مقعدها ومال بيديه على كتفيها دون أن يتفوه بكلمة، فلم يتحرك كتفاها تحت القميص حتى يجد الكلمة التى كان يبحث عنها، فيستأنف تجواله فى الحجرة وهو يملى عليها. كان يضيف فى بعض الأحيان إلى ما يمليه بعض التعليقات المتهكمة فتتوقف عن الكتابة، وتنتظر والقلم فى يدها حتى ينتهى من تعليقاته التى لم تجعلها تبتسم قط. ولم يستطع روباشوف أن يكتشف تفكيرها بصدد هذه التعليقات إلا مرة واحدة فقط حينما قال ملحة خطيرة للغاية بشأن عادة شخصية معينة من عادات رقم (١)، فقالت فجأة بصوتها الناعس: "لا ينبغى أن تقول مثل هذه الأشياء أمام الآخرين. فمن الواجب عليك أن تكون فى غاية الحرص". لكن من وقت إلى آخر وخاصة حينما كانت تأتيه التعليمات والمنشورات من الجهات العليا كان يشعر برغبة فى التعبير عن هذا النوع من الملح والطرف المهرطقة.

كان الوقت قد حان للتجهيز للمحاكمة الثانية الكبرى للمعارضين فأصبح الجو فى المفوضية خانقا على نحو غريب، واختفت بين يوم وليلة الصور الفوتوغرافية والبورتريهات التى كانت معلقة على الجدران منذ عدة أعوام دون أن يلتفت إليها أحد، لكن الرقع الباهتة فى مكان الصور على الجدران أصبحت تجذب الأنظار الآن.. وبدأ أعضاء هيئة العاملين يقصرون حديثهم على الموضوعات الخاصة بالخدمات، وتحدث بعضهم إلى بعض بحرص وتحفظ مؤدب. وفى أوقات الطعام فى مقصف المفوضية حينما لم يكن هناك بد من تبادل الحديث التزموا باستخدام المصطلحات الرسمية التقليدية، والمتداولة التى بدت غير مريحة ومضحكة فى ذلك الجو الأليف. كما بدا كأنهم يرددون بصوت عال فيما بينهم الشعارات المجوجة، التى رفعها آخر مؤتمر للحزب فى بيانه الرسمى، أثناء جلوسهم إلى مائدة الطعام، وعندما يطلبون من أحد أن يناولهم الملاحة أو طبق المستردة. وغالبا ما احتج أحدهم على تفسير خاطئ لما قاله فيدعو الجالسين بجواره فى تعجب ظاهر أن يشهدوا على كلامه وهو يصيح: "لم أقل ذلك" أو "ليس هذا ما أقصده".

كان روباشوف يشعر أن كل شىء من حوله يشبه مسرحية الدمى المتحركة الغريبة والبهيجة، حيث يتحرك فيها الأشخاص بالخيوط وكل منهم يلقى الكلمات المنوط بها، لكن أرلوفا كانت الوحيدة التى ظلت كما هى لا تتغير بطريقتها الساكنة الناعسة، ولم تكن اللوحات على الجدران

هى فقط التى تمت إزالتها، بل أزيلت أيضا بعض الكتب والنشرات من رفوف المكتبة. وكان هذا يحدث فى العادة بعد تلقى رسائل وتعليمات جديدة من الجهات العليا. علق روباشوف ساخرا على اختفاء الكتب فى أثناء إملائه على أرلوفا، التى استقبلت تعليقاته فى صمت. وكانت معظم هذه الكتب المختفية، التى تتناول التجارة الخارجية والعملة من تأليف قوميسار الشعب للشئون المالية، الذى كان قد تم القبض عليه للتو واللحظة، وكذلك اختفت من الأرفف تقريبا جميع التقارير القديمة التى أصدرها مؤتمر الحزب والتى تعالج الموضوع نفسه... ومعظم الكتب ومراجع التاريخ الخاصة بأسلاف الثورة الأوائل ومعظم أعمال الكتاب الأحياء عن القانون والفلسفة، وكذلك كل النشرات التى تتعلق بمشكلات تحديد النسل والكتيبات الخاصة ببناء الجيش الشعبى والأبحاث الخاصة بالاتحادات التجارية وحق الإضراب فى دولة الشعب، وكل الدراسات تقريبا الخاصة بمشكلات الدستور السياسى، والتى مر عليها أكثر من عامين... حتى مجلدات دائرة المعارف التى نشرتها الأكاديمية... كلها اختفت من الرفوف على وعد بأن تصدر لها عن قريب طبعات جديدة منقحة. ووصلت أيضا كتب جديدة، وأضيف إلى كلاسيكيات علم الاجتماع حواشٍ وتعليقات جديدة، واستبدلت المؤلفات التاريخية القديمة بمؤلفات تاريخية جديدة، وكذلك استبدلت المذكرات القديمة لقادة الثورة الراحلين بمذكرات جديدة نسبت إلى الراحلين أنفسهم، قال روباشوف

لأرلوفا مازحا "لا ينقصهم الآن سوى أن يقوموا بنشر نسخ جديدة منقحة من جميع الجرائد القديمة.."(*) وفى الوقت نفسه بعد بضعة أسابيع صدرت الأوامر العليا بتعيين أمين مكتبة يتحمل المسئولية السياسية عن محتويات مكتبة المفوضية، وقد عينوا أرلوفا فى هذه الوظيفة. وفى البداية تمتم روباشوف بشىء عن (روضة الأطفال)، واعتبر الأمر كله نوعا من الحماقة والعبط، حتى ذلك المساء الذى هوجمت فيه أرلوفا بحدة من جانب عدة جهات فى الاجتماع الأسبوعى، الذى عقدته خلية الحزب الخاصة بالمفوضية. وقام أكثر من ثلاثة أو أربعة متحدثين ومن بينهم السكرتير الأول للحزب بالشكوى من أن بعض الخطب المهمة، التى ألقاها رقم (١) غير موجودة بالمكتبة. ومن جهة أخرى شكوا فى أن المكتبة لا تزال مليئة بالأعمال المناهضة، وأن الكتب التى كتبها السياسيون الذين افتضح أمرهم وعرفوا بأنهم جواسيس وخونة وعملاء لقوى أجنبية كانت لوقت قريب تحتل مكانا بارزا على الأرفف حتى أصبح من الصعب ألا يشك المرء فى تعمد إظهارها وعرضها.

لم يكن المتحدثون عاطفيين بل كانوا عمليين بدرجة كبيرة وقاطعة، فقد استخدموا عبارات مختارة بدقة، وبدوا كما لو كانوا يعطون بعضهم إشارات للبدء فى الإدلاء بنصوص تم تحضيرها من قبل، وكانت جميع

(*) لاحظ تأثر جورج أورويل بهذا فى روايته «١٩٨٤». (المترجم)

الكلمات تنتهى بأن مهمة الحزب الأولى هى أن يكون يقظا، ويشجب الانتهاكات بلا رحمة، ومن يتهاون فى هذه المهمة يعتبر شريكا للمخربين الأشرار. ثم دعيت أرلوفا لتلقى كلمة فقالت باتزانها المعتاد إنها أبعد ما تكون عن أية نوايا سيئة وأنها اتبعت جميع التعليمات التى وجهت إليها، لكن فى أثناء حديثها بصوتها العميق وغير الواضح بعض الشىء استقر نظرها لفترة طويلة على روباشوف، وهو الشىء الذى لم تكن تفعله قط فى حضور الآخرين. وانتهى الاجتماع بقرار توجيه إنذار شديد إلى أرلوفا.

شعر روباشوف بعدم ارتياح ؛ لأنه كان يعرف جيدا الطرائق التى استخدمها الحزب مؤخرا، فاستنتج أنهم يخبئون شيئا ما ضد أرلوفا وشعر بالعجز، لأنه لم يكن هناك شىء ملموس يمكن أن يحاربه أو يتصدى له.

أصبح الجو فى المفوضية أكثر اختناقا. وتوقف روباشوف عن التعليقات الشخصية فى أثناء الإملاء، مما أعطاه شعورا فريدا بالذنب. لم يكن هناك فيما يبدو تغير ظاهرى فى علاقته بأرلوفا، لكن هذا الشعور الغريب بالذنب النابع من أنه لم يعد يشعر بقدرته على إبداء التعليقات الطلية المازحة فى أثناء الإملاء منعه من الوقوف خلف مقعدها ومن وضع يديه على كتفيها كما كان يفعل من قبل. وبعد مرور أسبوع هجرت أرلوفا حجرته ذات ليلة ولم تأت إليها فى الليالى التالية أيضا، ومضت ثلاثة أيام حتى استطاع روباشوف أن يسألها عن السبب فقالت له بصوتها الناعس شيئا عن إصابتها بالصداع النصفى، فلم يضغط

عليها روباشوف أكثر من ذلك. ومنذ ذلك الحين لم تأت قط إلا مرة واحدة وبعد ثلاثة أسابيع من اجتماع خلية الحزب، الذى أصدر إليها الإنذار الشديد. وبعد توقفها عن زيارته بأسبوعين. كانت تتصرف كعادتها. ولكن روباشوف كان يشعر طوال الليلة أنها تنتظر منه أن يقول شيئا حاسما. ولكن الشىء الوحيد الذى قاله هو أنه سعيد على أى حال بعودتها، وأنه مثقل بالعمل ومتعب. وقد كان فعلا كذلك. لاحظ روباشوف فى الليل عدة مرات أنها مستيقظة تحملق فى الظلام، ولم يستطع التخلص من ذلك الإحساس المعذب بالذنب، كما أن نابه بدأ يؤلمه من جديد، وقد كانت هذه هى آخر مرة تزوره فيها.

وفى اليوم التالى وقبل أن تأتى أرلوفا إلى مكتبه قال السكرتير لروباشوف بطريقة من المفترض أن تكون سرية وخاصة جدا، لكنها فى الوقت نفسه متقنة الصياغة، إنه قد تم القبض "هناك" على أخ أرلوفا وزوجة أخيها منذ أسبوع.

كان أخو أرلوفا قد تزوج من أجنبية فاتهموه وزوجته بأن لهما اتصالات مشبوهة مع بلدها لحساب المعارضة، وبعد ذلك بدقائق حضرت أرلوفا للعمل وجلست كالعادة على مقعدها أمام المكتب وهى ترتدى قميصها المطرز منحنية قليلا إلى الأمام. ظل روباشوف يسير جيئة وذهابا خلفها وكان ينظر طوال الوقت على رقبتها المنحنية ذات البشرة المشدودة بعض الشىء على عظام رقبتها. لم يستطع أن يحيل النظر عن

هذا الجزء من رقبتها، وشعر بعدم ارتياح بلغ حد الانزعاج البدنى. ولم يفارقه التفكير فى أن من تثبت إدانته "هناك" يطلقون الرصاص على رقبته من الخلف.

وفى الاجتماع التالى لخلية الحزب فصلت أرلوفا من وظيفتها كأمينة مكتبة بناء على طلب السكرتير العام، لأنها غير جديرة بالثقة السياسية، فلم يعلق أحد على ما حدث ولم تكن هناك مناقشة، أما روباشوف الذى كان نابه يعانى ألما حادا يكاد أن يكون غير محتمل فقد استأذن منصرفا من الاجتماع، وبعد ذلك ببضعة أيام استدعيت أرلوفا للاستجواب وكذلك عضو آخر من هيئة العاملين فلم يعد زملاؤهما السابقون ينطقون اسميهما، لكن خلال الأشهر التى قضاها روباشوف فى المفوضية قبل أن يستدعى هو نفسه للاستجواب كان العبير الأنثوى لجسدها الممتلئ المتكاسل يلتصق بجدران غرفته ولا يفارقها أبدا.

(٤)

"انهضوا يا أشقياء الأرض"

منذ صباح اليوم العاشر، بعد القبض على روباشوف، وجاره الجديد من جهة اليسار، الذى يشغل الزنزانة رقم (٤٠٦) يدق هذه الكلمات على فترات متقطعة منتظمة، ودائما بالخطأ الهجائى نفسه فى

كلمة "انهضوا". حاول روباشوف عدة مرات عن طريق النقر على الجدران أن يبدأ حديثًا معه، فكان الرجل ينصت إلى نقراته طوال الوقت فى صمت، لكن الرد الوحيد الذى تلقاه روباشوف عبارة عن صف من الحروف غير المترابطة، التى تنتهى دائما بالمقطع الذى يشوهه الخطأ نفسه: "انهضوا يا أشقياء الأرض".

كان الجار الجديد قد أودع فى الزنزانة فى الليلة السابقة، فاستيقظ روباشوف وقتها لكنه لم يسمع سوى أصوات مكتومة وصوت إغلاق الزنزانة رقم (٤٠٦) على نزيلها. وفى الصباح بعد نوبة النفخ فى النفير الأولى بدأ رقم (٤٠٦) على الفور فى دق عبارته: "انهضوا يا أشقياء الأرض". نقر على جدار الزنزانة بسرعة ورشاقة وبمهارة العازف الفنان، فالخطأ الهجائى وكذلك عدم احتواء رسالته على معنى لا يرجع إلى قصور تقنى، بل إلى أسباب عقلية وبات من المرجح أن جاره الجديد مختل العقل.

أعطى الضابط الصغير الذى كان نزيلا بالزنزانة رقم (٤٠٢) إشارة بعد الإفطار بأنه يريد التحدث إلى روباشوف، فقد توطدت بينهما علاقة صداقة. من المرجح أن الضابط ذا النظارة والشارب المبروم كان يعيش فى ملل مستمر؛ لأنه شعر بامتنان دائم لروباشوف لفتات الكلمات التى يتبادلها معه بالشفرة، ولهذا كان يتوسل إلى روباشوف فى ذل ما لا يقل عن خمس أو ست مرات يوميا قائلا: "تحدث إلى..."، لكن من

النادر أن مزاج روباشوف شجعه على تبادل الحديث. كما أنه لم يكن يعلم ما يتحدث فيه على وجه التحديد مع نزيل الزنزانة رقم (٤٠٢)، وفى العادة كان هذا السجين يدق طرائف تقليدية مألوفة تحدث فى قاعة طعام الضباط. وحينما يصل بالحديث إلى نهايته يسود صمت مؤلم.

كما كانت هذه الطرائف القديمة التى عفا عليها الزمن عبارة عن حكايات تقليدية بذيئة حول نظم الحكم السلطوى، وبعد أن يفرغ رقم (٤٠٢) من دقها بأكملها كان يتوقع سماع قهقهة روباشوف، ثم يحملق بخيبة أمل فى الجدران البيضاء الخرساء، وفى بعض الأحيان كان روباشوف من باب الشفقة والأدب يدق بنظارته "هاها" بصوت عال كبديل للضحك، لم يكن هناك ما يوقف رقم (٤٠٢) عند ذلك الحد بل كان ينطلق فى مرح صاخب يعبر عنه عن طريق الدق على الحائط بقبضتيه وحذائه الطويل الرقبة "هاها. هاها"، ثم يتوقف كثيرا ليتأكد من أن روباشوف يشاركه الضحك، وإذا سكت روباشوف عاتبه بقوله "أنت لم تضحك". أما إذا دق روباشوف" "هاها" مرة أو اثنين ليدرأ عن نفسه الإزعاج يقول النزيل رقم (٤٠٢) له بعد ذلك: "يا له من مرح ممتع حقا".

وفى بعض الأحيان كان رقم (٤٠٢) يسب روباشوف. وفى كثير من الأحيان الأخرى عندما لا يتلقى من روباشوف ردا يدق نشيدا عسكريا بأكمله يحتوى على عدد لا ينتهى من الأبيات. وفى أحيان أخرى عندما يكون روباشوف فى زنزانته مشغولا بالسير جيئة وذهابا أو مستغرقا فى أحلام اليقظة أو التأمل نراه يبدأ فى الترنم بمارش عسكرى قديم استوعبته أذنه بطريقة لا شعورية.

ومع هذا فقد وجد روباشوف السجين رقم (٤٠٢) مفيدا؛ لأنه قضى فى زنزانته أكثر من عامين عرف فيهما قواعد الاتصال بنزلاء الزنزانات الأخرى. كان على اتصال بالعديد من الجيران، كما كان يسمع كل الإشاعات ويبدو عليما بكل ما يحدث فى مبنى السجن.

وحينما بدأ النزيل رقم (٤٠٢) حديثه المعتاد فى الصباح بعد وصول السجين الجديد رقم (٤٠٦) سأله روباشوف عما إذا كان يعرف جاره الجديد فأجاب: "إنه ريب فان وينكل"(*).

كان رقم (٤٠٢) يهوى التحدث بالأحاجى والألغاز، كى يضفى على الحديث جوا من الإثارة. أخذ روباشوف يقلب فى ذاكرته فتذكر قصة الرجل الذى نام لمدة خمسة وعشرين عاما، وحينما استيقظ وجد عالما مغايرا للعالم الذى يعرفه، فسأل روباشوف: "هل فقد ذاكرته؟". فاكتفى رقم (٤٠٢) بما أثاره فى نفس روباشوف من فضول، ثم روى له كل ما يعرفه.

كان رقم (٤٠٢) يعمل فى يوم من الأيام مدرسا لعلم الاجتماع فى دولة صغيرة فى جنوب شرق أوربا، وعند نهاية الحرب الأخيرة شارك فى الثورة التى اندلعت فى بلاده مثلما حدث فى معظم دول أوربا فى ذلك الحين. وأقام الثوار كميونا (نظاما شيوعيا) لم يدم وجوده الرومانسى

(*) شخصية روائية مشهورة فى الأدب الأمريكى على غرار شخصيات أهل الكهف. (المترجم)

إلا بضعة أسابيع، ثم انتهى بعد ذلك النهاية الدموية المعتادة. كان قادة هذه الثورة من الهواة الذين سرعان ما تحولوا إلى محترفى قمع واضطهاد من الطراز الأول، وحكموا على رقم (٤٠٦) (الذى قلده الكميون منصباً رفيع المستوى هو وزير الدولة لتنوير الشعب) بالإعدام شنقا، وظل الرجل ينتظر لمدة سنة كاملة تنفيذ حكم الشنق عليه، لكنهم خففوا الحكم إلى السجن مدى الحياة، قضى منه عشرين عاما بين جدران السجن.

مضت عشرون عاما معظمها فى حبس انفرادى دون أن يسمحوا له بالاتصال بالعالم الخارجى أو بقراءة الجرائد، وهكذا أصبح الرجل نسيا منسيا. ولا يزال مسار العدل فى هذا البلد الواقع فى الجنوب الشرقى ذا طابع سلطوى، ثم تم الإفراج عنه فجأة منذ شهر بعفو عام.

ووجد ريب فان وينكل نفسه بعد أكثر من عشرين عاما من النوم والظلام يخطو على الأرض من جديد فركب أول قطار إلى هنا... إلى أرض الأحلام. وبعد أربعة عشر يوما من وصوله ألقى القبض عليه. ربما أصبح كثير الكلام نتيجة الحبس الانفرادى لمدة عشرين عاما، وربما لأنه أفصح للناس عن تخيلاته لما سوف تكون عليه الحياة فى البلاد وهو ليل نهار رهين الزنزانة. أو ربما لأنه سأل عن عناوين أصدقائه القدامى أبطال الثورة دون أن يعلم أن الثورة اعتبرتهم خونة وجواسيس، أو ربما لأنه وضع إكليلا من الزهور على قبر خطأ أو تمنى أن يزور جاره الشهير الرفيق روباشوف.

والآن يستطيع أن يسأل نفسه أيهما أفضل: عشرون عاما من الأحلام على أرضية زنزانة مظلمة أم أسبوعان من الحقيقة في وضح النهار، ومن المحتمل أن الرجل قد فقد ذاكرته... هذه هي قصة ريب فان وينكل.

وبعد أن دق السجين رقم (٤٠٢) تقريره الطويل بدأ ريب فان وينكل يدق عبارته الشائهة "انهضوا يا أشقياء الأرض"، وكررها خمس أو ست مرات ثم سكت عن الدق، واستلقى روباشوف على سريره المعلق وأغمض عينيه.

بدأ روباشوف بالخيال النحوي، لكن هذا الخيال لم يعبر عن نفسه بالكلمات، بل بمجرد شعور غامض بعدم الارتياح يشعره بأنه يجب عليه أن يكفر أيضا عما فعله، ويتحمل المسئولية ولأنه أيضا أتي بالفعل بينما كان الرجل يحلم.

وبعد الظهيرة نفسها أخذوا روباشوف لحلق شعره وذقنه. وكان الموكب في هذه المرة يتكون من السجان المسن، الذي كان يجر قدميه متقدما على روباشوف بخطوتين بينما كان الحارس يسير خلفه بخطوتين، ومروا على باب الزنزانة رقم (٤٠٦)، الذي لم يكن يحمل بعد البطاقة الدالة على هوية السجين. وفي حانوت الحلاق لم يكن هناك سوى سجين واحد من السجينين اللذين يديران الحانوت. وبات من الواضح أنهم كانوا يحرصون على ألا تكون لروباشوف اتصالات كثيرة.

جلس روباشوف على المقعد ذى الذراعين؛ حيث كان المكان نظيفا نسبيا، وكانت هناك مرآة، فخلع نظارته وحملق فى وجهه فى المرآة، لكنه لم يجد أى تغيير إلا الشعر القصير الذى ظهر على وجنتيه. أخذ الحلاق يعمل فى صمت وسرعة وعناية، وظل باب المحل مفتوحا وكان السجان قد غادر المكان. أما الحارس الذى يرتدى الزى الرسمى فقد وقف متكئا على قائم الباب يرقب الموقف، وجعلت رغوة الصابون الفاترة روباشوف يشعر بالسعادة، كما نفثت فيه شيئا من الإغراء والحنين للمباهج البسيطة فى الحياة. كان يود أن يتحدث إلى الحلاق، لكنه كان يعلم أن ذلك ممنوع. ولم يكن روباشوف يود أن يسبب أى متاعب للحلاق الذى راق له وجهه العريض الصريح. ومن التطلع إلى ملامح وجهه فكر روباشوف أنه يصلح لأن يكون ميكانيكيا أو صانع أقفال. وحينما فرغ الحلاق من وضع رغاوى الصابون وبعد تمرير الموسى على وجهه لأول مرة سأله الحلاق إذا كان الموسى قد خدشه، مخاطبا إياه بقوله "المواطن روباشوف". كانت هذه هى العبارة الأولى التى وصلت إلى مسامع روباشوف منذ دخوله الحانوت. وعلى الرغم من أن صوت الحلاق كان طبيعيا، فإن هذا الصوت اكتسب مغزى خاصا، ثم ساد الصمت من جديد وأشعل الحارس الواقف بالباب لفافة تبغ.

شذب الحلاق لحية روباشوف ورأسه بحركات سريعة ودقيقة. وبينما كان يقف منحنيا فوق روباشوف نظر روباشوف إلى عينيه للحظة، وفى

اللحظة نفسها دس الحلاق أصبعيه تحت ياقة روباشوف، كما لو كان يرغب فى الوصول إلى شعر رقبته بسهولة ثم أخرجهما، فأحس روباشوف بورقة صغيرة مكورة تدغدغه تحت الياقة. وبعد بضع دقائق انتهت عملية الحلاقة وعاد روباشوف إلى زنزانته. جلس على سريره وعينه على الكوة ليتأكد من أنه غير مراقب، ثم أخرج قطعة الورق المكورة ففردها وقرأها، كانت تحتوى على ثلاث كلمات فقط يبدو أنها قد كتبت بسرعة هائلة "مت فى صمت".

ألقى روباشوف قطعة الورق فى الدلو وبدأ من جديد فى تجواله، فقد كانت هذه هى أول رسالة تصله من العالم الخارجى، وحينما كان مسجونا فى بلاد الأعداء كان العديد من الرسائل يهرب إليه من الخارج تطلب منه أن يرفع صوته ويحتج ويرد الاتهام إلى متهميه. وتساءل روباشوف هل هناك نقاط تحول فى التاريخ لا تتطلب من الثورى غير شىء واحد هو: الموت فى صمت؟ وهل الموت فى صمت الشىء الوحيد الذى يعتبر صوابا؟ •

قطع النزيل رقم (٤٠٢) على روباشوف حبل أفكاره، وأخذ يدق من جديد بعد عودة روباشوف مباشرة إلى زنزانته، فقد كان (٤٠٢) يتحرق فضولا ليعرف إلى أين أخذوا روباشوف الذى أجابه قائلا: "لأحلق".

دق رقم (٤٠٢) بإشفاق وشعور حاد "كنت أخشى أن يصيبك ما هو أسوأ من ذلك"، فرد عليه روباشوف: "أنتم السابقون ونحن اللاحقون".

كالعادة كان رقم (٤٠٢) مستمعا شكورا فقهقه: "هاها.. يا لك من عفريت". ومن الغريب أن هذه المجاملة البالية ملأت روباشوف بالرضا، وكان يحسد رقم (٤٠٢) الذى تحكم طبقته مجموعة من قواعد الشرف والأخلاق الصارمة، التى تحدد لأبنائها كيف يعيشون وكيف يموتون، قواعد يمكن للمرء الاستمساك بها. أما بالنسبة لمن على شاكلة روباشوف فلا توجد قاعدة ملزمة، بل يجب الاهتداء إليها بإعمال العقل فى كل شىء، حتى الموت لم يكن له أصول وقواعد تحدد أيهما أشرف: أن يموت المرء فى صمت أو أن يذل نفسه علنا كى يتمكن من الوصول إلى أهدافه. لقد ضحى بأرلوفا لأن وجوده كان أعظم قيمة بالنسبة للثورة.

كانت هذه هى المحاجة الحاسمة التى استخدمها أصدقاؤه فى إقناعه. إن حفاظ المرء على ذاته كذخيرة فى المستقبل أهم بكثير من وصايا وأحكام الأخلاقيات البورجوازية التافهة، فبالنسبة لهؤلاء الذين غيروا وجه التاريخ لم تكن هناك مهمة أخرى غير البقاء هنا على أهبة الاستعداد. لقد كانت أرلوفا تقول له: "باستطاعتك أن تفعل بى ما تشاء" وقد فعل. لماذا يقيم لنفسه وزنا أو اعتبارا أكبر من سواه؟!

لقد اقتبس عنه إيفانوف قوله: "إن العقد القادم سوف يحدد مصير عصرنا"، فهل يخلق به الفرار والتخلى عن واجبه لمجرد اشمئزازه من

نفسه والإنهاك والغرور؟ وماذا يكون الحال لو صح أن رقم (١) على حق؟

ماذا لو أرسيت الأسس الشامخة للمستقبل هنا بين القذارة والدماء والأكاذيب فى نهاية الأمر، وعلى الرغم من كل شىء؟

ألم يكن التاريخ دائما أشبه بعامل بناء عديم الضمير والإنسانية يصنع بلاطه من خليط من الأكاذيب والدماء والوحل؟

"مت فى صمت... انزو فى الظلام..."

توقف روباشوف فجأة عند البلاطة السوداء الثالثة من ناحية الشباك. لقد سمع نفسه يردد الكلمات "مت فى صمت..". قالها عدة مرات بنغمة ساخرة مستنكرة كما لو كان يؤكد عبثها ولا معقوليتها التامة.

لقد فطن الآن فقط إلى أن قراره برفض عرض إيفانوف عليه لا يحظى فى نفسه بنصف الرسوخ والإصرار الذى كان يتصوره.

والآن أصبح الشك يساوره فيما إذا كان حقا ينوى رفض عرض إيفانوف والرحيل عن مسرح الحياة دون أن ينبس ببنت شفة.

(٥)

وهكذا استمر مستوى روباشوف المعيشى فى التحسن، وفى صبيحة اليوم الحادى عشر أخذوه لأول مرة إلى الفناء للتريض.

أحضر السجان المسن روباشوف بعد الإفطار بقليل، وكان بصحبته الحارس نفسه الذى كان قائما على حراسة المجموعة، التى أخذته إلى الحلاق، وقال السجان لروباشوف إنه من حقه اعتبارا من هذا اليوم التريض فى الفناء لمدة ثلث ساعة يوميا، ثم انضم روباشوف إلى الطابور الذى بدأ بعد الإفطار، ومضى السجان فى سرد التعليمات:

"الحديث فى أثناء السير مع زميلك الذى بجوارك أو مع أى سجين آخر ممنوع، وكذا تبادل الإشارات والرسائل المكتوبة والخروج عن الصف.. وأى خروج عن اللوائح سوف يعاقب مرتكبه بالحرمان من ميزة التريض فى الحال. أما المخالفات الجسيمة للنظام فعقوبتها الحبس لمدة تصل إلى أربعة أسابيع فى زنزانة مظلمة"؛ ثم أغلق السجان بعنف باب زنزانة روباشوف بجذبه من الخارج. وبدأ الثلاثة (روباشوف والسجان والحارس) مسيرتهم، وبعد خطوات قليلة توقف الحارس وفتح باب النزيل رقم (٤٠٦).

وتمكن روباشوف، الذى كان يقف بجوار الحارس ذى البزة الرسمية بعيدا بعض الشىء من باب الزنزانة، من رؤية ساق ريب فان وينكل الراقد على فراشه بحذائه الأسود المربوط ذى الرقبة العالية وبنطلونه ذى النقوش المربعة، الذى كان باليا من أطرافه السفلى، وإن كان لا يزال يعطى انطباعا يوحى بالجدة والنظافة. ومضى السجان مرة أخرى فى سرد اللوائح ، حتى تدلت ساقا ريب فان وينكل المترنحتان

المكسوتان بالبنطلون ذى النقوش المربعة من فوق مضجعه، وبعد قليل ظهر الرجل المسن الضئيل الحجم فى المدخل بعينين طارفتين ووجه غير حليق من الشعر الأشيب.

وكان يرتدى مع بنطلونه المثير سترة سوداء معلق فيها سلسلة معدنية للساعة، ومعطفًا أسود، ووقف فى المدخل يرمق روباشوف بنظرات حب الاستطلاع، ثم أومأ إليه فى تودد، ومضى الأربعة فى طريقهم. ولقد توقع روباشوف أن يرى شخصا مختل العقل ولكنه غير رأيه بعد أن رآه. وعلى الرغم من الاهتزاز العصبى الذى اعترى حاجبى ريب فان وينكل، ربما بسبب السنوات التى قضاها حبيسا فى زنزانة مظلمة، إلا أن عينيه كانتا صافيتين ولهما مظهر ودى وطفولى. وبينما كان الرجل يسير بشىء من المشقة بخطوات قصيرة وثابتة تعثرت قدماه فجأة، وكاد أن يسقط لولا أن الحارس أمسك بذراعه فى الوقت المناسب.

وغمغم ريب فان وينكل فى صوت خفيض بكلمات لم تصل إلى سمع روباشوف، لكنها عبرت بوضوح عن شكره بأسلوب مهذب، وابتسم الحارس ببلاهة.

ثم دخل الجميع من البوابة المفتوحة المؤدية إلى الفناء، حيث اصطف بقية السجناء فى طابور ثنائى الصف، وانطلقت من وسط الفناء، حيث يقف الحارس، صفارتان قصيرتان، وبدأت فترة التريض.

كانت السماء صافية يشوب زرقتها شحوب لافت للنظر، وكان الهواء معبأ برائحة الثلوج البلورية، وارتعد روباشوف الذى فاته أن يحضر معه بطانية، أما ريب فان وينكل فقد وضع حول كتفيه غطاء رماديا باليا زوده به السجان عند دخول الفناء. ومشى فى هدوء إلى جانب روباشوف بخطوات قصيرة ثابتة وعيناه تطرفان كلما نظر إلى أعلى بين الحين والحين، ليرى زرقة السماء المائلة إلى الشحوب. وسقطت البطانية الرمادية اللون إلى ركبتيه وهى تحيط بهما كأنهما ناقوس. واستدل روباشوف على نافذة زنزانته وسط النوافذ ووجدها كغيرها مظلمة وقذرة إلى درجة لا يستطيع المرء معها رؤية ما وراء النافذة. وعلق روباشوف بصره لفترة ما على نافذة النزيل رقم (٤٠٢)، لكنها كانت كنافذته لا تكشف إلا عن شراعة معتمة عليها قضبان تخفى ما وراءها. لم يسمح للنزيل رقم (٤٠٢) بالخروج للتريض، كما أنهم لم يأخذوه إلى الحلاق ولا حتى للفحص الطبى. لم يسمع روباشوف صوت زنزانته تفتح ليخرج منها أبدا. وأخذ النزلاء يمشون فى سكون متخذين شكل حلقات تدور ببطء حول الفناء، وتحركت شفتا ريب فان وينكل بشكل يكاد يكون غير ملحوظ، وأخذ يهمس لنفسه بشىء لم يفهمه روباشوف فى البداية، ثم تبين له أن العجوز كان يغمغم منشدا: انهضوا يا أشقياء الأرض، لم يكن الرجل مجنونا ولكن سبعة آلاف يوم وليلة فى السجن جعلت منه بالطبع نمطا فريدا إلى حد ما. وظل روباشوف يراقبه بنظرات جانبية

محاولا أن يتصور ما الذى يعنيه انقطاع المرء عن العالم طيلة عقدين من الزمان، فالسيارات منذ عشرين سنة كانت نادرة وذات أشكال غريبة. ولم تكن هنا فى هذا الوقت اتصالات لاسلكية، كما كانت أسماء الزعماء السياسيين فى أيامنا الراهنة غير معروفة آنذاك. ولم يكن يخطر على بال أحد التحركات الجماهيرية الجديدة والمنعطفات السياسية الكبرى، والطرائق الملتوية والمراحل المحيرة التى قدر لدولة الثورة أن تمر بها. فقد كان يخيل للمرء فى ذلك الحين أن أبواب الجنة مفتوحة، وأن الجنس البشرى يقف على أعتابها.

لقد وجد روباشوف أنه لا يستطيع مهما ذهب بخياله كل مذهب أن يتصور حالة جاره العقلية، رغم كل ما مارسه من فنون "التفكير من خلال عقول الآخرين".

فقد كان بإمكانه أن يمارس ذلك دون جهد يذكر من خلال إيفانوف ورقم (١)، وحتى من خلال الضابط ذى النظارة الأحادية العدسة، لكنه فشل فى حالة ريب فان وينكل وأصابه الإخفاق، ونظر إليه روباشوف نظرة جانبية، وكان الرجل العجوز قد أدار رأسه نحوه مبتسما وممسكا ببطانيته المسدلة على كتفيه بكلتا يديه، ويمشى بجانبه بخطواته القصيرة، مغمغما بصوت لا يكاد يسمع لحن أنشودة:

"انهضوا يا أشقياء الأرض".

ولما اقتيد النزلاء مرة أخرى ليعودوا إلى المبنى استدار العجوز مرة أخرى عند باب زنزانته وأومأ برأسه إلى روباشوف، وومضت عيناه فى تغير مفاجئ يعبر عن الفزع واليأس. واعتقد روباشوف أن الرجل يوشك أن يناديه إلا أن السجان كان قد صفق باب الزنزانة رقم (٤٠٦).

وحينما أغلقت على روباشوف زنزانته اتجه فى الحال إلى الحائط، لكن ريب فان وينكل كان صامتا ولم يستجب لدقاته على الجدران، أما رقم (٤٠٢) الذى كان ينظر إلى السجناء من النافذة فقد كان يرغب فى معرفة كل شىء عن فترة التريض بما فى ذلك أصغر التفاصيل وأدقها.

وكان على روباشوف أن يخبره عن الرائحة التى كان الهواء معبأ بها، وعن الجو: بارد هو أم قارس البرودة؟ وهل قابل سجناء آخرين فى الرواق، وهل استطاع بعد كل هذا أن يتبادل كلمات قليلة مع ريب فان وينكل؟

وقد أجاب روباشوف بصبر عن كل تلك الأسئلة، لأنه كان يشعر بأنه مميز عن النزيل رقم (٤٠٢)، الذى لم يكن يسمح له بالخروج قط. كان روباشوف يرثى له ، بل إنه كان ينتابه ما يشبه الشعور بالذنب تجاهه.

وفى اليومين التاليين أُخرج روباشوف بعد الإفطار فى الموعد نفسه للنزهة اليومية وكان ريب فان وينكل يرافقه دوما فى جولته. وكانا يدوران

جنبا إلى جنب فى بطء وقد تدثر كل منهما ببطانية يلف بها كتفيه، ويمضيان فى صمت وقد استغرق روباشوف فى تفكيره لينظر بين الحين والآخر بتمعن من خلال نظارته إلى سائر السجناء أو إلى نوافذ المبنى، أما ريب فان وينكل العجوز، بشعر لحيته غير الحليق وابتسامته الطفولية الرقيقة، فكان يغمغم بأنشودته الأبدية.

وحتى جولتهما الثالثة معا، فإنهما لم يتبادلا كلمة واحدة على الرغم من أن روباشوف لم يلحظ أية محاولة من جانب المسئولين لفرض قاعدة التزام الصمت عليهما، ورغم أن سائر الزملاء فى الصف كانوا يتحدثون – كل مع جاره – بلا توقف، وبينما كان السجناء يتخاطبون كانوا ينظرون فى صرامة إلى الأمام مستخدمين أسلوب السجون المألوف لدى روباشوف، وهو الحديث دون تحريك الشفتين قدر المستطاع.

وفى اليوم الثالث أحضر روباشوف معه القلم الرصاص والكراس، الذى كان يتدلى من جيبه الخارجي الأيسر. ولما لاحظ العجوز ذلك بعد عشر دقائق، لمعت عيناه ونظر سرا إلى السجانين، الذين توسطوا الدائرة وكانوا يديرون دفة الحديث فى حيوية، ولم يكن يبدو عليهم أى اهتمام بالسجناء ثم جذب ريب فان وينكل الكراس على عجل من جيب روباشوف وأخذ يخط شيئا مستترا بغطائه الذى كان يحيط به كالناقوس. وانتهى من ذلك سريعا واقتطع الورقة من الكراس ووضعها

فى يد روباشوف واحتفظ بالكراس والقلم ليستمر فى شخبطته. ولما تأكد روباشوف من أن الحرس لا يعيرونه هو وصاحبه أى اهتمام، نظر إلى الورقة التى لم يكن عليها شىء مكتوب ، بل كان عليها رسم جغرافى قد خط بدقة مذهلة للبلد الذى يعيشان فيه. وكان الرسم يوضح المدن الرئيسية والجبال والأنهار وفى وسطه علم يحمل رمز الثورة. ولما قطعا نصف الطريق فى جولة أخرى قام رقم (٤٠٦) بانتزاع ورقة أخرى ووضعها فى يد روباشوف، وكانت الورقة تحوى خريطة مماثلة لبلاد الثورة، ونظر رقم (٤٠٦) إلى روباشوف مبتسما وانتظر نتيجة عمله. وشعر روباشوف بقليل من الحرج بسبب نظرة زميله المحملقة وغمغم بشىء يعبر عن تقديره. وغمز العجوز بعينه نحوه قائلا: "باستطاعتى أن أفعل ذلك وأنا مغمض العينين أيضا". فأومأ روباشوف برأسه. وقال العجوز مبتسما: "إنك لا تصدقنى، لكنى عكفت على ممارسة هذا العمل لمدة عشرين سنة".

ونظر الرجل سريعا إلى الحرس، وأغمض عينيه وبدأ يرسم فى صفحة جديدة دون أن يغير من سرعة خطوته ,وقد اتخذ من غطائه الشبيه بشكل الناقوس ستارا، وكان قد أحكم غلق عينيه رافعا بجمود ذقنه إلى أعلى كالكفيف. ونظر روباشوف إلى الحرس فى قلق؛ خشية أن يتعثر العجوز أو يسقط خارج الصف، لكن الرسم اكتمل مع انتهاء النصف الثانى من الجولة، وكان يشبه سائر الرسومات فى دقته رغم أنه

أكثر رجرجة منها بعض الشيء. وكان الرمز المرسوم على العلم كبيرا إذا قيس ببقية الرسم. وابتسم رقم (٤٠٦) لروياشوف فى سعادة وهمس إليه قائلا: "هل تصدقنى الآن؟". وأومأ روباشوف مؤمنا على كلامه. واكفهر وجه العجوز ولاحظ روباشوف تعبير الخوف يعاود وجه الرجل فى كل مرة تغلق عليه الزنزانة، وهمس إلى روباشوف قائلا: "لا حيلة لى فيما يعترينى فقد وضعتنى المقادير فى قطار غير قطارى".

وسأله روباشوف: "ماذا تعني؟"

ابتسم له ريب فان وينكل فى حزن رقيق وقال هامسا:

"لقد أخذونى إلى محطة غير محطتي عندما رحلت، وظنوا أنى لم ألاحظ، فلا تخبر أحدا أنى أعلم ما فعلوه بي". وأشار إلى الحرس بطرف عينه.

وهز روباشوف رأسه، ولم يمض إلا القليل حتى انطلقت صفارة تعلن عن نهاية فترة التريض، وعند البوابة قضى الرجلان دقيقة أخرى دون رقابة. وبدت عينا (رقم ٤٠٦) صافيتين ودودتين من جديد، وسأل روباشوف بإشفاق قائلا: "ربما حدث لك الشيء نفسه".

فأومأ روباشوف برأسه، ثم قال ريب فان وينكل مشيرا إلى الخريطة المكرمشة التى أطبقت عليها يد روباشوف: "يجب على المرء ألا يفقد الأمل؛ لأنه سيأتى اليوم الذى نصل فيه جميعا رغم كل شيء"، ثم

أعاد القلم والكراس إلى جيب روباشوف، وعلى الدرج عاد إلى همهمة لحن نشيده الأبدى.

(٦)

انتهى وقت توزيع الطعام فى اليوم السابق على موعد انتهاء المهلة، التى حددها إيفانوف. وخامر روباشوف شعور بأن فى الأفق حدثا غير عادى. ولم يكن باستطاعته تفسير ذلك الشعور. وكالعادة وزع الطعام فى تقتير. وانطلق صوت النفير الكئيب فى الموعد المحدد له تماما، ومع ذلك بدا لروباشوف أن هناك شيئا يدعو إلى القلق فى الأفق. ربما كان ذلك نتيجة لأن أحد جنود المراسلة نظر إليه نظرة ذات مغزى لم يعتد عليها، أو ربما كان لصوت السجان العجوز وقع غريب؟ لم يكن روباشوف يدرى، لكنه كان غير قادر على العمل، وكان يشعر باضطراب يعصف بأعصابه، كأنه مريض بالروماتيزم يتعرض لهبوب عاصفة.

ولما سكنت النوبة الأخيرة للنفير، اختلس روباشوف نظرة إلى الممر فوجد المصابيح الكهربائية تضىء بنصف قوتها؛ لضعف التيار الكهربائى، ملقية بضوئها الخافت على بلاط الأرضية. وبدا سكون الممر ثقيلا بائسا أكثر من ذى قبل. واستلقى روباشوف على مضجعه، ثم نهض ثانية وحمل نفسه على كتابة سطور قليلة، وأطفأ لفافة التبغ ليشعل أخرى. ونظر إلى الفناء وشاهد ذوبان الجليد الذى أصبح متسخا وناعما، أما السماء فكانت ملبدة بالغيوم. وكان الحارس يمشى أمام الشرفة المقابلة ممتشقا سلاحه جيئة وذهابا. ونظر روباشوف من ثقب

الباب إلى المدخل مرة أخرى، ليرى السكون والكآبة وضوء المصابيح الكهربية.

وبدأ روباشوف على غير عادته حديثا مع السجين رقم (٤٠٢) رغم تأخر الوقت ودق له على الحائط عبارة: "هل أنت نائم"؟ ولم يسمع إجابة لفترة ما، وانتظر والإحساس بخيبة الأمل ينتابه حتى جاء الرد خافتا وأبطأ من المعتاد: "لا... وهل تشعر بهذا أنت أيضا؟" وسأله روباشوف: "أشعر بماذا؟" ثم تنفس بصعوبة وهو راقد على مضجعه، ولما دق الحائط من جديد بنظارته تردد رقم (٤٠٢) مرة أخرى لفترة قصيرة، ثم دق بفتور يوحي بأنه كالذى يتحدث بصوت خفيض:

"من الأفضل لك أن تنام".

وظل روباشوف قابعا فوق سريره خجلا من الأسلوب المتعالى الذى خاطبه به رقم (٤٠٢)، ثم استلقى على ظهره فى الظلام ونظر إلى نظارته، التى أمسك بها فى يده التى رفعها ناحية الحائط، وكان السكون الكثيف فى الخارج مخيما إلى درجة جعلته يسمع طنين هذا السكون فى أذنيه. وفجأة سمع نقر الحائط ثانية:

"من المدهش أنك شعرت بهذا على الفور".

نقر روباشوف وهو يجلس فى سريره بالزنزانة متسائلا:

"شعرت بماذا؟ أفصح".

سكت رقم (٤٠٢) كـأنه يفكر فى الإجـابة، وبعـد قليل من التـردد بقوله:

"سوف يتم تسوية الخلافات السياسية اليوم".

وفـهـم روباشـوف وجلس مـتكئـا على الحـائط فى الظلام انتظارا لسماع المزيد، لكن رقم (٤٠٢) لم يزد على ذلك.

وبعد قليل، دق روباشوف عبارة: "أهو الإعدام"؟

وأجابه رقم (٤٠٢) باقتضاب: "نعم".

وسـأله روباشوف:

– وماذا يدريك؟

– علمت من ذى الشفة الأرنبية المتدلية.

– متى؟

– لا أدرى.

وسكت برهة ثم قال: حالا.

وسـأله روباشوف: "هل تعرف أسماءهم؟"

فأجابه السجين رقم (٤٠٢) بالنفى، ثم أضـاف بعد فتـرة أخرى من السكون:

هم على شاكلتك .. خلافات سياسية.

رقد روباشوف ثانية وظل ينتظر، ثم لبس نظراته بعد برهة، وظل راقدا فى سكون واضعا يده على رقبته. لم يكن يسمع شيئا من الخارج؛ لأن المبنى كان يخنق كل حركة تدور داخله ويلفها بظلامه.

ولم يسبق لروباشوف أن رأى مشهد إعدام إلا إعدامه هو شخصيا، والذى كاد أن يحدث فى أثناء الحرب الأهلية. ولذلك لم يستطع أن يصور لنفسه كيف يمكن لمثل هذا الشىء أن يبدو فى الظروف العادية باعتباره جزءا من النظام الروتينى المعتاد. كانت لديه فكرة غير واضحة عن أن عمليات الإعدام تتم داخل الأقبية ليلا، وأن المذنب كان يقتل برصاصة تطلق على رقبته، لكنه كان يجهل كل شىء عن التفاصيل.

لم يكن الموت يحاط بالأسرار والغموض داخل صفوف الحزب، لأنه لم يكن له أى جانب رومانسى، بل إنه كان نتيجة منطقية وعاملا يدخله المرء فى حساباته على أساس أنه يحمل صفة مجردة. كذلك لم يكن الموت موضوعا للحديث إلا فيما ندر، ولم يستخدم أحد فى الحزب لفظ الإعدام؛ فالتعبير المعتاد هو "التصفية الجسدية" تلك العبارة التى لا توحى إلا بفكرة ملموسة واحدة، فكرة التوقف عن النشاط السياسى. أما مسألة الموت فى حد ذاتها، فهى مجرد تفصيلة تقنية لا تثير أى اهتمام، فلقد فقد الموت لكونه طرفا فى معادلة منطقية أى ملمح حسى أو جسدى أليف.

حملق روباشوف فى الظلام من خلال نظارته متفكرا: هل بدأت إجراءات الإعدام بالفعل، أم أنها لا تزال فى الطريق؟ وكان روباشوف قد خلع جوربه القصير وحذاءه، وبرزت قدماه العاريتان فى نهاية البطانية التى التحف بها وبدا لونهما شاحبا فى الظلام. وخيم الصمت بدرجة غير طبيعية، فلم يعد كالصمت المعتاد الذى يريح المرء من الضوضاء، بل كان صمتا يبتلع كل صوت من حوله ليخفيه فى جوفه، صمتا نابضا كأنه جلد دف مشدود.

حملق روباشوف فى قدميه الحافيتين وحرك أصابعهما فى بطء. فبدت له قدماه البيضاوان مضحكتين وليسا من هذا العالم فى الوقت نفسه، وكأن لهما حياة قائمة بذاتها. كان روباشوف فى ذلك الوقت على درجة غير عادية من الوعى بجسده لم يسبق لها مثيل، فقد كان يشعر بملمس البطانية الدافئ على رجليه، ويضغط بيده على رقبته، أين جرت عملية التصفية الجسدية؟ كانت لديه فكرة غامضة عن أن مثل تلك العمليات لابد أن تقع أسفل المبنى تحت السلم المؤدى إلى ما وراء حجرة الحلاق.

ثم ملأت أنف روباشوف رائحة الجراب الجلدى لمسدس جلتكين، وسمع صوت احتكاك زيه العسكرى وهو يتحرك. ترى ماذا يقول جلتكين لضحيته، أيقول له: قف ووجهك إلى الحائط؟ وهل يضيف إلى قوله هذا

عبارة من فضلك أم يقول له "لا تخف فلن تشعر بألم؟". ربما أطلق عليه النار من الخلف دون سابق إنذار أثناء سيرهما فى الطريق ، ولكن ضحيته سوف يتلفت ويدير رأسه نحوه باستمرار. ولعل جلتكين قد أخفى المسدس فى أكمامه كما يخفى طبيب الأسنان كلابة الأسنان. وربما شهد هذا الموقف كثيرون، ولكن كيف بدا الحاضرون؟ وهل سقط الضحية إلى الأمام أم إلى الخلف؟ وهل صرخ لدى سقوطه؟ ربما كان من الضرورى إطلاق رصاصة أخرى للإجهاز عليه تماما.

ونفث روباشوف الدخان ونظر إلى أصابع قدميه وكان السكون قد وصل إلى درجة يمكن فيها للمرء أن يسمع صوت احتراق لفافة التبغ، ولم يكن روباشوف يتصور فى الواقع حقيقة المعنى التقنى للتصفية الجسدية. فلم يكن الموت بالنسبة له – وخاصة موته هو – أكثر من معنى مجرد. ظن روباشوف أنه ربما انتهى كل شيء وأنه ليست هناك حقيقة لكل ما مضى وانصرم. وكان السكون والظلام مخيمين. وتوقف رقم (٤٠٢) عن دق الحائط فتمنى روباشوف لو أن أحدا يصرخ فى الخارج ليمزق ذلك الصمت غير الطبيعى. ولما استنشق الهواء وجد رائحة أرلوفا باقية فى أنفه، حتى سجائره وجدها معبأة برائحتها نفسها، لقد كانت أرلوفا تحمل علبة سجائر من الجلد فى حقيبتها. وكانت كل لفافة فى هذه العلبة تحمل رائحة مساحيق التجميل التى كانت تستعملها، واستمر السكون لا يقطعه إلا صوت السرير عندما يتحرك فوقه.

وبينما كان روباشوف يفكر فى النهوض وفى إشعال لفافة أخرى، سمع دقا على الحائط من جديد حمل إليه العبارة: "إنهم قادمون".

واستمع روباشوف لكنه لم يسمع سوى دقات قلبه تسرى فى جنبات صدره وانتظر، لكن وطأة السكون ازدادت فخلع نظارته ليدق بها على الحائط عبارة: "أنا لا أسمع شيئا".

ولكن رقم (٤٠٢) لم يجبه لمدة طويلة، ثم دق الحائط فجأة بنقرات حادة وعالية الصوت تقول:

«إنه رقم (٣٨٠) أبلغ غيرك بالخبر".

وجلس روباشوف سريعا بعد أن فهم الرسالة التى تم دقها عبر إحدى عشرة زنزانة عن طريق جيران السجين رقم (٣٨٠). وكان نزلاء الزنازين التى بين النزيلين رقم (٣٨٠)، (٤٠٢) قد أقاموا فيما بينهم خلال الظلام والسكون شبكة اتصال صوتية. ولم يكن ثمة صورة للتواصل والتضامن بين أناس لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، ومحبوسين بين الجدران الأربعة التى أحاطت بهم إلا تلك الوسيلة، وقفز روباشوف من سريره وجرى بقدمين حافيتين إلى الحائط المقابل واتخذ مكانا له بجوار الدلو ودق الرسالة التالية لرقم (٤٠٦):

"انتبه سوف يرمى رقم (٣٨٠) بالرصاص – الآن – انقل الرسالة".

واستمع روباشوف وانبعثت من الدلو رائحة عفنة حلت محل عطر أرلوفا فى أنفه، لكن الإجابة لم تأت، ثم عاد روباشوف مهرولا نحو

السرير ليدق هذه المرة بعظام أصابع يده بدلا من نظارته: "من هو رقم (٣٨٠)؟ ومرة أخرى لم يأت الرد. فاستنتج روباشوف أن النزيل رقم (٤٠٢) يتحرك كبندول الساعة بين حائطي زنزانته. واندفع نزلاء الإحدى عشرة زنزانة بأقدامهم الحافية دون صوت يغدون ويروحون بين الحوائط، وعاد النزيل رقم (٤٠٢) إلى الحائط من جديد ليعلن: "إنهم يتلون الحكم عليه" – أبلغ. وكرر روباشوف السؤال نفسه: "من هو؟".

غير أن رقم (٤٠٢) ابتعد مرة أخرى ولم تكن هناك فائدة من نقل الرسالة إلى ريب فان وينكل، إلا أن روباشوف اتجه نحو الجدار القريب من موضع الدلو مدفوعا بإحساسه الغامض بالواجب وبأن حلقة الاتصال يجب ألا تنقطع. وشعر روباشوف بالغثيان لقربه من الدلو واندفع مهرولا مرة أخرى إلى سريره وانتظر الرد. ولم يكن يسمع حتى هذه اللحظة أدنى صوت من الخارج، لم يسمع إلا صوت الحائط يدق: "إنه يصيح في طلب النجدة". وقام روباشوف بدق هذه الرسالة إلى السجين رقم (٤٠٦). وجلس روباشوف لسماع الرد لكنه لم يسمع شيئا. وكان يخشى من أنه لو اقترب من الدلو مرة أخرى فسوف يصاب بالغثيان، ودق رقم (٤٠٢): "لقد جاءوا به وهو يصرخ ويضرب الهواء بيديه – أبلغ". ودق روباشوف في عجلة قبل أن ينتهي رقم (٤٠٢) من دق جملته: "ما اسمه"؟

وتلقى الإجابة هذه المرة :

- اسمه بوجروف. وهو معارض. أبلغ.

وتثاقلت رجلا روباشوف فجأة، واستند إلى الحائط، ودق الرسالة إلى رقم (٤٠٦):

ميشيل بوجروف - بحار سابق على ظهر السفينة بوتمكن الحربية وقائد الأسطول الشرقى وحامل أول وسام للثورة - يقودونه إلى حتفه.

ومسح روباشوف العرق المتصبب على جبهته، وتقيأ فى الدلو وأنهى دق جملته بعبارة: أبلغ الرسالة.

لم تتمكن ذاكرة روباشوف من استحضار صورة بوجروف، لكن تراءت له ملامح تقريبية لشكله العملاق وذراعيه الممتدتين فى خشونة، والنمش الذى يظهر فى صفحة وجهه العريض المسطح، بأنفه المتجهة إلى أعلى قليلا. لقد كانا زميلين فى حجرة واحدة فى المنفى بعد عام ١٩٠٥، ولقد علَّم روباشوف زميله القراءة والكتابة وأساسيات الفكر التاريخى، ومنذ ذلك الحين أصبح روباشوف يتلقى منه مرتين فى العام - فى أى مكان يذهب إليه - رسالة مكتوبة بخط اليد تنتهى دائما بعبارة: "رفيقك المخلص حتى القبر: بوجروف". ودق رقم (٤٠٢) فى عجالة: "إنهم قادمون". وكان صوت الرسالة عاليا لدرجة أن روباشوف الذى كان لا يزال واقفا بجوار الدلو، وقد أسند رأسه إلى الحائط، سمع صوتها يرن فى أرجاء الزنزانة.

– قف عند ثقب الباب ودق قرع الطبول. أبلغ الرسالة.

تجمدت أطراف روباشوف ودق الرسالة إلى رقم (٤٠٦):

– قف عند ثقب الباب ودق قرع الطبول. أبلغ.

ومضى وسط الظلام إلى باب الزنزانة وانتظر، لكن كل شيء ظل على صمته وسكونه.

وفى خلال ثوان قليلة دق الحائط من جديد:

– ابدأوا الآن.

وتدافعت عبر الممر أصوات طبل مكتوم أجوف لا هو بالنقر ولا هو بالقرع، وكان نزلاء الزنازين من رقم (٣٨٠) إلى (٤٠٢) الذين كونوا شبكة اتصال صوتي، قد وقفوا خلف الأبواب كأنهم حرس شرف يعمل فى الظلام، لتقليد صوت دقات الطبول المكتومة المهيبة تقليدا متقنا تحمله الريح من بعيد. ووقف روباشوف وعينه ملتصقة بثقب الباب، وانضم إلى زملائه ضاربا الباب الخرساني بكلتا يديه بطريقة إيقاعية. ومما أدهشه أن موجة الطبول المكتومة قد وصلت إلى الجانب الأيمن عن طريق رقم (٤٠٦) ومن يليه. وتأكد لروباشوف أن ريب فان وينكل قد فهم، لأنه انخرط فى قرع الباب مثل غيره. وفى الوقت نفسه سمع روباشوف من جهة اليسار من بعيد والواقع فى مجال مرمى البصر أصوات الأبواب الحديدية وهى تشد على مزالجها. ولما ارتفع صوت قرع الطبل قليلا على

يسار روباشوف علم أن الباب الحديدى الذى يفصل الزنازين الانفرادية عن غيرها قد انفتح، وسمع صوت خشخشة المفاتيح، ثم أغلق الباب الحديدى ثانية. وسمع وقع أقدام تقترب مصحوبة بضوضاء ناتجة عن صوت شىء يجر على الأرض. وارتفع صوت الطبل القادم من الجهة اليسرى فى موجة متصاعدة ومستمرة وإن كانت مكتومة فى ذروتها. لكن لم يلح شىء فى مجال رؤية روباشوف الذى كانت تحجبه الزنازين من رقم (٤٠١) إلى (٤٠٧). واقترب صوت الجرجرة والصراخ سريعا، كما بدأ روباشوف يسمع صوت نشيج وعويل كعويل الأطفال، وازدادت سرعة الخطى، وخفت صوت الطبل قليلا من جهة اليسار ليرتفع من جهة اليمين، وقرع روباشوف الطبل حتى فقد إحساسه تدريجيا بالزمان والمكان، ولم يعد يسمع إلا الطبل الأجوف الذى يشبه قرع سكان الغابات البدائيين. وتراءى له أنه ربما كان الذين يقفون خلف القضبان قردة يضربون صدورهم ويقرعون الطبول، وثبت عينه على ثقب الباب، وأخذ يرتفع وينخفض على أصابع قدميه حسب إيقاع قرعه، ولم ير إلا الضوء الأصفر الخافت الذى رآه من قبل والذى كان ينبعث من المصابيح الكهربائية التى فى الممر. ولم يكن ثمة شىء آخر يرى سوى البابين الحديديين للزنازين من رقم (٤٠١) حتى رقم (٤٠٧). غير أن صوت الطبول ارتفع واقترب صوت العويل والنشيج، وفجأة دخلت فى مجال رؤية روباشوف ظلال بعض الأشكال. إذًا لقد حضروا. وكف روباشوف عن القرع وحملق ببصره، وبعد ثانية رآهم يمرون.

لقد انطبع ما رآه روباشوف فى تلك الثوانى القليلة فى ذاكرته أبد الآبدين، فقد رأى هيئتى رجلين يمران من أمامه بزيهما العسكرى فى الضوء الخافت بضخامتهما وملامحهما غير المتضحة، وكانا يجران رجلا ثالثا وقد أحاطه كل منهما بذراعه.. وكان الجسم الذى يجرانه ممددا بارتخاء إلى الخلف، ومع ذلك كان متصلبا فى قبضتهما كالدمية، وكان وجهه جهة الأرض كما كانت بطنه مقوسة إلى أسفل، أما رجلاه فكانتا تترجرجان خلفه ، فيسمع فى أثناء جرجرتهما صوت احتكاك طرف حذائه بالأرض، ذلك الصوت الذى سمعه روباشوف على مبعدة. وتدلت على البلاط خصلات شعره الأبيض الأشيب فوق الوجه الفاغر فاهه، والتصقت بهذا الوجه حبات العرق وسال رذاذ لعابه على هيئة خيط رفيع يمتد من فمه إلى ذقنه. وبينما كانوا يجرونه بعيدا عن مرمى بصر روباشوف فى الجهة اليمنى أسفل الممر تلاشت أصوات الصرخات والأنين تدريجيا، الذى جاء إلى مسامع روباشوف مثل صدى بعيد يتكون من ثلاثة مقاطع متحركة هى – آآه – لكن قبل أن يستديروا نحو ركن فى آخر الممر عند محل الحلاق صرخ بوجروف مرتين بشدة، وسمع روباشوف هذه المرة الكلمة كاملة وليست مجرد المقاطع المتحركة.

وكانت الكلمة التى نطق بها هى اسم روباشوف، الذى سمعه يتردد بوضوح: رو... با.. شوف.

ثم خيم الصمت كما لو كان تنفيذا لإشارة صدرت إليه، وكانت المصابيح تضىء كالمعتاد والممر مقفرا كعادته إلا من صوت دقات

السجين رقم (٤٠٦) على الحائط:

"انهضوا يا أشقياء الأرض".

وأوى روباشوف إلى مضجعه ثانية دون أن يدرى كيف وصل إليه، وكان وقع الطبول لا يزال يطن فى أذنيه، لكن السكون هذه المرة كان سكونا حقيقيا خاليا من التوتر. وكان روباشوف يعتقد أن رقم (٤٠٢) نائم، أما بوجروف أو بالأحرى ما تبقى منه، فكان يفترض الآن أنه مات.

وانطبعت صيحة بوجروف الأخيرة: روباشوف... روباشوف فى ذاكرته السمعية بصورة لا تنمحى، أما الصورة المرئية المصاحبة لها، فكانت أقل حدة. فقد كان من الصعب على روباشوف أن يقترن بوجروف فى ذهنه بهذا الشكل، الذى يشبه الدمية بوجهه المبتل ورجليه المتصلبتين الزاحفتين... ذلك الجسد الذى كانوا يجرونه على امتداد بصره لثوان قليلة.

ولم يلحظ روباشوف الشعر الأشيب فى رأس بوجروف إلا الآن. ماذا يا ترى صنعوا ببوجروف؟ ما الذى فعلوه بهذا البحار القوى حتى يخرجوا من حنجرته صوت عويل الأطفال؟ وهل كانت أرلوفا تنتحب هكذا عندما كانوا يجرونها عبر الممر؟

وظل روباشوف مستيقظا وقد أسند جبهته إلى الحائط الذى كان رقم (٤٠٢) يرقد نائما خلفه، وكان يخشى أن يتقيأ ثانية. وحتى هذا

الوقت لم يكن روباشوف قد تصور موت أرلوفا بمثل هذه التفاصيل، فقد كانت تلك المسألة بالنسبة إليه دائما مجرد واقعة غير ملموسة خلفت لديه شعورا قويا بعدم الارتياح، لكن لم يتطرق إلى ذهنه شك فى سلامة مسلكه من الناحية المنطقية، لكنه الآن بميله إلى القيء الذى يجعل جبهته تتصبب عرقا ومعدته تغم عليه يتراءى له أسلوبه القديم فى التفكير، كأنه ضرب من الجنون.

لقد قلب عواء بوجروف ونحيبه المعادلة المنطقية، تلك المعادلة التى ظلت أرلوفا إلى الآن عاملا فيها، لكنه عامل صغير إذا قورن بالمخاطر البادية، لكن لم تعد للمعادلة قائمة؛ إذ إن صورة أرلوفا وهى تجر رجليها الزاحفتين فى الممر بحذائهما ذى الكعب العالى قلبت المعادلة الرياضية رأسا على عقب.

وأصبح العامل القليل الأهمية عاملا مطلقا ولا حد لأهميته، فقد أدى نحيب بوجروف والصوت الذى لا يشبه صوت البشر الذى نطق باسمه مناديا، وكذلك قرع الطبول الأجوف الذى ملأ مسامعه، كل ذلك أدى إلى خنق صوت العقل الهزيل، كما يغطى زبد الموج على غرغرة الغريق.

ولما شعر روباشوف بالإعياء نام وهو جالس، ورأسه مستند إلى الحائط ونظارته تغطى عينيه المغمضتين.

(٧)

وأخذ روباشوف يئن فى نومه، وعاوده الكابوس الذى أصابه حين اعتقل أول مرة. وتدلت يده فى ارتخاء من فوق السرير تبحث جاهدة عن كم الروب، وظل ينتظر الضربة التى ستسدد إليه أخيرا، لكنها لم تأت.

غير أنه استيقظ لأن المصباح الكهربائى فى سقف زنزانته أضاء فجأة، ووقف شخص إلى جوار سريره ينظر إليه. ولم يكن روباشوف قد تمكن من النوم إلا بالكاد لربع ساعة، لكنه أصبح بعد الكابوس بحاجة إلى ربع ساعة حتى يستجمع قواه ثانية. وطرفت عيناه فى الضوء الساطع، وأخذ عقله يفكر بمشقة ويطرح الفروض المعتادة، كأنه يمارس طقوسا لا شعورية. جال فى خاطره إنه بالفعل فى زنزانة، لكنه ليس فى بلد معاد، وأن ذلك الذى يراه مجرد حلم. إذن فهو حر.. لكنه لم يجد صورة رقم (١) المعلقة فوق سريره. ووجد أمامه دلوا، كما رأى إيفانوف يقف إلى جوار سريره ينفث دخان لفافته فى وجهه. هل هذا حلم أيضا؟؟ لا.. ليس حلما فإيفانوف حقيقة والدلو أيضا حقيقة. إنه فى بلاده ولكنها أصبحت بلادا معادية، وإيفانوف الذى كان له خلا أصبح الآن عدوا كذلك. كما أن نحيب أرلوفا لم يكن حلما، لكنها لم تكن أرلوفا التى جروها أمامه، كأنها دمية من الشمع بل إنه بوجروف، الرفيق بوجروف المخلص حتى الموت والذى ناداه باسمه، ليس حلما. أما أرلوفا فقد كانت تقول "باستطاعتك أن تفعل بى ما تشاء".

وسـألـه إيفـانوف "هـل تشـعـر بأنك مـريض؟" وطرفت عينا روباشـوف نحوه وقد أعماها الضـوء وقال له: "أعطنى الروب" وراقبه إيفانوف فوجد الجانب الأيمن من وجه متورما، فسألـه عما إذا كان يرغب فى شىء من البـراندى. وعـرج إلى فـتـحـة البـاب دون أن ينتظر ردا ونادى فـى الممـر طالبا إحضار شىء ما، وتبعته عينا روباشوف الطارفتان ورأسه الذى لم يتـخلص بعد من الدوار. لقد كان مستيقظا لكنه كان يرى ويسمع ويفكر فى غشاوة.

وسـأل إيفانوف قـائلا: "هل قبض عليك أنت أيضا؟" فـأجاب إيفانوف بهـدوء" لا، لقـد أتيت لزيارتك فـقط، وأظن أن حـرارتك مـرتفـعـة، قـال روباشوف أعطنى سيجارة، وأخذ روباشوف ينفث دخانها بشهيق عميق مرة أو مرتين، ثم أصـبحت نظرته المحملقة أكثر وضـوحا. واستلقى مرة أخـرى وأخـذ يدخن وينظر إلى السـقف. وانفـتح باب الزنزانة وأحـضـر السجان زجاجة البراندى وكأسا. ولم يكن السجان هذه المرة هو الرجل المسن وإنما كان شـابا نحيفا فى زيه العسكرى ويلبس نظارة مـعدنية. وحيا الشـاب إيفـانوف تحـية رسمـيـة وأعطاه زجاجة البـراندى والكأس وأغلق الباب من الخارج، وسمع وقع أقدامه يتباعد فى الممر.

جلس إيفـانوف على حـافـة سرير روباشـوف ومـلأ الكأس وقـال له: "أتشرب؟" فشرب روباشوف الكأس وزالت الغشاوة التى كانت فى رأسه، وانتظمت فى ذهنه الأحداث والأشـخـاص فى المكان والزمـان، فـتـذكـر

اعتقاله أول مرة وثانى مرة وأرلوفا وبوجروف وإيفانوف.

وسأله إيفانوف : "هل تعانى ألما؟"

فرد بقوله: "لا". ولكن الشيء الوحيد الذى لم يفهمه روباشوف بعد هو ما الذى يفعله إيفانوف فى زنزانته.

"إن خدك متورم للغاية وربما كنت تعانى أيضا من ارتفاع الحرارة".

ونهض روباشوف من سريره ونظر من فتحة الباب إلى الممر الذى كان خاليا وقطع الحجرة مرة أو مرتين جيئة وذهابا حتى اتضحت الأمور فى رأسه تماما، ثم توقف أمام إيفانوف الذى كان يجلس فى نهاية السرير ينفث حلقات الدخان فى صبر وسأله: "ما الذى تفعله هنا؟"

فقال إيفانوف: "أريد أن أتحدث إليك، فارقد مرة أخرى واشرب مزيدا من البراندي".

وغمز إليه روباشوف فى سخرية من خلال نظارته وقال: "لقد كنت أميل حتى الآن إلى الظن بأنك تتصرف بحسن نية، لكنى أميل الآن إلى الظن أنك خنزير. اخرج من هنا". لكن إيفانوف لم يتحرك وقال له: "كن لطيفا معى وقل لى سبب إصرارك على خروجي". وأسند روباشوف ظهره إلى الحائط الذى يفصله عن الزنزانة رقم (٤٠٦) ونظر فى احتقار إلى إيفانوف، الذى كان يدخن بثبات ورباطة جأش.

وقال روباشوف: "أولا: أنت تعلم صداقتي لبوجروف، ولهذا حرصت على أن يمر بوجروف أو ما تبقى منه من أمام زنزانتي في رحلته الأخيرة، كتذكرة لي وحتى تضمن ألا يفوتني المشهد ، فقد أعلن نبأ إعدام بوجروف سلفا باعتبار أن هذا النبأ سوف يدق إليّ بالشفرة عن طريق جيراني، وهو ما حدث بالفعل. وحتى يكتمل إتقان هذا المشهد ويكتمل إخراجه أخبرتم بوجروف بوجودي هنا قبل أن يجروه مباشرة؛ اعتقادا بأن هذه المفاجأة الأخيرة سوف تجعل بعض التعبيرات الصوتية تصدر عن بوجروف وهو ما حدث بالفعل. لقد أعد كل هذا من أجل وضعي في حالة من الحزن والكآبة ليظهر الرفيق إيفانوف كمنقذ يحمل تحت إبطه زجاجة براندي، ثم يأتي مشهد مؤثر للمصالحة، ثم يندفع كلانا للعناق ونتبادل ذكريات مثيرة عن الحرب، وأوقع بهذه المناسبة على أقوال تتضمن اعترافي. وبعد ذلك يغفو السجين في نوم هادئ ويغادر الرفيق إيفانوف الزنزانة على أطراف أصابعه، حاملا اعترافي في جيبه ثم يحصل على ترقية بعد ذلك بأيام وليلة. والآن عليك أن تتفضل بالخروج من هنا".

ولم يتحرك إيفانوف وظل ينفث الدخان في الهواء، وابتسم فظهرت أسنانه المغطاة بالذهب، ثم تساءل قائلا: "أتظن حقا أني بمثل هذا العقل البدائي؟ أو بمعنى أدق هل تعتقد حقا أني محلل سيكولوجي رديء إلى هذا الحد؟"

وهز روباشوف كتفيه قائلا:

"إن حيلك تثير اشمئزازى، ولا أستطيع أن ألقى بك فى الخارج: ولو كان لديك ذرة من التهذيب واللياقة فعليك أن تتركنى الآن وحدى، فإنك لا تستطيع أن تتصور مقدار اشمئزازى منكم جميعا".

ورفع إيفانوف الكأس من على الأرض وملأه وشرب، ثم قال: "أقترح أن تتفق معى على أن تتركنى أتحدث إليك لمدة خمس دقائق دون مقاطعتى على أن تستمع بذهن صاف إلى ما أقوله، فإذا بقيت بعد ذلك مصرا على أن أخرج فسأمضي".

فقال روباشوف: "ها أنا أستمع إليك"، ووقف مستندا بظهره إلى الحائط المقابل لموضع إيفانوف ونظر فى ساعته.

وقال إيفانوف: "أولا، وحتى أدفع عنك كل الشكوك والأوهام التى يحتمل أن تكون قد جالت فى ذهنك أقول: لقد رمى بوجروف بالرصاص فعلا، ثانيا: ظل بوجروف سجينا لمدة سبعة أشهر عذب فى آخرها لبضعة أيام. وإذا ذكرت ذلك فى أثناء محاكمتك العلنية أو نقلته بالشفرة إلى جيرانك فسوف أهلك أنا بسبب ذلك. أما أسباب معاملة بوجروف بمثل هذه الطريقة فسأحدثك عنها فيما بعد. ثالثا: تعمدنا بالفعل أخذ بوجروف أمام زنزانتك، كما لم يكن من المصادفة علمه بوجودك هنا. رابعا: هذه الحيلة القذرة - كما تسميها - ليست من صنعى وإنما هى من صنع زميلى جلتكين بالمخالفة الصريحة لتعليماتى.

وسكت، لكن روباشوف ظل مستندا إلى الحائط دون أن يقول شيئا، ومضى إيفانوف يقول:

"لم يكن من الممكن لمثلى أن يرتكب مـثل هذا الخطأ، ليس بدافع المراعاة لمشاعرك، لكن لأن ذلك مخالف لتكتيكاتى ومعرفتى بتكوينك النفسى. لقد أبديت مؤخرا ميلا نحو النوازع الإنسانية وغيرها من الأمور العاطفية. كما أن قصة أرلوفا لا تزال تعذب ضميرك. إن مشهد بوجروف من شأنه أن يضاعف حزنك ونزعاتك الأخلاقية. إن كل تلك الأمور يسهل التنبؤ بها ولا يمكن إلا لجاهل بعلم النفس كجلتكين أن يرتكب مثل هذا الخطأ. لقد ظل جلتكين يلح علىّ فى الأيام العشرة الأخيرة لكى أستخدم معك "أساليب متشددة" وذلك لسببين أولهما: أنه لا يحبك لعدم اكتراثه بك؛ لأنك أريته ثقوب جوربك. وثانيهما: أنه معتاد على التعامل مع الفلاحين. وهذا كاف لتوضيح مسألة بوجروف. أما البراندى فقد طلبته بالطبع لأنك لم تكن مسيطرا على كامل قواك العقلية عندما حضرت إلى هذا المكان. ليس من صالحى أن أدعك تسكر أو أن أتركك نهبا للصدمات العقلية. فإن كل ذلك يدفعك إلى مزيد من السمو الأخلاقى، وأنا أريدك يقظًا ومنطقيا فى تفكيرك. إن اهتمامى الوحيد هو حملك على التفكير بهدوء فى قضيتك للوصول إلى قرار. فلو أنك فكرت فى الموضوع بالكامل وانتهيت فيه إلى قرار، فإنك سوف تذعن وتستسلم.

هز روباشوف كتفيه، ولكنه قبل أن يتمكن من قول أى شىء قال إيفانوف مقاطعا: "أنا أعلم أنك مقتنع بأنك لن تستسلم، لكن أجبنى على

شيء واحد فقط: هل لو أصبحت على اقتناع من الناحية المنطقية بضرورة الاستسلام وبوجاهته من الناحية الموضوعية - فهل تستسلم حينئذ؟".

لم يجبه روباشوف في الحال؛ إذ إنه شعر بالفتور لأن الحوار اتجه إلى منعطف ما كان ينبغي له أن يسمح به. ومرت الدقائق الخمس دون أن يلقي بإيفانوف خارج الزنزانة، الأمر الذي بدا له كأنه خيانة لبوجروف وأرلوفا وريتشادر ولوي الصغير أيضا.

قال روباشوف لإيفانوف : "اغرب عن وجهي فليست هناك فائدة". ولم يلاحظ حتى الآن أنه ظل يمشي لبعض الوقت جيئة وذهابا في زنزانته أمام إيفانوف.

ثم قال إيفانوف وهو جالس على الفراش: "إني ألاحظ من نبرة صوتك أنك تعترف بخطئك فيما يتعلق بتصورك لدوري في موضوع بوجروف. فلماذا تريدني أن أذهب إذن؟

ثم انحنى إلى الأمام ونظر بسخرية في وجه روباشوف: "لماذا تريدني إذن أن أغرب عن وجهك؟ ولماذا لا تجيب عن السؤال الذي طرحته عليك. ثم مال قليلا نحو روباشوف ونظر في وجهه نظرة ساخرة وقال في لهجة بطيئة مشددا على كل كلمة: لأنك تخشاني. لأن أسلوب تفكيري هو أسلوب تفكيرك وحجتي هي حجتك. أنك تخشى الصدى

الذى يتردد فى رأسك، وسوف تصيح بى فى الحال: اخرج من هنا أيها الشيطان".

لم يرد عليه روباشوف الذى كان يسير أمامه جيئة وذهابا بجوار نافذة إيفانوف، فقد كان يشعر بأنه لا حول له ولا قوة وعاجز عن المناقشة بوضوح، لأن إحساسه بالذنب، الذى كان إيفانوف يسميه تساميا أخلاقيا، لم يكن من الممكن التعبير عنه فى معادلات منطقية فبقى ذلك الإحساس ينتمى إلى عالم "الخيال اللغوى".

وفى نفس الوقت كانت كل جملة ينطق بها إيفانوف تثير صدى فى نفسه، وأحس بأنه ما كان ينبغى أن يدع نفسه يستدرج إلى هذه المناقشة، وشعر بأنه كمن يقف على سطح منحدر أملس ينزلق كل من عليه دون أن يتمكن من المقاومة. ردد إيفانوف عبارة: "إليك عنى أيها الشيطان" وصب لنفسه كأسا أخرى من البراندى وقال: "كان الإغراء فى الأيام الخوالى إغراء جسديا ، أما الآن فإنه يأخذ صورة العقل المحض. فالقيم تتغير. وأنا أرغب فى كتابة مسرحية تتناول آلام المسيح يتصارع فيها الله والشيطان من أجل الاستحواذ على روح القديس روباشوف فبعد حياة حافلة بالذنوب نراه يتجه إلى الله... إلى إله الليبرالية الصناعية المتخمة وإحسانات مطاعم الصدقة التابعة لجيش خلاص الروح. أما الشيطان فهو النقيض من ذلك... نحيف ومتقشف ومتعصب

للمنطق. وهو يقرأ ماكيافللى واجنوتى الليولى، وماركس وهيجل. وهو بارد الحس يخلو من الرحمة نحو الجنس البشرى وذلك بسبب اتباعه لنوع من الرحمة الرياضية. وقد كتبت عليه دوما لعنة اقتراف أشد الأفعال كرها إلى نفسه: فهو يسفك الدم من أجل أن يمنع سفك الدم، ويضحى ببعض الحملان حتى لا تذبح بقية الخراف ويجلد ظهور الناس ليتعلموا كيف يمتنعون عن الجلد. وهو يجرد نفسه من كل وخز ضمير من أجل وخز ضمير أعظم وأسمى ويتحدى كراهية البشر غير عابئ لأنه يحب البشر - حبا حسابيا مجردا - "اغرب عنى أيها الشيطان". ها هو الرفيق روباشوف يفضل أن يصبح شهيدا. سوف يقوم كتاب الصحافة الليبرالية الذين كرهوه أثناء حياته بإضفاء القداسة عليه بعد مماته. فلقد اكتسب ضميراً حياً يجعل المرء عاجزا عن الثورة مثل الإنسان المترهل، فالضمير يلتهم العقل كالسرطان. الشيطان ينهزم ويتراجع ، ولكنه لا يكشر عن أنيابه أثناء غضبه ليبصق لهيب غضبه. وهو يهز كتفيه فى غير مبالاة وهو ناحل ومتقشف فقد رأى الكثيرين يضعفون ويتسللون إلى خارج صفوفه متعللين بحجج تبدو وجيهة ولكنها فارغة كالطبل الأجوف.

توقف إيفانوف عن الكلام وصب لنفسه كأسا أخرى من البراندى، ومشى روباشوف جيئة وذهابا أمام النافذة ثم قال بعد هنيهة: "ولكن لماذا أعدمتم بوجروف؟"

ورد إيفانوف: "تقول لماذا؟ بسبب مسألة الغواصات. وهو موضوع يتعلق بالحمولة، ذلك الخلاف القديم ببداياته المألوفة لديك. لقد كان بوجروف يدعو إلى بناء غواصات كبيرة الحمولة بعيدة المدى، بينما يؤيد الحزب بناء غواصات قصيرة المدى. فمن الممكن بناء غواصات صغيرة يبلغ عددها ثلاثة أضعاف الغواصات الضخمة التى تبنى بالتكاليف نفسها. وكان لكلا الطرفين حجته الفنية الصائبة. وقام الخبراء بعرض الكثير من الرسومات التقنية والمعادلات الجبرية، لكن بقيت المشكلة الحقيقية تدور فى مدار مختلف عن هذا تماما فالغواصات الكبيرة تعنى انتهاج سياسة عدوانية، سياسة تهدف إلى دعم الثورة العالمية(*)، بينما تعنى الغواصات الصغيرة الدفاع عن السواحل، أى الدفاع عن النفس وتأجيل الثورة العالمية. ووجهة النظر الأخيرة هى ما يراه رقم (١) والحزب.

ولبوجروف أتباع كثيرون فى قيادة البحرية وفى صفوف ضباط الحرس القديم. ولم يكن يكفى أن ينحى بوجروف جانبا، لكن كان يجب أن يشهر به أيضا. ولذا أعدت محاكمة لفضح أنصار بناء الغواصات ذات الحمولة الكبيرة باعتبارهم مخربين وخونة. وأحضرنا عددا من صغار المهندسين المؤيدين لنا والذين يقبلون الإقرار على الملأ بصحة كل ما نريدهم أن يقروا به، لكن بوجروف لم يرغب فى المشاركة فى اللعبة.

(*) لاحظ أن هذا أسلوب تروتسكى فى التفكير. (المترجم)

ودافع حتى النهاية عن الغواصات ذات الحمولة الكبيرة وإشعال الثورة العالمية. وكان بذلك متخلفا عقدين كاملين عن زماننا. ولم يشأ أن يعى أن الوقت فى غير صالحنا وأن أوربا تمر بمرحلة من الردة، وأن موجة عاتية تبتلعنا وعلينا أن ننتظر حتى تأتى موجة ثانية لترفعنا. ولو أننا عقدنا له محاكمة علنية لآثار البلبلة بين صفوف الشعب، ولم تكن هناك وسيلة أخرى غير تصفيته جسديا. لو أنك فى مكاننا أما كنت تفعل الشىء نفسه؟

لم يجبه روباشوف الذى توقف عن السير وظل متكئا بجوار الدلو على الحائط الذى يفصله عن جدار زنزانة رقم (٤٠٦). وانبعثت من الدلو موجة من الروائح الكريهة. وخلع نظارته ونظر إلى إيفانوف بعينين محاطتين بهالات حمراء وقال: "إنك لم تسمعه وهو ينتحب". وأشعل إيفانوف لفافة جديدة من عقب سيجارته السابقة، وأحس هو أيضا برائحة الدلو الكريهة تتصاعد وتملأ المكان، ثم قال:

"كلا، لم أسمع ذلك، لكنى سمعت ورأيت أشياء مماثلة، وماذا فى ذلك؟"

وسكت روباشوف فلم تكن هناك جدوى من شرح تلك المسألة. واخترق صوت النحيب وصوت الطبل المكتوم أذنيه من جديد، كأنه يتبع الصدى. إن المرء ليعجز عن التعبير عن هذا كما يعجز عن التعبير عن استدارة ثدى أرلوفا بطرفيه ا لدافئين المتدليين . إن الإنسان لا يقدر على التعبير عن شىء. "فلتمت فى صمت". هذا ماجاء فى الرسالة التى أعطاها له الحلاق.

وكرر إيفانوف قوله "وماذا فى ذلك؟" ومد ساقيه وانتظر الإجابة التى لم تأت ، فواصل قائلا: "لو أن عندى ذرة من الإشفاق عليك لتركتك الآن وحيدا، لكنى لا أشفق عليك بالمرة. أنا أعاقر الخمر منذ مدة – كما تعلم – وكنت أشرب حتى الثمالة، لكنى نجحت حتى الآن فى اجتناب رذيلة الشفقة. فالمرء يضيع إذا تناول أصغر جرعة منها. ولعلك تعلم ميل الجنس البشرى المريض نحو البكاء على الإنسانية ورثاء الذات. إن أعظم شعرائنا حطموا أنفسهم بهذا السم. فقد بقوا على ثوريتهم إلى سن الأربعين أو الخمسين حتى أهلكتهم الشفقة ووصفهم العالم بالقداسة. ويبدو أن لك الطموح نفسه. أما الاعتقاد بأن الشفقة مسألة شخصية خاصة بك، فذلك أمر ليس له سابقة".

كان إيفانوف يتكلم بصوت أعلى، ثم نفث سحابة من الدخان وقال: "حذار من نوبات الانتشاء هذه. إن كل زجاجة خمر تحتوى على قدر معين من الانتشاء، لكن لسوء الحظ لا يدرك إلا عدد قليل من الناس وعدد أقل من مواطنينا أن انتشاء المرء بتواضعه وعذابه انفعالات رخيصة مثل الانفعال الناتج عن تعاطى مواد كيميائية. فعندما أفقت من التخدير ووجدت جسدى لا يتحرك من ناحية الركبة اليسرى، عن لى أيضا أن أجرب نشوة التعاسة المطلقة. فهل تذكر المحاضرة التى ألقيتها علىّ فى ذلك الوقت؟ صب كأسا أخرى واحتساه قائلا: "إن ما قصدت إليه هو أنه يجب على المرء ألا ينظر إلى العالم على أنه ماخور

ميتافيزيقى يفرغ فيه عواطفه وانفعالاته. وهذه أول وصية لنا. فالعطف والضمير والاشمئزاز واليأس والندم والتكفير عن الآثام ليست سوى دعارة مقيتة فى نظرنا ، إنه لمن أسهل الحلول أن يجلس المرء لينوم نفسه تنويما مغناطيسيا ويرفع ناظريه إلى أعلى ويسلم قفاه فى ذل إلى مسدس جلتكين. إن أعظم غواية لأمثالنا تكمن فى نبذ العنف وإبداء الندم والتصالح مع الذات. لقد سقط أكثر الثوار العظام أمام هذا الإغراء، من سبارتاكوس إلى دانتون إلى دوستيوفسكى، فهؤلاء يمثلون النمط الكلاسيكى لخيانة القضية. لقد كانت غوايات الله دائما أعظم وأشد خطرا على الجنس البشرى من غواية الشيطان. ومادامت الفوضى تسود العالم، فإن الله يصبح شيئا أكل عليه الدهر وشرب، وأى تصالح مع الضمير يصبح خيانة. فعندما يخاطبك صوت الضمير الملعون صم أذنيك حتى لا تسمعه. ثم مد يده باحثا عن الزجاجة خلفه وصب لنفسه كأسا أخرى . ولاحظ روباشوف أن نصف الزجاجة قد أصبح فارغا. وفكر أن قليلا من السلوى تكفيه.

ومضى إيفانوف يقول: "إن أعظم المجرمين خطرا فى التاريخ ليسوا من نوع نيرون وفوشيه(*) ولكنهم من نوع غاندى وتولستوى. فإن ما فعله ضمير غاندى لمنع تحرير الهند أكثر مما فعلته مدافع الإنجليز. أن يبيع المرء نفسه من أجل ثلاثين قطعة من الفضة مثلما فعل يهوذا الإسخريوطى لتسليم المسيح فتلك صفقة شريفة، ولكن إذا باعها

(*) سياسى فرنسى تآمر للإطاحة بروبسبيير أحد زعماء الثورة الفرنسية .(المترجم)

لضميره فإن ذلك يعنى التخلى عن البشرية. فالتاريخ فوق الاعتبارات الأخلاقية، ليس له ضمير. إن توجيه مسار التاريخ حسب مبادئ مدارس الأحد يعنى أن نترك كل شىء على حاله. إنك تعلم ذلك كما أعلمه تماما. كما تعلم مخاطر هذه اللعبة، ثم تأتى بعد ذلك لتتكلم عن نحيب بوجروف...

ثم شرب كأسه وأضاف قائلا: "أو تأتى بضمير معذب بسبب فتاتك البدينة أرلوفا".

كان روباشوف يعهد فى إيفانوف أن باستطاعته أن يكتم الكثير من أفكاره فلا يمكن لأحد أن يلاحظ أى تغير فى سلوكه إلا من خلال اتسام أسلوب حديثه بالتأكيد أكثر من المعتاد. وقال روباشوف فى نفسه: ربما أنت بحاجة إلى المواساة أكثر منى. وجلس على المقعد الصغير المواجه لإيفانوف وأنصت إليه. ولم يكن كل ذلك بالجديد عليه، لقد دافع عن نفس هذا الرأى لسنوات، ربما بنفس العبارات أو بعبارات مماثلة لها. الفارق الوحيد هو أنه كان يعرف تلك العمليات التى تعتمل فى النفس والتى يتكلم عنها إيفانوف باحتقار على أنها مسألة مجردة. ولكنه منذ ذلك الوقت بدأ يستشعر الخيال النحوى باعتباره حقيقة مادية قائمة فى كيانه الجسدى. ولكن هل أصبحت هذه العمليات اللاعقلانية أمرا مقبولا لديه لمجرد أنه أصبح الآن على دراية شخصية بها؟ وهل لم يعد من الضرورى أن يقاوم حالة النشوة الصوفية لمجرد أنه انتشى بها؟ فعندما

أرسلت أرلوفا إلى حتفها منذ عام لم يكن لديه من الخيال ما يصور له تفاصيل عملية الإعدام، فهل يتصرف الآن بأسلوب مختلف لمجرد أنه أحاط ببعض جوانب هذه العملية؟ إما أن تكون التضحية بريتشارد وأرلوفا ولوى الصغير صوابا وإما أن تكون خطأ. ولكن ما علاقة تلعثم ريتشارد أو صورة ثديى أرلوفا أو نحيب بوجروف بخطأ أو صواب الإجراء نفسه من الناحية الموضوعية.

بدأ روباشوف من جديد يذرع زنزانته جيئة وذهابا، وشعر بأن كل شيء داخل نطاق تجربته منذ اعتقاله لم يكن سوى مقدمة، وأن أفكاره قادته إلى طريق مسدود، قادته إلى أعتاب ما يسميه إيفانوف بالماخور الميتافيزيقى وإلى الشعور بأن عليه أن يبدأ مرة أخرى من البداية، لكن كم بقى له من الوقت؟ وتوقف روباشوف وأخذ الكأس من يد إيفانوف وأفرغه فى جوفه وإيفانوف يراقبه.

وقال إيفانوف فى ابتسامة عابرة: "هذا أفضل فالمناجاة التى تتخذ صورة حوار نظام مفيد، وأتعشم أن أكون قد نجحت فى تمثيل صوت الإغراء بصورة فعالة، ومن المؤسف حقا ألا يكون الطرف الآخر ممثلا، لكن هذا جزء من حيله، فهو لا يسمح لنفسه أبدا بأن يستدرج إلى مناقشة عقلانية. وهو يهاجم الإنسان دائما فى لحظات الغفلة التى لا يكون فيها مستعدا للدفاع عن نفسه، يهاجمه عندما يكون وحيدا أو واقعا تحت تأثير مشهد مؤثر كأشجار القتاد المحترقة أو قمم الجبال

المغطاة بالسحاب، كما أنه يفضل مهاجمة ضحيته وهو نائم. إن أساليب ذلك الداعية الأخلاقى العظيم أساليب غير عادلة ومسرحية.

لم يعد روياشوف ينصت، فقد كان يسائل نفسه وهو يسير جيئة وذهابا: هل إذا كانت أرلوفا اليوم على قيد الحياة، أكان يضحى بها مرة أخرى؟ واستحوذت تلك المشكلة على لبه وبدت وكأن فيها الإجابة عن سائر الأسئلة، ثم توقف أمام إيفانوف وسأله:

- هل تذكر راسكولينكوف(*)؟

وابتسم له إيفانوف فى سخرية وقال: "لقد كنت أتوقع أن تتطرق إلى تلك الرواية إن آجلا أو عاجلا.. رواية "الجريمة والعقاب".. لقد أصبحت فى الحقيقة إما طفلا أو شيخا.

قال روياشوف وهو يسير فى اضطراب جيئة وذهابا: "رويدك رويدك، كل هذا مجرد كلام، لكننا نقترب الآن من لب الموضوع. فالمشكلة - حسب ما أذكر - هى: هل كان الطالب راسكولينكوف محقا فى قتله للمرأة العجوز؟ إنه شاب موهوب وله حق فى حياة تنتظره وهى امرأة مسنة ليس منها أى نفع للعالم، ولكن المعادلة لا تستقيم فى المقام الأول؛ حيث تضطره الظروف إلى قتل إنسان آخر، وهذه نتيجة غير متوقعة وغير منطقية لعمل يبدو بسيطا ومنطقيا. ومن ناحية أخرى تنهار المعادلة فى كل الأحوال؛ لأن راسكولينكوف يكتشف أن حاصل ضرب اثنين فى

(*) بطل رواية دستيوفسكى «الجريمة والعقاب». (المترجم)

اثنين ليس أربعة إذا كان الأمر لا يتعلق بوحدات رياضية بل بكائنات بشرية.

قال له إيفانوف: "صحيح؟ لو كنت تريد رأيى حقا، فأنا أرى أن كل نسخة من هذه الرواية يجب أن تحرق". هذه الرواية يجب أن تحرق. فكر قليلا فيما يمكن أن تقودنا إليه مثل تلك الفلسفة الضبابية المشوشة لو أننا تبعناها بحذافيرها، وتمسكنا بالمفهوم القائل بأن الفرد كيان مقدس فى حد ذاته، وبأنه لا يجب التعامل مع الحياة البشرية طبقا لقواعد الحساب. إن ذلك معناه ألا يضحى قائد الكتيبة بدورية فى سبيل إنقاذ كتيبة. وألا نضحى نحن بأحمق مثل بوجروف ونعرض مدننا الساحلية لخطر التدمير خلال عامين.

هز روباشوف رأسه وقال: "إن جميع أمثلتك مأخوذة من الحرب - أى من ظروف غير طبيعية".

أجابه إيفانوف قائلا: "منذ اختراع القاطرة أصبح العالم بصفة دائمة فى حالة غير عادية، فما الحروب والثورات سوى تعبير ظاهر عن تلك الحالة. إن صاحبك راسكولينكوف أحمق ومجرم، لا لأنه يتصرف مستندا إلى المنطق فى قتله المرأة العجوز، لكن لأنه يفعل ذلك لمصلحته الشخصية. إن المبدأ القائل بأن الغاية تبرر الوسيلة هو القاعدة الوحيدة فى علم الأخلاق السياسية، وسيظل كذلك. وأى شىء غير هذا يعد مجرد

لغـو غـامض يذوب فـينسل ويتـسـرب بين أصـابع المرء.. فلو أن راسكلينكوف قضى على المرأة بأمر من الحزب ليزيد الموارد المخصصة للإضرابات مثلا أو ينشئ صحفا غير مشروعة، لكان للمعادلة سند تقوم عليه، ولما كانت هذه الرواية بقضيتها المضللة قد كتبت. وهذا أفضل كثيرا للبشرية.

لم يجب روباشوف فقد كان مأخوذا بهذا السؤال العويص: هل يمكن بعد كل ما مر به من خبرات في الأشهر والأيام الأخيرة أن يقود أرلوفا اليوم إلى حتفها من جديد؟ لم يكن يدرى. فمن الناحية المنطقية كان إيفانوف مصيبا في كل ما قال. بقى الهاجس المعارض فيه ساكنا لا يكشف عن وجوده إلا من خلال شعور كئيب بعدم الارتياح. وفي هذا أيضا كان إيفانوف على صواب، إذ إن ذلك المعارض الداخلى الخفى يرفض دائما أن يقارع الحجة بالحجة كما أنه لا يهاجم الناس إلا في أوقات عجزهم عن الدفاع عن أنفسهم وهو بذلك يبدو محاطا بظلال كثيفة من الشك.

ومضى إيفانوف يقول: "أنا لا أوافق على الخلط بين الأيديولوجيات، فهناك مفهومان اثنان فقط للأخلاق البشرية، وهما على طرفى نقيض؛ أولهما مفهوم مسيحى إنسانى يضفى على الفرد قداسة لا تمس ويصر على أن قواعد الحساب لا تنطبق على الكيانات البشرية، وأما المفهوم الآخر، فينبع من مبدأ أساسى هو أن الهدف الجماعى يبرر كل

الوسائل، ذلك المبدأ لا يسمح فقط، بل يوجب إخضاع الفرد بكل الوسائل للمجتمع والتضحية به فى سبيله، فيمكن للمجتمع أن يتصرف فى الفرد، كأنه فأر تجارب أو كبش فداء. ويمكن أن يطلق على المفهوم الأول المفهوم الأخلاقى الرافض لتشريح الأجساد الحية. أما الثانى فيطلق عليه المفهوم الأخلاقى المؤيد لتشريحها. ولقد عمل الدجالون والهواة ممن يعالجون الأمور بخفة على الخلط دائما بين المفهومين، وإن كان ذلك مستحيلا من الناحية العملية. فالذى تثقل كاهله أعباء السلطة والمسئولية يكتشف فى أول مناسبة أن عليه أن يختار، فينزلق فى هاوية الاختيار الثانى. هل سمعت مثالا واحدا عن دولة اتبعت الدين المسيحى حقا باعتباره الدين الرسمى لها؟ إنك لا يمكن أن تجد مثالا واحدا على ذلك. ففى أوقات الضرورة - والسياسة دائما وأبدا فى حالة ضرورة - كان الحكام يستطيعون دائما خلق الظروف الاستثنائية التى تتطلب إجراءات دفاعية استثنائية. ومنذ نشأة الدول والطبقات والحكام يعيشون فى حالة عامة للدفاع عن النفس تجبرهم على تعطيل الممارسات الإنسانية إلى وقت لاحق.

ونظر روباشوف من النافذة؛ حيث وجد الجليد الذائب قد بدأ يتجمد ويلمع من جديد وبدأ سطحه غير المنتظم يكتسى ببلورات بيضاء مائلة إلى الاصفرار. وكان الحارس يسير جيئة وذهابا بجوار الحائط حاملا بندقيته على كتفه، كما كانت السماء صافية وإن لم تكن مقمرة، أما

نجوم مجرة طريق التبانة فقد كانت تسطع فوق أبراج المدافع.

وهز روباشوف كتفيه قائلا: "أوافقك على أن الإنسانية تتعارض مع المذهب الإنسانى والسياسة واحترام الفرد وتقدم المجتمع. وأقر بأن غاندى نكبة حلت بالهند وبأن التعفف فى اختيار الوسائل يؤدى إلى العجز السياسى... أتفق معك فى كل هذه السلبيات، ولكن انظر إلام أوصلتنا البدائل الأخرى...".

وتساءل إيفانوف: "إلام أوصلتنا؟"

وحك روباشوف نظارته فى أكمامه ونظر إليه وهو يعانى قصر النظر، قال: "لكم أضعنا عصرنا الذهبى هباء منثورا".

وابتسم إيفانوف وقال بسعادة: "ربما، لكن انظر إلى الجراتشيين(*) وسانت جوست والكوميون الشيوعى فى باريس، كل الثورات إلى يومنا هذا من صنع هواة المواعظ الأخلاقية، الذين كانوا دائما حسنى النية، لكنهم هلكوا لكونهم هواة، أما نحن فإننا لأول مرة نتميز بالجدية..".

قاطعه روباشوف قائلا: "نعم، نتميز بالجدية لدرجة أننا تركنا عمدا نحو خمسة ملايين فلاح يموتون هم وأسرهم من الجوع فى عام واحد فى سبيل التوزيع العادل للأراضى، وفى سبيل تحرير البشر من نير

(*) أخوان رومان دعيا إلى ضرورة الإصلاح الزراعى قبل ظهور المسيحية. (المترجم)

استغلال المجتمع الصناعى. بعثنا بعشرة ملايين عامل لأعمال السخرة فى المناطق القطبية والغابات الشرقية تحت ظروف مماثلة لظروف للعبيد القدامى. نحن جادون لدرجة أننا لا نعرف سوى لغة واحدة فى تسوية خلافاتنا فى الرأى: لغة الموت، سواء كان موضوع الخلاف متعلقا بالغواصات أو بالأسمدة أو بالخط الذى يجب على الحزب انتهاجه فى الهند الصينية. إن مهندسينا يعملون وفى أذهانهم دائما أن مجرد خطأ فى الحساب قد يقودوهم إلى السجن أو إلى المشنقة. أما كبار المسئولين فى حكومتنا فإنهم يدمرون ويحطمون مرؤوسيهم؛ لأنهم يعلمون أن مسئولية أصغر هفوة سوف تقع على عاتقهم وأنهم سيدمرون بدورهم، وشعراؤنا يسوون خلافاتهم وجدالهم حول الأسلوب عن طريق تبليغ البوليس السرى عمن يخالفونهم فى الرأى. وذلك لأن المدافعين عن المذهب التعبيرى(*) ينظرون إلى أسلوب مدرسة المذهب الطبيعى(**) على أنه مناهض للثورة، والعكس بالعكس. ومن أجل حماية مصلحة الأجيال القادمة قمنا بتكبيل الجيل الحالى بكل هذا الحرمان والتجويع الفظيع، لدرجة أن متوسط العمر انخفض بمقدار الربع. وحتى ندافع عن وجود البلاد تعين علينا أن نتخذ تدابير استثنائية وأن نسن قوانين انتقالية تتعارض من جميع جوانبها مع أهداف الثورة؛ فالمستوى المعيشى

(*) Expressionist

(**) Naturalist

للشعب أقل مما كان عليه قبل الثورة، وظروف العمال أشد قسوة، والنظام لا إنسانى أكثر من ذى قبل. أما عمالة الأجير فهى أسوأ مما هى عليه فى البلدان الاستعمارية التى تستعبد سكان المستعمرات. وهبطنا بسن الذين تنفذ ضدهم عقوبة الإعدام إلى اثنى عشر عاما. أما قوانينا التى تتناول الجنس فهى تفوق فى ضيق أفقها القوانين المطبقة فى إنجلترا. كما أن عبادتنا لزعمائنا تفوق الدكتاتوريات البيزنطية الرجعية. وصحافتنا ومدارسنا تبث روح التعصب القومى والروح العسكرية والدوجماتية والإذعان للأفكار السائدة والجهل. أما السلطة التعسفية التى تمارسها الحكومة، فلا حدود لها وليس لها مثيل فى التاريخ. كما أن حرية الصحافة والرأى والانتقال مصادرة تماما وكأن إعلان حقوق الإنسان ليس له وجود. لقد أقمنا أضخم جهاز بوليس فى العالم وأصبح مخبرو هذا الجهاز يشكلون مؤسسة قومية مزودة بأكثر النظم تطورا فى مجال التعذيب البدنى والذهنى. إننا نجلد ظهور الجماهير التى تئن فى الريف؛ لتمضى نحو طريق السعادة المستقبلية النظرية التى نراها وحدنا؛ لأن طاقات هذا الجيل قد استنزفت وتبددت فى إشعال الثورة، لقد استنزف دم هذا الجيل حتى آخر قطرة حتى لم يبق منه شىء إلا كومة لحم تغيض منها الدماء، يقدم كأضحية تئن بلا حراك أو إحساس. هذه هى نتائج إتباعنا لهذا النهج. وإن كنت أنت قد أسميت ذلك المنهاج باسم أخلاقيات تشريح الأحياء، فإنه يبدو لى أن

القائمين على تجارب التشريح هذه قد نزعوا جلد الضحية، وتركوها تظهر بأنسجتها وعضلاتها وأعصابها العارية.

قال إيفانوف فى سعادة: "حسن وماذا فى ذلك؟ ألا ترى أن هذا أمر مدهش ومثير؟ هل حدث فى التاريخ ما هو أكثر من هذا إثارة للعجب. إننا نستبدل جلد البشرية بجلد آخر غير جلدها، ولا يمكن لضعاف الأعصاب الاضطلاع بمثل هذه المهمة... لكنك كنت فى وقت من الأوقات تفيض حماسا لهذه المهمة، فما الذى غيرك هكذا إلى الحد الذى صرت فيه رقيق المشاعر مثل المرأة العانس؟"

حاول روباشوف أن يرد على ذلك بقوله: "منذ أن سمعت بوجروف ينادينى باسمى"، لكنه كان يعلم أن هذا الرد لا يعنى شيئا بالنسبة إلى إيفانوف، فقال بدلا من ذلك: "استمرارا فى استخدام اللغة الاستعارية نفسها أقول إنى أرى جسد هذا الجيل المسلوخ ، ولكنى لا أرى أثرا لأى جلد جديد يحل محله. لقد اعتقدنا جميعا أن باستطاعة المرء أن يتعامل مع التاريخ، كأنه تجربة فى الفيزياء. ولكن الفرق هو أنه فى الفيزياء يمكن تكرار التجربة ألف مرة، أما فى التاريخ فإن التجربة لا تتكرر. فلا يمكن أن يمضى كل من دانتون وسانت جوست إلى المشنقة إلا مرة واحدة. وحتى لو تبين أن الغواصات الكبيرة هى الاختيار الصحيح، فلن يعود الرفيق بوجروف إلى الحياة من جديد".

وسـأله إيفـانوف: "مـا الذى يتـرتب علـى ذلك؟ هل نجلس فى دعـة ونكف أيدينا ؛ لأننا لا يمكننا التنبـؤ بعواقب مـا نفـعل، ولهـذا نصـم كل فعل بالشـر؟ إننا نقّيم كل فعل بعـقولنا ولا ينتظر منا أكثر من ذلك. إن خـصـومنا فى المعـسكر الآخـر ليس لـهم مـثل هذا الضـمـيـر الحى. فـبـاسـتطاعـة أى جنرال مـسن ومـخـرف أن يجـرى تجاربه علـى آلاف الأجسـاد الحية، وإذا أخطأ فيـهـا فسـوف يحـال إلى التقـاعد على أكثر تقـدير. إن قـوى الرجـعيـة والثـورة المضـادة لا تعـرف وخـز الضـمـيـر أو المشكلات الأخـلاقيـة. فلتتـخـيل رجـلا مـثل سـولا(*) أو جـاليفـييـه(**) أو كولتشاك(***) قرأ قصة راسكولنيكوف بطل رواية "الجريمة والعقاب"، إن الطيـور النـادرة التى على شـاكلتك لا تقف إلا على أشـجـار الثـورة. أمـا بالنسبة إلى الآخرين فالأمر أسهل...".

ثم نظر إلى ساعته واكتسى شباك الزنزانة باللون الرمادى المتسخ، أمـا ورق الجريدة الذى يغطى لوح الزجاج المكسور فقد انتفخ وندى عنه حـفيف من نسيم الصبـاح. وبدا جندى الحـراسـة عند السـور العـريض المقـابل وهو يكمل المائة خطوة جيئة وذهابا. ومضـى إيفـانوف يقـول: "إن هذا الاشـمـئزاز المفاجئ من التـجـارب بالنسبة إلى رجل له مثل مـاضيك ضـرب من السـذاجة. ففى كل عام يموت بلا مـعنى عدة مـلايين من النـاس

(*) جنرال رومانى. (المترجم)

(**) جنرال فرنسى. (المترجم)

(***) أدميرال روسى. (المترجم)

من جراء الأوبئة وغيرها من الكوارث الطبيعية، بينما تجفل من التضحية ببضع مئات الآلاف لإجراء أعظم التجارب الواعدة فى التاريخ! ناهيك عن الجموع الغفيرة التى تموت بسبب نقص التغذية والدرن فى مناجم الفحم والزئبق وحقول الأرز ومزارع القطن دون أن يدرى بها أحد، ودون أن يسأل أحد لماذا ولمصلحة من يحدث هذا؟ ولكن إذا أطلقنا الرصاص هنا على بضعة آلاف ممن يثبت ضررهم من الناحية الموضوعية، يرغى أصحاب المذهب الإنسانى ويزبدون فى جميع أنحاء العالم. نعم، لقد قمنا بتصفية الحشائش الطفيلية بين الفلاحين وتركناهم يموتون جوعا، لكن ذلك كان بمثابة عملية جراحية ينبغى إجراؤها مرة واحدة وبلا رجعة. لقد كان مثل هذا العدد يموت فى عبث ودون معنى أو هدف فى الأيام السعيدة الخوالى السابقة على الثورة ويحدث هذا فى أية سنة من جراء الجفاف. إن ضحايا فيضانات النهر الأصفر فى الصين يصل عددهم أحيانا إلى مئات الآلاف؛ فالطبيعة سخية فى تجاربها العقيمة التى تجريها على البشر، فلماذا لا يكون للجنس البشرى حق إجراء التجارب على نفسه؟

وسكت، لكن روباشوف لم يجبه فمضى يقول: "هل قرأت أية نشرات تصدرها جمعية مناهضة لتشريح الأحياء؟ إنها تقطع نياط القلوب. فعندما يقرأ المرء أن كلبا مسكينا اقتطع منه كبده يئن ويلعق يد من عذبه، فإنه يشعر بالغثيان نفسه، الذى شعرت به فى هذه الليلة، لكن لو كان لتلك الجمعيات كلمة مسموعة لما توفرت لدينا أمصال للتيفوئيد والدفتريا والكوليرا..

وشرب إيفانوف بقية زجاجة البراندى، وتثاءب وتمطى ثم نهض واقفا ومشى برجله العرجاء نحو روباشوف جهة الشباك ، ثم أطل إيفانوف من النافذة وقال: "لقد بدأ النهار يطلع فلا تكن أحمق ياروباشوف، فكل ما شرحته لك هذه الليلة ليس إلا معلومات أولية تعرفها أنت كما أعرفها أنا. لقد كنت فى حالة من الاكتئاب العصبى. لكن تلك المسألة انتهت الآن. ثم وقف بجوار روباشوف عند النافذة وأحاط إيفانوف كتفه بذراعه وقال فى صوت يكاد أن يكون رقيقا: "اذهب الآن لتنام بعد العناء الذى كابدته أيها الجواد المحارب العجوز. فسوف تنتهى المهلة غدا وسوف يحتاج كلانا إلى ذهن صاف لنصوغ اعترافاتك. لا تهز كتفيك - لأنك على الأقل نصف مقتنع بأنك ستوقع عليها. وإذا أنكرت ذلك فإن السبب يرجع إلى جبنك الأخلاقى فكم من الرجال قادهم الجبن الأخلاقى إلى الاستشهاد".

وظل روباشوف يرقب ضوء الفجر. وكان الحارس يقوم لتوه بحركة "ليمين در"، وكان لون السماء فوق برج المدفع رماديا شاحبا تشوبه ظلال من الحمرة، وقال روباشوف بعد قليل: "سوف أفكر فى الأمر من جديد".

ولما انغلق الباب خلف إيفانوف الزائر عرف روباشوف فى قرارة نفسه أنه صار نصف مذعن ومستسلم، وألقى روباشوف بنفسه على مضجعه وقد أحس بالإعياء، ومع ذلك كان يشعر بالارتياح، كأنه أجوف وأن شيئا يستنزفه، لكن خيل إليه فى الوقت نفسه وكأن حملا ثقيلا قد زال عن كاهله، كما أن مصرع بوجروف الذى لم يبارح ذاكرة روباشوف

فقد شيئا من حدته. وتساءل قائلا: "من ذا الذى يعتبر أن وضع الثقة فى الأحياء بدلا من الأموات خيانة"؟

وبينما روباشوف ينام نوما هادئا لا تعكر الأحلام صفوه، بعد أن هدأت آلام أسنانه أيضا، عرج إيفانوف - فى طريق عودته إلى غرفته - إلى جلتكين الذى كان جالسا إلى مكتبه بملابسه الرسمية كاملة وهو يقلب فى الملفات، فقد اعتاد لسنوات أن يعمل طيلة الليل ثلاث أو أربع مرات أسبوعيا. وعندما دخل إيفانوف الغرفة نهض جلتكين واقفا وقفة (انتباه).

قال إيفانوف: "كل شىء على ما يرام، فهو سيوقع على اعترافاته غدا، لكن إصلاح ما أفسدته حماقتك كلفنى عناءً كبيرًا".

ولم يرد جلتكين الذى وقف جامدا أمام مكتبه على إيفانوف الذى تذكر ذلك المشهد العنيف الذى جرى بينه وبين جلتكين قبل قيامه بزيارة زنزانة روباشوف. كان يعرف أن جلتكين لن ينسى له بسهولة لومه وتقريعه، وهز إيفانوف كتفه ونفث دخان لفافته فى وجه جلتكين وقال له:

"لا تكن أحمق، إنكما لا تزالان تشعران بالمعاناة بسبب مشاعركما الشخصية. ولو أنك كنت فى مكان روباشوف لأظهرت عنادا أكبر من عناده".

فقال جلتكين: "بل أنا أصعب منه مراسا".

فرد عليه إيفانوف: لكنك أبله، وكان من الواجب رميك بالرصاص قبله بسبب ذلك الرد، ثم عرج حتى وصل إلى الباب وصفقه من الخارج.

جلس جلتكين إلى مكتبه ثانية. لم يكن يعتقد أن إيفانوف سوف ينجح فى إقناع روباشوف وكان - فى الوقت نفسه - يخشى مثل هذا النجاح. وتراءت له عبارة إيفانوف الأخيرة تهديدا، لأن أحدا لم يقدر أن يميز بين هزله وجده، وربما لم يكن إيفانوف نفسه يدرى، شأنه فى ذلك شأن سائر المثقفين، الذين يشكون فى نوايا البشر ودوافعهم.

وهز جلتكين كتفيه وجذب ياقته وأطراف أكمامه المنشاة إلى مكانها، ومضى فى عمله منكفئا على كومة الوثائق.

* * *

التحقيق الثالث

يجب فى كثير من الأحايين تسخير الكلمات لإخفاء الحقائق، لكن من الواجب أن يتم ذلك بطريقة لا يلاحظها أحد. وإن لم يكن هناك بد من أن يلحظها أحد فلا مناص من أن تكون المعاذير حاضرة حتى يمكن تقديمها فى التو واللحظة.

ميكافيللي

مقدمة لرافائليو جيرولامى

"ليكن كلامكم نعم نعم، لا لا، وما زاد على ذلك فهو من الشرير".

إنجيل متى

(الإصحاح الخامس الآية ٣٧)

(١)

مقتطفات من يوميات ن. س. روباشوف

اليوم العشرون فى السجن.

"... سقط فلاديمير بوجروف من الأرجوحة، فمنذ مائة وخمسين

سنة، وفى يوم اقتحام الباستيل بدأت الأرجوحة الأوروبية تتحرك من جديد بعد طول سكون، واندفعت بعيدا عن الطغيان فى همة شديدة وعزم قوى لا يستطيع أحد كبح جماحها، ومضت مندفعة إلى سماء الحرية الصافية، وظلت تعلو وتعلو على مدى مائة عام، محلقة فى أجواز الليبرالية والديموقراطية، لكنها ما لبثت أن خففت سرعتها بالتدريج. وبعد أن اقتربت من الذروة غيرت مسارها. وبعد مضى برهة من السكون بدأت تتحرك مندفعة إلى الوراء بسرعة متزايدة على الدوام، وكما اندفعت الأرجوحة إلى أعلى هبطت بركابها مرة أخرى وعادت بهم من الحرية إلى الاستبداد. وكل من تعلق بصره بالأفق الأعلى، بدلا من أن يتشبث بشىء أمامه، أصابه الدوار وهوى من الأرجوحة.

وعلى كل من يرغب فى اجتناب الدوار أن يحاول اكتشاف قانون حركة الأرجوحة، ويبدو أننا نواجه حركة بندول التاريخ الذى يتأرجح من النظام الشمولى المطلق إلى الديمقراطية؛ ليعود من جديد من الديمقراطية إلى الدكتاتورية المطلقة.

إن مقدار الحرية الفردية التى يمكن لشعب من الشعوب أن يظفر بالاحتفاظ بها، يتوقف على مدى نضجه السياسى، وتبين لنا حركة البندول المذكورة آنفا أن النضج السياسى لدى الجماهير لا يأخذ شكل منحنى آخذ فى التصاعد مثلما يحدث مع نمو الفرد، بل إنه محكوم بقوانين أكثر تعقيدا.

ويكمن نضج الجماهير فى قدرتها على التعرف على مصالحها، وهذا على أية حال يفترض مسبقا أن هناك قدرا من الفهم لعملية إنتاج السلع وتوزيعها. وعلى ذلك فإن قدرة أى شعب من الشعوب على حكم نفسه بنفسه بطريقة ديمقراطية تتناسب طرديا مع مقدار فهمه لبنية الكيان الاجتماعى ودوره ككل.

إن كل تطور فى النواحى التقنية فى الوقت الراهن، يخلق مزيدا من التعقيد فى النظام الاقتصادى، ويؤدى إلى ظهور عوامل وارتباطات جديدة لا يمكن للجماهير اختراقها لفترة معينة. وكل وثبة فى مجال التقدم التقنى من شأنها أن تؤخر التطور الفكرى النسبى لدى الجماهير خطوة للوراء. وهى بذلك تسبب انخفاضا فى ميزان الحرارة الذى يقيس درجة الوعى السياسى. وقد يستغرق التكيف التدريجى لمستوى إدراك شعب من الشعوب مع الظروف المتغيرة عشرات السنين، أو ربما أكثر من جيل فى بعض الأحيان، وذلك حتى يستعيد ما كان يملكه من قدرة على حكم نفسه بنفسه فى مرحلة أدنى من مراحل الحضارة، ولذلك لا يمكن قياس النضج السياسى لدى الجماهير من خلال أرقام مطلقة، لكن يمكن قياسه بشكل نسبى، أى قياسا إلى المرحلة الحضارية التى يمر بها.

وعندما يرتفع وعى الجماهير ويتمكن من اللحاق بالظروف الموضوعية، فإن ذلك يتبعه انتصار للديمقراطية: إما سلميا وإما بالقوة، وذلك حتى تقوم القفزة التالية للحضارة التقنية – كاكتشاف المغزل الآلى

مثلا - بإعادة الجماهير إلى حالة نسبية من عدم النضج، وتجعل من الممكن، بل من الضرورى، إقامة نوع من القيادة الاستبدادية.

ويمكن مقارنة هذه المسألة بعملية رفع سفينة إلى هويس متعدد الأحواض والمستويات، فإذا دخلت السفينة الحوض الأول تكون على مستوى منخفض قياسا إلى طاقة الحوض، وتظل ترتفع ببطء حتى يصل منسوب مياه الحوض إلى أعلى مستوى له بالنسبة إلى السفينة. غير أن ذلك المشهد المبهر ما هو إلا خداع للبصر، لأن منسوب المياه فى الحوض التالى للهويس لا يزال أعلى، الأمر الذى يستدعى البدء من جديد فى تسوية منسوب الماء. إن جدران أحواض الهويس تمثل الحالة الموضوعية الخاصة بالحضارة التقنية التى تسيطر على قوى الطبيعة، كما أن مستوى المياه فى الحوض يمثل مدى النضج السياسى لدى الجماهير. ولا معنى إطلاقا لأن نعتبر مستوى مياه الحوض، وكأنه مرتفع دائما وأبدا عن سطح البحر، فالعبرة بالارتفاع النسبى لمستوى مياه حوض الهويس.

لقد تمخض اختراع القاطرة البخارية عن بداية فترة تقدم موضوعى سريع، مما أدى بالتالى إلى ردة سياسية ذاتية تماثل ذلك التقدم فى سرعته، ولا تزال الحقبة الصناعية حديثة بالنسبة إلى التاريخ، ولا يزال هناك بون شاسع بين بنيتها الاقتصادية المعقدة للغاية وبين مدى إدراك الجماهير لها. ولذلك بات من المفهوم أن النضج السياسى

النسبى للأمم فى النصف الأول من القرن العشرين أقل مما كان عليه عام ٢٠٠ق.م أو فى نهاية عهد الإقطاع.

ولعل خطأ النظرية الاشتراكية يكمن فى الاعتقاد بأن مستوى وعى الجماهير يرتفع على الدوام وفى ثبات. ومن هنا جاء عجز النظرية أمام الحركة الأخيرة للبندول، وأمام تشويه الشعوب لذاتها من منطلق أيديولوجى. لقد اعتقدنا أن تكيف مفهوم الجماهير للعالم طبقا لظروفه المتغيرة أمر يسير يمكن للمرء قياسه بالسنين، بينما تبين جميع دروس التاريخ أنه من الأنسب قياسه بالقرون. إن عقول شعوب أوروبا لا تزال عاجزة عن استيعاب النتائج المترتبة على اختراع القاطرة البخارية، وسوف ينهار النظام الرأسمالى قبل أن تستوعبه الجماهير.

أما بالنسبة إلى الوطن الأم للثورة، فإن الجماهير محكومة هناك بنفس القوانين الفكرية السارية فى أى مكان آخر. لقد وصلت الجماهير إلى ثانى حوض فى الهويس وهو يعلو على ما قبله، لكنهم لا يزالون فى أدنى مستوى بالنسبة للحوض التالى له. إن النظام الاقتصادى الجديد الذى حل محل النظام القديم ربما كان أكثر غموضا وإبهاما من غيره بالنسبة إليهم. وقد تمضى عدة أجيال قبل أن ينجح الشعب فى فهم الوضع القائم الذى صنعوه بأيديهم من خلال قيامهم بالثورة.

وحتى يأتى ذلك اليوم فسوف يستحيل قيام نظام حكم ديمقراطى، وسيظل مقدار الحرية الفردية المسموح به أقل مما هو عليه فى البلاد

الآخرى. وحتى يحين ذلك الوقت، يتعين على زعمائنا أن يحكموا، كأنهم وحدهم فى فراغ خاو. وإذا أخذنا بالمقاييس الليبرالية الكلاسيكية، فإن ذلك لا يبعث على الرضا. ومع ذلك فإن جميع الفظائع ومظاهر النفاق والانحطاط التى نواجهها ليست كلها سوى تعبير مرئى وحتمى عن القانون الذى سبق شرحه. فويل للحمقى ولعبدة الجمال، الذين يسألون كيف تسير الأمور ولا يتساءلون أبدا لماذا تسير على النحو الذى تسير عليه، وويل أيضا للمعارضة فى زمن يقل فيه مستوى النضج النسبى لدى الجماهير مثل زماننا هذا.

ففى فترات النضج يصبح واجب المعارضة ودورها هو أن تتجه إلى الجماهير، أما فى فترات عدم النضج الفكرى، يكون الغوغاء مصدر إلهام الشعب ومثله الأعلى فى الحكم على الأشياء. فى مثل تلك الظروف يكون أمام المعارضة خياران: إما الحصول على الحكم عن طريق الانقلاب، دون التعويل على تأييد الجماهير، أو أن تلقى بنفسها فى يأس وبهدوء من فوق الأرجوحة لتموت فى صمت.

وهناك خيار ثالث لا يقل اتساقا عن غيره، وهو خيار تطور فى بلادنا ورسخ فصار نظاما: وهو إنكار المرء وقمعه لسائر معتقداته ما دام أنه ليس هناك سبيل لوضعها موضع التنفيذ، وحيث إننا لا نعترف بمعيار أخلاقى غير معيار المنفعة الاجتماعية، فإن إعلان المرء تبرؤه من آرائه على الملأ ليبقى فى صفوف الحزب أكثر شرفا دون شك من المضى فى صراع ميئوس منه، مثل صراع دون كيشوت مع طواحين الهواء.

أما المسائل المتعلقة بالكبرياء الشخصى، والأفكار المتميزة السائدة فى أماكن أخرى ضد بعض أشكال امتهان الذات، وكذلك الشعور الشخصى بالإرهاق والتعب والاشمئزاز والعار، كل ذلك يجب أن يجتث من جذوره.

(٢)

كان روباشوف قد بدأ كتابة تأملاته حول "الأرجوحة" عقب سماع أول نوبة لنفير الصباح، الذى تلى إعدام بوجروف وزيارة إيفانوف. ولما حضر إليه طعام الإفطار، تناول رشفة من القهوة وترك بقية فنجانه يبرد، أما خط يده الذى اكتسب طابعا مشوشا وغير منتظم فى الأيام القليلة الأخيرة، فقد عاد من جديد إلى ثباته وانتظامه، وأصبحت حروفه أصغر، وصار منحنياته وزواياه المنفرجة زوايا حادة. وعندما قرأ خطه لاحظ التغيير الذى طرأ عليه.

وفى الحادية عشرة صباحا، أخرجوه للتريض كالمعتاد، واضطر للتوقف عن الكتابة. ولما وصل إلى الفناء، وجد أن جاره فى الصف لم يكن ريب فان ونكل، وإنما كان فلاحا نحيفا يلبس حذاء من لحاء الشجر، كما لم يظهر ريب فان ونكل فى جميع أرجاء الفناء. وتذكر روباشوف عندئذ أنه افتقد ساعة الإفطار الرسالة المعتادة: "انهضوا يا أشقياء الأرض" وبدا أنهم أخذوا العجوز بعيدا إلى مكان لا يعلمه إلا الله. كان مسكينا ومهلهلا كالفراشة التى امتد بها العمر بأعجوبة من العام الماضى إلى هذا العام، لتظهر فى غير موسمها وتخفق بأجنحتها مرتين

أو نحو ذلك دون أن تبصر فى مسارها شيئا، ثم تسقط فى التراب فى أحد الأركان.

ومضى الفلاح فى بادئ الأمر فى سكون إلى جوار روباشوف وهو يتفرسه من الجانب، وبعد أن أتم الرجلان أول دورة، تنحنح الفلاح عدة مرات، وبعد جولة أخرى قال: أنا من المقاطعة (د) هل زرتها يا صاحب السعادة؟

وأجاب روباشوف بالنفى. وكانت (د) مقاطعة تقع بمنأى عن الطريق من جهة الشرق، وكانت فكرة روباشوف عنها غامضة بعض الشيء.

وقال الفلاح: "إنها تبعد عن هنا مسافة كبيرة بالطبع، ولابد أن تمتطى ظهور الإبل كى تصل إليها. هل أنت من السادة السياسيين يا صاحب السعادة؟"

أقر روباشوف بذلك. كان حذاء الفلاح المصنوع من لحاء الشجر قد تآكل نصف نعله، ولذلك كان الفلاح يمشى بأصابع قدمه الحافية على الثلج الذى يكسو الأرض، وكانت رقبته نحيلة وكان يومئ برأسه دائما وهو يتكلم، كأنه يؤمن على دعاء الصلاة.

وقال الفلاح : "أنا أيضا سياسى ورجعى على وجه التحديد، وهم يقولون إن جميع الرجعيين يجب إبعادهم لمدة عشر سنوات. فهل ترى أنهم سينفوننى لمدة عشر سنوات يا صاحب السعادة"؟

وأومأ برأسه ونظر بعينين نصف مفتوحتين نحو السجانين عند منتصف الطابور الدائرى؛ حيث كانوا يشكلون مجموعة صغيرة يضربون الأرض بأرجلهم دون أن يعيروا السجناء اهتماما.

وسأله روباشوف: "ما جريرتك؟"

فقال الفلاح : "لقد تبين أنى رجعى عند حقن الأطفال بالإبر، ففى كل عام ترسل الحكومة إلينا لجنة، ومنذ عامين أرسلت إلينا هذه اللجنة جرائد لنقرأها وصورا كثيرة لأعضائها، وفى العام الماضى أرسلت إلينا اللجنة آلة لدرس المحاصيل وفرشا للأسنان. أما فى هذا العام، فقد أرسلت إلينا أنابيب صغيرة ركبت فيها إبر لحقن الأطفال. وكانت هناك سيدة ترتدى بنطلونا رجاليًا أرادت حقن جميع الأطفال بالإبر، الواحد تلو الآخر. ولما وصلت إلى منزلى أوصدنا الباب أنا وزوجتى فى وجهها، وكشفنا عن رجعيتنا وأحرقنا جميعا الجرائد والصور وحطمنا ماكينة الدرس، وبعد ذلك بشهر جاءوا ليأخذونا.

غمغم روباشوف بشىء ما، وفكر فى استكمال مقاله عن الحكم الذاتى، وتذكر أنه قرأ ذات مرة عن مواطنى غينيا الجديدة، وهم من الناحية الفكرية لا يزيد مستواهم عن مستوى ذلك الفلاح، ومع ذلك عاشوا فى ظل توافق اجتماعى كامل. ومن العجيب أن لديهم مؤسسات ديمقراطية متطورة، فقد وصلوا إلى أعلى مستوى بالنسبة إلى حوض الهويس الواطئ.

وظن الفلاح أن سكوت جاره روباشوف علامة على عدم الموافقة فازداد تقوقعا وانطواء على نفسه، واكتست أصابع قدميه بزرقة من جراء البرد والخوف، وأخذ يتنهد من وقت إلى آخر ومضى مهرولا إلى جوار روباشوف وهو مشغول بمصيره.

وبمجرد أن عاد روباشوف إلى زنزانته، أخذ يواصل الكتابة ورأى أنه قد توصل إلى اكتشاف حول "قانون النضج النسبى"، وأخذ يكتب وهو فى حالة من التوتر الشديد. ولما حضر طعام الغذاء، كان قد فرغ لتوه من الكتابة ، والتهم جرايته من الطعام ، ورقد على ظهره فوق الفراش وهو يشعر بالرضا.

ونام لمدة ساعة فى هدوء لا تعكر الأحلام صفوه، ثم استيقظ وهو يحس بنشاطه يتجدد. كان رقم (٤٠٢) قد ظل يدق على الحائط لفترة، فمن الواضح أنه كان يشعر بأن روباشوف يهمله، وتساءل رقم (٤٠٢) عن هوية جار روباشوف الجديد فى الطابور، فقد رآه من النافذة، إلا أن روباشوف قاطعه وهو يبتسم بينه وبين نفسه ودق إليه بنظارته قائلا:

– إنى أستسلم.

وانتظر الرد فى شغف، ولكن رقم (٤٠٢) ظل صامتا وتأخر فى رده لمدة دقيقة بأكملها ثم جاء رده كالآتى:

– إن كنت مكانك لفضلت أن أشنق.

وابتسم روباشوف ودق إليه قائلا:

- كل منا يتصرف على حسب نوعه.

وتوقع أن يصب عليه رقم (٤٠٢) جام غضبه، لكنه بدلا من ذلك جاءته دقات (٤٠٢) مكتومة، ويبدو عليها الاستسلام وهو يقول لروباشوف:

- كنت أميل إلى الاعتقاد بأنك حالة استثنائية، لكن هل بقى فى نفسك مثقال ذرة من الشرف؟

استلقى روباشوف على ظهره وأمسك بنظارته فى يده، شاعرا بالرضا والسكينة يملآن قلبه ودق قائلا:

- إن مفاهيمنا عن الشرف تختلف.

ودق رقم (٤٠٢) فى سرعة ودقة عبارة:

- الشرف هو أن تحيا وتموت من أجل عقيدتك.

ورد روباشوف بالسرعة نفسها:

- الشرف هو أن تصبح نافعا دون أن يتملكك الغرور.

وأجابه رقم (٤٠٢) هذه المرة بدقات أعلى وأكثر حدة :

- الشرف هو المسلك المهذب، وليس ما ينفع.

فسأله روباشوف وهو يدق حروف عبارته على مهل وبوضوح:

- وما التهذيب؟

وكلما دق روباشوف فى هدوء، جاءته من الحائط دقات أكثر غضبا وعنفا.

أجاب رقم (٤٠٢) عن سؤال روباشوف بقوله:

- التهذيب أمر لن يفهمه أبدا من هم على شاكلتك.

وهز روباشوف كتفيه، ودق ردا على زميله:

- لقد استبدلنا العقل بالتهذيب.

ولم يرد رقم (٤٠٢) بعد ذلك.

وقبل موعد العشاء قام روباشوف بمراجعة ما سبق له أن كتبه، وصحح خطأ أو اثنين وصاغ كل ما سطره فى صورة خطاب موجه إلى المدعى العام للجمهورية، وأبرز الفقرات الأخيرة التى تتناول الخيارات البديلة المتاحة أمام المعارضة بأن وضع خطا تحتها، وذيل تلك الوثيقة بتلك الجملة الختامية:

أنا الموقع أدناه ن. س. روباشوف العضو السابق باللجنة المركزية للحزب، والقوميسار السابق للشعب، والقائد السابق للفيلق الثانى لجيش الثورة، وحامل الوسام الثورى للشجاعة فى مواجهة أعداء الشعب، قد قررت بعد بحث الأسباب الموضحة أعلاه التخلى بالكامل عن اتجاهى كمعارض، واستنكار ما اقترفته من أخطاء على الملأ.

(٣)

ظل روباشوف على مدى يومين فى انتظار اقتياده إلى إيفانوف، وقد كان يظن أنه سيقتاد إليه بمجرد تسليمه الوثيقة التى تعلن استسلامه إلى الحارس العجوز، وتصادف أنه سلم الوثيقة فى اليوم نفسه الذى تنتهى فيه المهلة التى أعطاها له إيفانوف، لكن من الواضح أن أحدا لم يكن يتعجل استسلام روباشوف. وربما كان إيفانوف منشغلا بدراسة النظرية التى وضعها روباشوف فى النضج النسبى، والأكثر احتمالا أن تكون الوثيقة قد تم تقديمها إلى السلطات الأعلى صاحبة الاختصاص.

وابتسم روباشوف عندما تصور حالة الاستغراب والدهشة التى لابد وأن تكون الوثيقة قد سببتها بين صفوف منظرى اللجنة المركزية، فقبل الثورة بل وبعدها بقليل - وذلك فى أثناء حياة الزعيم السابق - لم تكن هناك حدود تفصل بين المنظرين والساسة. فقد كانت التكتيكات المتبعة تستمد فى أى وقت من العقيدة الثورية مباشرة عن طريق الحوار المفتوح. فكل التحركات الاستراتيجية فى أثناء الحرب الأهلية فيما يتعلق باستيلاء النظام على الحاصلات الزراعية أو بتقسيم الأراضى وتوزيعها أو باستحداث عملة جديدة أو بإعادة تنظيم المصانع - وفى الواقع كل إجراء إدارى - كان يمثل فى حقيقة الأمر نوعا من الفلسفة التطبيقية. كما أن كل واحد - من أولئك الذين تظهر رؤوسهم مرقمة فى الصورة

القديمة التى كانت تزين جدران مكتب روباشوف فى يوم من الأيام - كان يعلم عن فلسفة القانون وعلم الاقتصاد السياسى وأصول إدارة الدولة أكثر مما يعرفه جميع الجهابذة، الذين يشغلون مناصب التدريس فى جامعات أوروبا. وكانت المناقشات التى تدور فى مؤتمرات الحزب فى أثناء الحرب الأهلية على مستوى لم يرق إليه أى تنظيم سياسى فى التاريخ. فهى شبيهة بالتقارير المنشورة فى الدوريات العلمية، مع اختلاف واحد هو أن حياة الملايين ورفاهيتهم تعتمد على ما تسفر عنه هذه المناقشات مثلما يتوقف مستقبل الثورة عليها.

أما الآن فقد أصبح الحرس القديم منهوك القوى، إذ إن منطق التاريخ يشير إلى أنه كلما كان النظام أكثر استقرارا، كتب عليه أن يصير أكثر جمودا، حتى يمنع القوى الديناميكية الهائلة التى أطلقتها الثورة من عقالها من الاتجاه نحو الداخل لتطيح بالثورة نفسها. لقد انقضى زمن التفلسف فى المؤتمرات وحلت محل الصورة القديمة بقعة باهتة اللون تظهر فوق ورق الحائط الذى يغطى غرفة إيفانوف، وذهب الحماس الثورى المتأجج لتحل محله فترة عقم مأمون العواقب، وتجمدت النظرية الثورية فأضحت عقيدة دوجماتية قاطعة صيغت فى شعارات مبسطة وسهلة الاستيعاب والحفظ كالأناشيد الكنسية، وأصبح رقم واحد مثل كبير الكهنة الذى يقيم القداديس. وقد اكتسبت أحاديثه ومقالاته - حتى فى أسلوبها - طابع المحفوظات الدينية المعصومة من الخطأ، فهى

مقسمة إلى أسئلة وأجوبة، كما أنها تدعو للدهشة من حيث تناسقها فى قدرتها على التبسيط الصارخ للمشكلات وحقائق الواقع. وليس ثمة شك فى أن رقم (١) كانت له غريزة تدفعه لتطبيق قانون النضج النسبى لدى الجماهير.... إن هواة الطغيان قد أجبروا رعاياهم على التحرك بأمر منهم، كما علّمهم رقم (١) ألا يفكروا إلا بأمره.

شعر روباشوف بالتسلية عندما فكر فيما يمكن لمنظُرى الحزب فى هذه الأيام أن يقولوه بشأن خطابه، ذلك الخطاب الذى يمثل فى الظروف الراهنة قمة الهرطقة؛ فالخطاب يتعرض بالنقد للرعيل الأول من دعاة هذه العقيدة، الذين كان كلامهم مقدسا لا يأتيه الباطل من خلف أو قدام. تعرض هؤلاء للنقد دون مواربة، وحتى شخص رقم (١) المقدس أشير إليه بموضوعية فى إطار سياقه التاريخى. ولهذا لابد أن يعتصر الألم هؤلاء المنظرين التعساء الذين يعيشون فى هذه الأيام، والذين لا عمل لهم بالطبع سوى مسح جوخ رقم (١) والطبل والزمر لتغيراته المفاجئة باعتبارها آخر اكتشافات الرؤى الفلسفية. لقد اعتاد رقم (١) على أن يمارس مع منظريه حيلا غريبة، فقد طلب ذات مرة تحليلا لأزمة الصناعة الأمريكية من لجنة الخبراء، التى تعد دورية الحزب الاقتصادية. واستغرق إعداد ذلك التحليل عدة شهور، وأخيرا ظهر عدد يثبت فيما يزيد عن ٣٠٠ صفحة صحة الفرض الذى طرحه رقم (١) - وهو ما جاء فى خطابه الأخير أمام المؤتمر - من أن الازدهار الأمريكى ازدهار

مزعوم، وأمريكا ما هى فى حقيقة الأمر إلا فى أسوأ مستويات الكساد، الذى لا تقضى عليه إلا الثورة الظافرة. وفى هذا اليوم نفسه الذى ظهر فيه العدد الخاص، استقبل رقم (١) صحفيا أمريكيا، فقلب أمامه الأمور رأسا على عقب بين نفسين من أنفاس غليونه عن طريق تلك العبارة الجزلة: "لقد انتهت الأزمة فى أمريكا، وعاد العمل إلى حالته الطبيعية من جديد". وعندئذ قام أعضاء لجنة الخبراء الذين توقعوا الفصل، وربما القبض عليهم بكتابة خطابات فى الليلة نفسها يعترفون فيها بأنهم أذنبوا بوضعهم نظريات مضادة للثورة وتحليلات مضللة وأكدوا ندمهم ووعدوا بالتكفير عن ذلك علنا، ولم يشذ عن ذلك سوى إيزاكوفتش المعاصر لروباشوف وهو الوحيد الذى ينتمى إلى الحرس القديم من بين هيئة التحرير، فقد فضل أن يطلق الرصاص على نفسه. ولقد أكد من حل محله بعد ذلك أن رقم (١) لم يفعل ذلك كله إلا لغرض وحيد فى نفسه هو أن يحطم إيزاكوفتش الذى كان يشتبه فى أن له ميولا معارضة.

خطر فى بال روباشوف أن الأمر برمته لم يكن سوى ملهاة هزلية، وقد رأى روباشوف أن كل ما ينطوى عليه هذا التحايل باسم الفلسفة الثورية هو مجرد وسيلة لتعزيز الدكتاتورية التى تبدو، كأنها حتمية تاريخية رغم أنها ظاهرة تدعو للإحباط، والويل لمن يأخذ تلك الملهاة مأخذ الجد، ولا يرى إلا ما يدور أمامه على خشبة المسرح دون أن يرى ما يجرى فى الكواليس. لقد كانت سياسة الحزب الثورية فيما مضى

توضع من خــلال مــؤتمرات علنيـــة، أمــا الآن فـــهى توضع من وراء الكواليس، وذلك أيضـا نتـيـجـة منطقـيـة لقـانون النضج النسـبى لدى الجماهير.

وأحس روباشـوف باشـتيـاق إلى العـمل داخل مكتبـة هادئة تضـاء بمصابيح خضراء، حتى يتمكن من إقامـة نظريته الجـديدة على أسس تاريخية. وكانت فترة المنفى دائما أكثر الفترات خصوبة وإنتاجا بالنسبة للفلسـفـة الثـورية، أو فـتـرات الراحـة الإجـبـارية بين فـتـرات النشـاط السـيـاسى. ومـشى روباشـوف جيـئة وذهـابا فى زنزانتـه تاركـا لخـيـاله العنان، بينما تداعبه فكرة قضاء العامين القادمين حبيس منفاه الداخلى، حين يطرده الحزب من ساحـتـه السـيـاسـيـة المقدسـة، وسـوف يتـيح له تراجـعـه على الملأ عن أفكاره المتنفس اللازم له. إن صـورة الاسـتسـلام الظاهرى لا تهم كثيرا، وينبـغى عليـهم الحصـول منـه على أكبر عدد من اعترافاته وإقراراته الموقعة بعـصـمـة رقم (١) من الخطأ بقـدر مـا تسـع الأوراق. وكل ذلك لا يـخرج عن كـونه مـسـألة ذوقـيـة وطقـوسـا بيـزنطيـة تولدت من ضـرورة ترسـيخ كل جـملـة فى أذهـان الجـمـاهـيـر عن طريق التبسيط المخل لها وتكرارها إلى مـا شاء الله. فكل ما يقدم على أنه حق، يجب أن يسطع ويلمع كأنه الأصفر الرنان، وما يقدم على أنه باطل يجب أن يبدو أسود كالقار، أما البيانات السياسـيـة فكانت بلون الدمى التى تصنع من حلوى الزنجبيل لتعرض فى الأسواق.

وفكر روباشوف فى أن السجين رقم (٤٠٢) لا يدرى عن هذه المسائل شيئا فمفهومه الضيق عن الشرف يرجع إلى حقبة سابقة. أما عن معنى التهذيب فإنه نمط من التقاليد لا يزال مرتبطا بعادات وقواعد الفرسان النبلاء. أما المفهوم الجديد للشرف فينبغى أن يصاغ بصورة مختلفة: وهى أن تخدم دون غرور أو خيلاء حتى تصل بالأمور إلى نتيجتها النهائية... فعندما أعلن رقم (٤٠٢) لروباشوف "أن الموت أفضل من أن يدنس المرء شرفه" خيل إليه أنه يبرم شواربه وهو يتكلم. إن هذا هو التعبير الكلاسيكى عن الغرور الشخصى. وقد كان رقم (٤٠٢) يدق عباراته مستخدما المونوكل. أما روباشوف فكان يدق بنظارته التى ليس لها ذراعان، وهذا هو كل الفرق. وكان كل ما يهم روباشوف الآن هو أن يعمل فى سلام فى مكتبة ينشئ فيها أفكاره الجديدة. وقد يحتاج لسنوات عديدة ليخرج مجلدا ضخما قد يكون أول مفتاح نافع لفهم تاريخ المؤسسات الديمقراطية من شأنه أن يلقى الضوء على التحركات البندولية لسيكولوجية الجماهير، التى تظهر بصفة خاصة فى وقتنا هذا، والتى فشلت النظرية التقليدية لصراع الطبقات فى تفسيرها.

ومشى روباشوف فى زنزانته جيئة وذهابا وهو يسرع الخطى ويبتسم فى داخله، فلا شىء يهمه ما دام يتاح له وقت لتطوير نظريته الجديدة، واختفت آلام أسنانه وأحس بأنه متيقظ تمام اليقظة، محب للمغامرة، ونافد الصبر متوتر الأعصاب.

انقضى يومان منذ الحوار الذى دار ليلا بينه وبين إيفانوف ومنذ أن بعث بإقراره. ومع ذلك لم يحدث شيء حتى الآن. أما الوقت الذى كان يمر على عجل فى أثناء الأسبوعين الأولين لاعتقاله فهو يمضى الآن بطيئًا وزاحفا، فقد تفككت الساعات إلى دقائق والدقائق إلى ثوان. لم يكن عمله متواصلا بل اتخذ شكل النوبات. وتوقف فى كل مرة عن العمل بسبب عدم توفر الوثائق التاريخية. كما كان يقف لمدد تصل كل منها إلى ربع الساعة للنظر من ثقب الباب على أمل أن يرى الحارس الذى سيقتاده إلى إيفانوف، لكن الممر كان مقفرا. وكان المصباح الكهربائى مضيئا كالمعتاد.

وقد كان يأمل فى بعض الأحيان أن يحضر إيفانوف بنفسه، لتتم جميع الشكليات المتعلقة بإقراره فى الزنزانة، الأمر الذى تطيب له نفسه أكثر. كما أنه فى هذه المرة لن يعترض على تقديم زجاجة البراندى إليه. وأخذ روباشوف يتمثل الحوار بالتفصيل، ويتصور كيف أنه سيقوم مع إيفانوف بإعداد صياغة رنانة لاعترافه بالذنب، ويتخيل تعليقات إيفانوف الطريفة الساخرة، التى سيطلقها فى أثناء كتابة اعترافاته. وأخذ روباشوف يروح ويغدو فى زنزانته مبتسما ينظر فى ساعته كل عشر دقائق.

أولم يعده إيفانوف فى تلك الليلة بالحضور إليه فى اليوم التالى مباشرة؟

وزاد نفاد صبر روباشوف واشتدت عليه الحمى ؛ فلم يتمكن من النوم لثالث ليلة بعد حديثه مع إيفانوف؛ كان يرقد على سريره وهو يستمع إلى الأصوات الخافتة المختنقة التى تصل إليه من المبنى، وأخذ يتقلب على جنبيه وأحس لأول مرة منذ اعتقاله بحاجته إلى جسد نسائى دافئ إلى جانبه.

وحاول أن يتنفس بانتظام حتى يستغرق فى النوم، لكن لم يزده ذلك إلا توترا. وجاهد نفسه لفترة طويلة ليثنيها عن البدء فى حديث مع السجين رقم (٤٠٢)، الذى لم يعد يسمع له صوت منذ أن سأله: وما التهذيب؟

ولما انتصف الليل وهو راقد فى فراشه لثلاث ساعات دون نوم، محدقا فى الجريدة التى تكسو لوح الزجاج المكسور - لم يعد يطيق صبرا، فدق على الحائط بمفاصل ظهر يده. وانتظر الرد فى شوق، ولكن الجدار ظل صامتا. فدق ثانية وانتظر. وشعر بشدة الهوان والمذلة تتصاعد فى رأسه؛ لأن رقم (٤٠٢) لم يعنَ بالرد عليه. فى حين كان روباشوف متأكدا من أنه يرقد مستيقظا على الجانب الآخر من الحائط، يقتل الوقت باجتراره ذكريات مغامراته القديمة، فقد اعترف لروباشوف من قبل بأنه لا يمكنه النوم قبل الساعة الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل، وبأنه قد عاد إلى ممارسة عادات صباه.

ورقـد روباشـوف على ظهـره وجـال بناظريه فى الظلام، ضـاغطا بجسده على حشية السرير التى فقدت سمكها تحته، وكانت البطانية دافئة أكثر مما ينبغى ومتشبعة برطوبة كريهة من عرق جلده، لكنه ارتعد عندما أماطها عنه. وكان يدخن لفافته السابعة أو الثامنة على التوالى، وتناثرت أعقاب السجائر حول السرير على الأرض الحجرية. وسكنت الأصوات فلم يعد لها أثر، وتجمد الزمـان فى مكانه كأنه ظلام ليس له شكل أو ملمح، وأطبق روباشوف أجفانه وتخيل أرلوفا ترقد بجانبه، ولاحت له خلال الظلام استدارة ثدييها التى كان يعهدها، ونسى أنهم جروها على الأرض عبر الممر كما حدث لبوجروف، وصار الصمت كثيفا حتى بدا كأن له طنينا وسلطانا، وتساءل روباشوف عما يفعله ألفان من السجناء تحيطهم جدران الزنازين فى هذا المكان الشبيه بخلية النحل؛ فلقد زادت أنفاسهم غير المسموعة، وأحلامهم غير المرئية، وشهقاتهم المكتومة رغبة ورهبة، من كثافة ذلك الصمت.

لو أن التاريخ مسألة حسابية فما هو وزن ألفى كابوس، وما قوة ضغط ألفى رغبة جامحة لكنها عاجزة؟ إنه يشعر الآن بعطر أرلوفا الذى يذكره بالعطر الذى استخدمته أخواته البنات، أما جسده المغطى بالبطانية المصنوعة من الصوف فكان يقطر عرقا.

واندفع باب الزنزانة مفتوحا محدثا خشخشة، وانطلقت أشعة الضوء من الممر لتهاجم عينى روباشوف.

ورأى اثنين من المسئولين فى زيهما الرسمى وقد تمنطق كل منهما بجراب فيه مسدس، لكنهما كانا غريبين عليه. واقترب أحدهما من مضجعه. كان طويل القامة ذا وجه وحشى القسمات وصوت أجش بدا لروباشوف عاليا، وأمر الرجل روباشوف أن يتبعه، دون أن يخبره إلى أين يذهب.

وتحسس روباشوف باحثا عن نظارته تحت البطانية، ثم وضع النظارة على عينيه ونهض من مخدعه، وأحس وهو يسير فى الممر إلى جانب العملاق ذى البزة الرسمية والذى يزيد طوله عنه بقامة رأس بأنه مرهق للغاية، أما الرجل الآخر فكان يمضى خلفهما.

ونظر روباشوف إلى ساعته ووجد أنها الثانية صباحا، مما يدل على أنه لابد وأنه أخلد للنوم. ومضى الثلاثة فى الطريق المؤدية إلى حانوت الحلاق، وهو الطريق نفسه الذى أخذوا بوجروف عبره. وظل المسئول الثانى خلف روباشوف وعلى بعد ثلاث خطوات منه. وأحس روباشوف برغبة فى أن يدير رقبته حتى يحك قفاه، لكنه منع نفسه من أن يفعل ذلك. وقال لنفسه إنهم لا يستطيعون توجيه ضربة قاضية لى دون اتباع الشكليات، ودون الاقتناع التام بهذا الإجراء. ولم يكن الأمر يعنيه كثيرا فى تلك اللحظة، فقد كان كل ما يتمناه هو الانتهاء من هذا الأمر على وجه السرعة. وحاول أن يعرف ما إذا كان خائفا أم لا، لكنه لم يستشعر غير الإحساس بعدم الارتياح البدنى الناجم عن عدم استطاعته إدارة وجهه نحو الرجل الذى يمشى خلفه.

ولما اجتازوا الركن الذى يقع خلف حانوت الحلاق، بدا له السلم الضيق المؤدى إلى القبو. وراقب روباشوف العملاق الذى بجواره ليعرف ما إذا كان سوف يبطئ سرعته خطوة. وكان روباشوف لا يزال غير عابئ بالخوف، لا يحس إلا بحب الاستطلاع وعدم الارتياح. ولكن عندما اجتازوا السلم لاحظ فى دهشة أن قدميه ترتعشان. ولذلك كان عليه أن يتمالك نفسه، لكنه وجد نفسه فى الوقت نفسه يدعك نظارته فى أكمامه بصورة لا إرادية، ويبدو أنه قد خلعها دون أن يلاحظ قبل أن يصل عند حانوت الحلاق، وجال بخاطره أن العملية بأكملها نصب فى نصب وخداع فى خداع. قد يخدع المرء النصف العلوى من جسده، ولكن ليس بمقدوره أن يخدع نصفه السفلى، ولكنه يعلم كل شىء من البطن وما يليها "لو أنهم ضربونى الآن فسأوقع على أى شىء يريدونه وإن كنت سوف أتراجع غدا..."

وبعد أن قطع خطوات قليلة أخرى خطرت بباله "نظرية النضج النسبي" مرة ثانية، كما جال بخاطره أنه قرر أن يستسلم ويوقع صك الاستسلام، وانتابه شعور بالارتياح الشديد، لكنه فى الوقت نفسه سأل نفسه فى دهشة: كيف يمكن أن ينسى تماما كل القرارات التى اتخذها فى الأيام القليلة الماضية. وتوقف العملاق وفتح الباب وانتحى جانبا. ورأى روباشوف أمامه غرفة مماثلة لغرفة إيفانوف فى كل شىء إلا فى إضاءتها الساطعة المزعجة، مما أصاب عينيه بصدمة. وفى مواجهة

الباب كان جلتكين جالسا خلف مكتبه. وأغلق الباب خلف روباشوف، ونظر إليه جلتكين من خلال أكوام الوثائق وقال: "تفضل بالجلوس". قالها فى نغمة جافة لا رونق لها، نغمة استقرت فى ذاكرة روباشوف منذ أول مشهد رآه فى زنزانته. كما تعرف أيضا على أثر الجرح الكبير فى رأس جلتكين رغم أن وجهه كان مغمورا بالظل، فقد كان مصدر الإضاءة الوحيد فى الغرفة عبارة عن مصباح مثبت على حامل طويل من المعدن وضع خلف مقعد جلتكين. وكاد الضوء الأبيض الساطع المنبعث من المصباح القوى أن يخطف بصر روباشوف لدرجة أنه لم يلحظ إلا بعد مرور بضع ثوان، وجود شخص ثالث فقد كانت السكرتيرة تجلس إلى منضدة صغيرة وأمامها ساتر، وقد أدارت للغرفة ظهرها.

وجلس روباشوف فى مواجهة جلتكين على المقعد الوحيد أمام المكتب، وكان المقعد غير مريح وبغير أذرع.

وقال جلتكين: "أنا مكلف بالتحقيق معك فى أثناء غياب القوميسار إيفانوف". وتعرضت عينا روباشوف للأذى بسبب انعكاس ضوء المصباح. كما شعر بأنه إذا وجه خده ناحية جلتكين فسيكون تأثير الضوء على طرف عينه غير مريح بالدرجة نفسها تقريبا. ولو أنه تحدث ورأسه مائلة إلى الخلف فسيبدو فى وضع مثير للضحك والحرج.

قال روباشوف: "أفضل أن يحقق معى إيفانوف". فقال له جلتكين: "السلطات هى التى تعين القاضى المختص بالتحقيق، ومن حقك إما أن

تدلى بأقوالك أو أن تمتنع عن الإدلاء بها، وفى مثل حالتك يعد الامتناع تنصلا من الإقرار الذى كتبته منذ يومين باستعدادك للاعتراف، وبذلك ينتهى التحقيق من تلقاء نفسه. ويترتب على ذلك أن أنفذ الأوامر الصادرة لى بإرسال قضيتك إلى السلطات المختصة، التى ستصدر حكما إداريا فى شأنك".

فكر روباشوف فى ذلك سريعا. فمن الواضح أن شيئا قد ألم بإيفانوف. فربما أعطوه إجازة مفاجئة، أو طردوه أو قبضوا عليه. وربما يرجع ذلك إلى أنهم تذكروا صداقته القديمة لروباشوف، أو لأنه كان ألمعيا ومتفوقا عليهم من الناحية الذهنية، أو ربما لأن ولاءه لرقم (١) كان قائما على التفكير المنطقى وليس على الثقة العمياء. لقد كان ذكيا أكثر من اللازم وينتمى إلى الحرس القديم، أما المدرسة الجديدة فيمثلها جلتكين بأساليبه... صحبتك السلامة يا إيفانوف. لم يكن لدى روباشوف وقت للرثاء، فعليه أن يفكر سريعا لكن الضوء الغامر منعه من ذلك. وخلع نظارته وطرفت عيناه. فقد كان يعلم أنه دون النظارة يبدو عاريا وعاجزا، وأن عينى جلتكين الخاليتين من التعبير تسجلان كل ما يلوح فى وجهه. ولو أنه سكت الآن فسوف يضيع، لأنه لا مجال للعودة للوراء. وعلى الرغم من أن جلتكين مخلوق منفر، فإنه يمثل الجيل الجديد الذى يتعين على الجيل القديم أن يتفاهم معه وإلا سحقه، ليس ثمة بديل آخر، وشعر روباشوف فجأة بأن العمر قد تقدم به، ولم يكن هذا الشعور قد خالجه

من قبل، ولم يسبق له التفكير بأنه فى العقد الخامس من عمره. ووضع نظارته على عينيه وحاول أن يواجه نظرة جلتكين المحملقة، لكن شدة سطوع الضوء جعلت عينيه تدمعان فخلع نظارته مرة أخرى وقال محاولا إخفاء نبرة الغضب فى صوته:

"أنا مستعد للإدلاء بأقوالى، لكن على شريطة أن تكف عن ألاعيبك معى، فلتطفئ هذا الضوء الذى يخطف الأبصار، ولتدخر تلك الأساليب للنصابين ولقوى الثورة المضادة".

قال جلتكين فى صوت هادئ: "إنك لست فى موقف يسمح لك بأن تملى شروطا، ولا أستطيع أن أغير إضاءة غرفتى من أجلك. إنك تبدو غير مدرك لوضعك تمام الإدراك، وخاصة أنك متهم بالقيام بأنشطة مضادة للثورة، وأنك خلال الأعوام الأخيرة أعلنت مرتين اعترافك بتلك الأنشطة على الملأ. إنك تخطئ إذا ظننت أنك ستخرج هذه المرة دون أن تدفع الثمن".

فكر روباشوف: "أيها الخنزير... أيها الخنزير القذر الذى يرتدى بزة رسمية". وأحس بأن حمرة الغضب قد اعترت وجهه، وعلم أن جلتكين لاحظ ذلك. ترى كم هو عمر جلتكين هذا؟ ست وثلاثون سنة أو سبع وثلاثون على الأكثر. ولابد أنه قد شارك فى الحرب الأهلية فى شبابه، وشهد اندلاع الثورة وهو مجرد صبى. هذا هو الجيل الذى بدأ يفكر بعد أن اكتسح الطوفان كل شىء. هو جيل لا يعرف تقاليد ولا ذكريات تربطه

بالعالم القديم البائد، إنه جيل ولد دون حبل سرى. ومع ذلك فالحق معه، ويتعين على المرء أن يقطع ذلك الحبل السرى متخليا عن آخر رباط يربطه بمفاهيم العالم القديم الواهية عن الشرف والتهذيب الذى يتسم بالرياء؛ فالشرف هو أن يخدم المرء المجتمع دون غرور أو كبرياء، ويجود بذاته إلى آخر مدى.

وهدأت أعصاب روباشوف تدريجيا وظل ممسكا بنظارته فى يده، وأدار وجهه نحو جلتكين، وكان يشعر بالتعرى أكثر كلما أحس أنه مضطر إلى إغماض عينيه، غير أنه لم يعد يأبه لذلك الشعور. وتراءى له وميض ضوء أحمر من وراء أجفانه المغلقة. إنه لم يشعر من قبل بمثل هذا الإحساس العميق بالوحدة.

قال روباشوف بعد أن فارقت النبرة الحادة صوته: "سوف أفعل كل ما من شأنه أن يخدم الحزب". وظل مغمضا عينيه وهو يقول: "أرجوك أن تذكر لى الاتهامات الموجهة ضدى بالتفصيل، لأن ذلك لم يحدث حتى الآن".

وسمع روباشوف ما لم تره عيناه الطارفتان.. سمع حركة قصيرة تندى عن جسم جلتكين المتصلب. كما سمع صوت سوارى قميصه وهما يحتكان بذراعى المقعد. ثم تنفس جلتكين فى شىء من العمق وكأن كل جسده قد استرخى للحظة. واستنتج روباشوف أن جلتكين يذوق حلاوة

انتصار العمر، فالتخلص من شخص كروباشوف يعني بداية مستقبل عظيم بالنسبة إليه. وحتى دقيقة واحدة لم يكن جلتكين متأكدا من نجاحه ورجحان كفته، ومصير إيفانوف ماثل أمامه.

واكتشف روباشوف فجأة أنه يملك سلطانا على جلتكين مثل السلطان الذى يملكه جلتكين عليه، وقال لنفسه فى ابتسامة ساخرة: ها أنا ذا أقبض على عنقك يا غلامى، إن كلا منا يمسك بعنق الآخر، فإذا ألقيت بنفسى من فوق الأرجوحة فسأهوى بك معى. وداعبت تلك الفكرة عقل روباشوف للحظة، بينما كان جلتكين بصلابته وصرامته المعهودتين يبحث فى الوثائق. ثم تخلى روباشوف عن هذا الإغراء وأغمض عينيه المتألمتين وقال لنفسه: "على المرء أن يتخلص من آخر ذرة يملكها من الزهو بنفسه، وما الانتحار إلا صورة معكوسة من صور الزهو". إن هذا الجلتكين يعتقد بالطبع أن حيله هو وليست محاجات إيفانوف هى التى دفعتنى للاستسلام. ومن الجائز أن جلتكين نجح فى إقناع السلطات العليا بهذا. وبذلك تسبب فى سقوط إيفانوف.. أيها الخنزير. قالها روباشوف هذه المرة لنفسه دون غضب. أيها الوحش الكاسر ذو البزة الرسمية الذى صنعناه بأيدينا. أيها الهمجى فى هذا العصر الجديد الذى يبدأ الآن، إنك لا تفهم القضية ولكن لو أنك فهمتها فستصبح عديم الجدوى بالنسبة إلينا. ولاحظ روباشوف أن إضاءة المصباح قد زادت درجة فى سطوعها. عرف روباشوف أن هناك تجهيزات خاصة لرفع

وخفض قوة تلك المصابيح العاكسة فى أثناء الاستجواب. واضطر إلى أن يلتفت برأسه تماما بعيدا عن الضوء ويمسح عينيه الدامعتين، وقال فى نفسه ثانية: "ومع ذلك أيها الوحش فإننا لا نحتاج الآن إلا لجيل من الوحوش أمثالك".

وبدأ جلتكين فى قراءة صحيفة الاتهام.

وأصبح صوته الرتيب يثير الغضب أكثر من ذى قبل.

واستمع له روباشوف بعينين مغمضتين ورأس مائلة للوراء، كان قد قرر أن يعتبر اعترافاته مجرد مسألة شكلية وملهاة عبثية حتى وإن كانت ضرورية، لا يفهم من مضمونها العويص سوى العليم ببواطن الأمور، إلا أن نص صحيفة الاتهام الذى كان جلتكين يقرأه تجاوز أسوأ التوقعات وأكثرها سخفا. فهل كان جلتكين يعتقد حقا أن روباشوف خطط فعلا تلك المؤامرات الطفولية الساذجة؟ وأنه لم يشغل تفكيره شىء آخر طيلة أعوام بأكملها سوى هدم البناء الذى وضع أساسه هو ومن معه من الحرس القديم؟ وهل ظن جلتكين أن كل هؤلاء الرجال من ذوى الرؤوس المرقمة فى الصورة التى كانت معلقة فى المكاتب والذين كانوا أبطالا إبان طفولته، قد سقطوا جميعا وأصبحوا فجأة ضحايا لوباء جعلهم جميعا أشرارا وفاسدين، ولا هم لهم سوى تدمير الثورة؟ تدميرها عن طريق وسائل يبدو أن أصحاب التكتيكات السياسية العظام قد استعاروها من قصة بوليسية رخيصة.

ومضى جلتكين يتلو الاتهامات فى رتابة ودون أى تغيير فى النبرة وبنفس الصوت الأجرد الخالى من أية تلوين، كأنه صوت أولئك الذين تعلموا الأبجدية بعد أن شبوا عن الطوق.

كان لتوه يقرأ عن المفاوضات المزعومة التى أجراها روباشوف مع ممثل إحدى القوى الأجنبية، والتى زعموا أنها بدأت فى أثناء إقامته فى دولة (ب) بهدف إعادة النظام القديم إلى الحكم بالقوة، وذكر اسم الدبلوماسى الأجنبى الذى تفاوض معه والوقت والمكان الذى اجتمعا فيه، وبدأ روباشوف الآن يستمع بانتباه، وومضت فى ذاكرته صورة مشهد صغير غير ذى أهمية، كان قد نسيه آنذاك، ولم يفكر فيه ثانية. وفتش بسرعة فى ذاكرته عن التاريخ بالتقريب، فوجده يتفق مع ما قاله جلتكين. إذن فذلك هو الحبل الذى أعدوه للفه حول رقبته.. وابتسم روباشوف ودعك عينيه الدامعتين بمنديله...

ومضى جلتكين يقرأ عريضة الاتهام دون توقف فى جمود ورتابة مميتة. تساءل روباشوف فى نفسه: "هل هو مصدق لما يقرأ حقا؟ ألا يدرك ما يتضمنه النص الذى يتلوه من عبث مثير للضحك؟

وصلت تلاوة الاتهامات الآن إلى الفترة التى كان روباشوف يعمل فيها رئيسا لشركة الألمنيوم، وأخذ جلتكين يقرأ إحصاءات تبين مدى الفوضى المروعة التى تفاقمت سريعا فى هذا المجال الصناعى، إحصاءات تبين أعداد العمال الذين راحوا ضحايا لحوادث، وسلسلة

الطائرات التى تحطمت نتيجة لاستخدام خامات الألومنيوم المعيبة. كل ذلك كان نتيجة للتخريب الشيطانى الذى مارسه روباشوف، ولقد وردت كلمة (شيطاني) عدة مرات فى هذا النص بين الألفاظ التقنية وجداول الأرقام. وللحظات قليلة، تسلى روباشوف بفكرة أن جلتكين قد جن. وأعاد ذلك الخلط بين المنطق والعبث صورة الشيزورفرانيا المنتظمة إلى ذهنه، لكن جلتكين ليس هو الذى وضع لائحة الاتهام، فقد كان مجرد قارئ لها. وهو إما مصدق لها بالفعل، أو على الأقل يرى أن لها وجاهتها.

وأدار روباشوف رأسه نحو كاتبة الجلسة فى ركنها الضعيف الإضاءة، ووجدها ضئيلة الحجم نحيلة وتضع على وجهها نظارة. كانت تبرى قلمها الرصاص فى ثبات ورباطة جأش دون أن تدير وجهها نحوه ولو مرة واحدة. ومن الواضح أنها هى أيضا كانت تعتبر الفظائع التى كان يقرأها جلتكين أمورا مقنعة، كانت لا تزال صغيرة السن، ربما كان سنها خمسة وعشرين أو ستة وعشرين عاما. لقد شبت هى أيضا بعد الطوفان. فما الذى يعنيه اسم روباشوف لهذا الجيل الجديد من سلالة إنسان نياندرتال؟(*)

وظل روباشوف جالسا أمام ضوء المصباح العاكس الذى يخطف نوره الأبصار، دون أن يقدر على فتح عينيه المبللتين بالدموع لفترة، وظل يستمع لهم وهم يقرأون عليه فى أصوات رتيبة وينظرون إليه بأعين خالية من التعبير ومن الاكتراث، كأنه شيء ممدد على منضدة التشريح.

(*) أول إنسان بدائى فى سلسلة التطور يظهر على الأرض. (المترجم)

ووصل جلتكين إلى آخر فقرة فى صحيفة الاتهام، حيث توج الادعاءات بمؤامرة حاكها روباشوف لمحاولة اغتيال رقم (١)، وظهر من جديد المجهول الذى ذكره إيفانوف فى التحقيق الأول. واتضح أنه المدير المساعد للمطعم الذى يحضر لرقم (١) الوجبات الجافة فى الأيام التى يتزاحم عليه فيها العمل. وكان تناول الوجبات الخفيفة سمة من سمات حياة رقم (١) ذات الطابع المتقشف، التى كانت وسائل الدعاية تبرزها بمنتهى العناية. ومن خلال تلك الوجبات الجافة التى اشتهر بها رقم (١) قام مجهول بتحريض من روباشوف بالإعداد لإنهاء حياة رقم (١) قبل الأوان. وابتسم روباشوف بينه وبين نفسه وهو مغمض العينين. وحين توقف جلتكين عن القراءة فتح روباشوف عينيه؛ ليرى جلتكين ينظر إليه. وبعد ثوان من الصمت قال جلتكين فى نبرته الرتيبة المعتادة، مقررا أكثر منه متسائلا: "إنك قد سمعت الادعاء وتقر بأنك مذنب؟".

وحاول روباشوف أن ينظر فى وجهه لكنه لم يستطع، واضطر لغلق عينيه ثانية. كانت على طرف لسانه إجابة لاذعة لكنه قال بدلا منها فى هدوء جعل السكرتيرة النحيفة تمد رقبتها حتى تسمع: "إننى مذنب لأنى لم أفهم الضرورة الملحة المميتة وراء سياسة الحكومة، الأمر الذى جعلنى أعتنق وجهات نظر معارضة. إننى مذنب لأنى اندفعت وراء عواطفى التى اقتادتنى إلى الوقوع فى تناقض مع حتمية التاريخ، وأعرت أذنى لأنات الضحايا حتى صرت أصم لا أسمع الحجج والمبررات التى تثبت ضرورة

التضحية بهم. أقر بأننى مذنب لأنى وضعت مسألة الذنب والبراءة فى مكانة أعلى من مسألة النفع والضرر. وأخيرا، أقر بذنبى لأنى وضعت فكرة الإنسان الفرد فوق فكرة الجنس البشرى...".

وتوقف روباشوف وحاول أن يفتح عينيه ثانية وطرفت عيناه وهو ينظر فى اتجاه ركن السكرتيرة، وقد مال برأسه بعيدا عن الضوء، وكانت السكرتيرة قد انتهت لتوها من تدوين أقواله، واعتقد روباشوف أنه رأى ابتسامة ساخرة ترتسم على بروفيل وجهها.

ومضى روباشوف يقول: "أعرف أنه لو قدر لأفكارى المنحرفة أن توضع موضع التنفيذ لكانت خطرا محدقا بالثورة. إن كل معارضة فى لحظات التحول التاريخى العصيبة، تحمل فى طياتها بذور الشقاق فى الحزب، ومن ثم بذور الحرب الأهلية. إن الشفقة الإنسانية والديمقراطية الليبرالية نقاط ضعف عندما تفتقر الجماهير إلى النضج السياسى، وهما ليسا إلا انتحارا للثورة. ومن ثم فإن موقفى المعارض، الذى يقوم على اللهفة لتلك الأساليب الديمقراطية الإنسانية، موقف مدمر حقا رغم مظهره المحمود. وأنا أقر بأن المطالبة بإصلاح ليبرالى للدكتاتورية وبمزيد من الديمقراطية ونبذ الإرهاب، والتخفف من النظام الصارم داخل الحزب ضارة من الناحية الموضوعية فى الظروف الراهنة ولهذا فإنها تعد بطبيعتها مضادة للثورة...".

وسكت ثانية لأن حلقه جف وصوته بح، وسمع صوت قلم السكرتيرة وهو يجرى فوق الورق وسط السكون، ورفع رأسه قليلا وهو مغمض العينين، ومضى يقول:

"من هذه الناحية فقط يمكنك أن تسميني عنصرا مضادا للثورة، أما بالنسبة للادعاءات الجنائية المثيرة للسخرية، والتي وردت في صفحة الاتهام فلا علاقة لي بها".

وقال جلتكين: "هل انتهيت من كلامك؟" وبدا صوته قاسيا لدرجة أن روباشوف نظر إليه في دهشة، كما انعكست على الحائط المضاء بالنور ملامح جلتكين، وقد اعتدل كعادته في جلسته وراء المكتب، ولقد ظل روباشوف يسعى طويلا للوصول إلى تصور بسيط لشخصية جلتكين، فوجد أن أفضل وصف له هو "الوحشية السليمة".

ومضى جلتكين يقول في صوت جاف أجش: "إن أقوالك هذه ليست جديدة ففي اعترافاتك في المرتين السابقتين، سواء في المرة الأولى منذ عامين أو في المرة الثانية منذ اثنى عشر شهرا، أعلنت على الملأ أن اتجاهاتك من الناحية الموضوعية مضادة للثورة ومتعارضة مع مصلحة الشعب، وفي كلا المرتين طالبت في مذلة بعفو الحزب عنك، وأقررت بولائك لسياسة قادته. والآن تتوقع أن تلعب اللعبة نفسها للمرة الثالثة، والبيان الذي أدليت به الآن ما هو إلا ذر للرماد في العيون، فأنت تقر بموقفك المعارض، لكنك تنكر الأفعال المترتبة على ذلك الموقف من الناحية المنطقية.

– "لقد سبق أن قلت لك إنك لن تستسلم هذه المرة بسهولة".

وتوقف جلتكين فجأة كما بدأ فجأة، وفى فترة الصمت التى أعقبت ذلك سمع روباشوف أزيزا خافتا هو صوت مرور التيار الكهربائى فى المصباح الموضوع خلف المكتب، وفى الوقت نفسه ازدادت شدة الضوء درجة.

قال روباشوف فى صوت خفيض: "إن ما أعلنته فى ذلك الوقت كان لأغراض تكتيكية، وإنك لتعلم بالتأكيد أن كثيرا من الساسة المعارضين اضطروا لأن يشتروا بقاءهم فى الحزب بمثل هذه التصريحات، لكنى هذه المرة أعنى شيئا مختلفا عن ذلك".

وسأله جلتكين بسرعة دون أن يحمل صوته المنضبط شيئا من السخرية:

– أى أنك صادق هذه المرة؟

فرد روباشوف فى هدوء: "نعم".

– وكاذب فى المرات السابقة؟

فقال روباشوف: فلنقل أن الأمر كذلك.

– "لتنجو برقبتك".

– "لأظل قادرا على مواصلة العمل".

– "إن المرء لا يستطيع العمل دون رقبة، إذا فأنت تعنى إنقاذ رقبتك".

– "هو كذلك".

وفى الفترات القصيرة ما بين الأسئلة التى كان جلتكين يطرحها وبين إجاباته، لم يكن روباشوف يسمع إلا صوت احتكاك قلم السكرتيرة بالورق وأزيز المصباح، وكان المصباح يعكس فيضا من الضوء الأبيض، ويشع حرارة ثابتة اضطرت روباشوف إلى أن يمسح العرق المتصبب على جبهته، وغالب نفسه حتى يترك عينيه المتألمتين مفتوحتين. ولكن الفترات التى أغمض فيها عينيه أخذت تطول وتطول حتى شعر بميل متزايد للنوم. ولما انتهى جلتكين من إلقاء سلسلة الأسئلة السريعة مؤخرا سكت عن الكلام عدة لحظات، وأحس روباشوف فى قليل من الاهتمام بذقنه يتدلى على صدره، ولما أفاق على سؤال جلتكين الثانى كان لديه انطباع بأنه قد نام لفترة غير محددة.

وسمع صوت جلتكين يقول:

"أكرر أن إعلانك الندم فى المرات السابقة كان يهدف إلى خداع الحزب فيما يتعلق بآرائك الحقيقية وإلى إنقاذ رقبتك".

فقال روباشوف: "لقد أقررت بهذا".

– وهل كان لتنصلك علنا من سكرتيرتك أرلوفا الغرض نفسه؟

فأومأ روباشوف فى صمت، وأحس بأن الضغط الذى يؤلم مقلتيه يشيع فى جميع أعصاب الجانب الأيمن من وجهه، ولاحظ أن الألم فى

أسنانه أخذ يعاوده من جديد.

- أنت تعلم أن المواطنة أرلوفا كانت دائما تطالب بأن تكون أنت الشاهد الرئيسى فى الدفاع عنها.

فقال روباشوف: "لقد علمت بهذا".

وتزايدت آلام أسنانه.

كما تعلم أيضا - دون شك - أن ما أعلنته فى ذلك الوقت، وهو ما تصفه الآن بأنه كذب، كان عاملا حاسما فى إصدار حكم الإعدام ضد أرلوفا؟

- لقد أبلغونى بهذا.

وشعر روباشوف بأن نصف وجهه الأيمن بأكمله يتقلص، ورأسه صارت أكثر بلادة وثقلا، إلى حد أنه كان يجد صعوبة فى أن يمنعها من أن تتدلى فوق صدره، كما أصبح وقع صوت جلتكين فى أذنيه مملا.

- "إذا فهل من المحتمل أن تكون المواطنة أرلوفا بريئة؟"

فقال روباشوف بآخر ماتبقى من سخرية على لسانه.. تلك السخرية التى لها طعم الدم والمرارة: "من الجائز".

"هل تعلم أنها أعدمت نتيجة لما أدليت به من تصريح كاذب بغرض إنقاذ رقبتك؟"

فقال روباشوف: "تقريبا"، ثم قال لنفسه في غضب متئد عاجز: "يالك من وغد. صحيح أن ما تقوله هو الحقيقة العارية. إنى لأحب أن أعرف أينا الوغد الأكبر، لكنه ممسك بخناقى ولا أملك الدفاع عن نفسى، لأنه من غير المسموح لى بأن ألقى بنفسى من فوق الأرجوحة، آه لو تركنى أنام.. لو استمر فى تعذيبى لفترة طويلة لتراجعت عن كل ما قلته ورفضت الكلام حتى أضيع ويضيع معى أيضا.

ومضى صوت جلتكين يقول فى نفس النبرة القاسية المنضبطة: "ويعد كل هذا تطلب منى النظر إليك بعين التقدير والاعتبار، وتجرؤ على إنكار أنشطتك الإجرامية وتريد بعد كل هذا أن نصدقك"؟

وكف روباشوف عن بذل الجهد من أجل الإبقاء على هامته منتصبة فوق كتفيه. لقد كان جلتكين محقا بالطبع فى عدم تصديقه؛ إذ إن روباشوف نفسه كان قد بدأ يضيع فى متاهة الأكاذيب المحسوبة والادعاءات الجدلية فى الشفق الواقع بين الحقيقة والوهم. ورأى الحقيقة النهائية دائما تنأى عنه خطوة، ولم تظهر له سوى الأكذوبة قبل الأخيرة التى يتعين على المرء التفوه بها، ويتعين عليه خدمة الحقيقة بها. وكم أصابته تلك الحقيقة بتقلصات محزنة وبتلك الاهتزازات، التى لا يمكن السيطرة عليها والتى تصيب الأطفال والمعروفة برقصة القديس فيتوس.. لكن كيف يستطيع أن يقنع جلتكين بأنه صادق هذه المرة حقا، وبأن المطاف وصل به عند آخر محطة؟ إن المرء دائما ما يضطر إلى إقناع

بعض الناس والتحدث إليهم ومحاورتهم فى وقت لا تكون لديه أية رغبة فى أى شىء سوى النوم والاختفاء من الوجود.

قال روباشوف وقد أدار وجهه فى ألم فى الاتجاه الذى جاء منه صوت جلتكين:

"أنا لا أطلب شيئا سوى أن أثبت من جديد إخلاصى للحزب".

ورد عليه صوت جلتكين: "هناك برهان وحيد يمكنك أن تقدمه، وهو الاعتراف الكامل. لقد سمعنا بما فيه الكفاية عن اتجاهاتك المعارضة ودوافعك السامية، لكن ما نحتاج إليه هو اعتراف علنى كامل بأنشطتك الإجرامية، التى هى نتيجة حتمية لمثل هذه الاتجاهات. إن الطريقة الوحيدة التى يمكنك فى وقتنا هذا أن تخدم بها الحزب هى أن تضرب مثلا تحذيريا حتى يعتبر الناس ويتعلموا الدرس، وذلك بأن تظهر للجماهير من خلال شخصك العواقب المحتومة التى تؤدى إليها معارضة الحزب.

وفكر روباشوف فى تناول رقم (١) للوجبات الجافة الخفيفة، واشتد الضغط على أعصاب وجهه الملتهبة إلى أقصى حد، لكن الألم لم يعد حادا ومتأججا، وأصبح يحس الآن بنوبات من التنميل المكتوم وتقلصت عضلات وجهه حتى اكتسى بتكشيرة شائهة، وذلك عندما فكر فى تناول رقم (١) لتلك الوجبات.

قال بصوت ممل: "لا يمكنني الاعتراف بجرائم لم أقترفها".

فسمع صوت جلتكين يقول:

"لا... لا، إنك لا يمكنك ذلك بالتأكيد".

ولأول مرة بدا لروباشوف أنه يسمع شيئا يشبه السخرية فى صوت جلتكين.

ومنذ تلك اللحظة فصاعدا أصبح انطباع روباشوف عما دار فى التحقيق مشوشا. فبعد سماع عبارة "إنك لا يمكنك ذلك بالتأكيد"... تلك العبارة التى بقى صداها يرن فى أذنيه لما لها من جرس خاص، صار فى ذاكرته فراغ.. فراغ، غير محدد المدى، وبدا له بعد ذلك أنه نام، ومن الغريب أنه تذكر حلما سارا طاف به فى منامه، وربما استمر ذلك الحلم لبضع ثوان على الأكثر، وهو عبارة عن سلسلة غير مترابطة ومفككة، انطلقت فى الزمان لمشاهد طبيعية سنية وباهرة، تتخللها أشجار الحور المألوفة لديه، والتى كان الطريق الذى يشق ضيعة أبيه يزدان بها، كما رأى نوعا من السحاب الأبيض سبق له أن رآه يظلل تلك الأشجار أيام طفولته.

وكان الشىء الآخر الذى تذكره هو وجود شخص ثالث فى الغرفة يطغى صوت جلتكين على صوته. ولابد أن جلتكين كان واقفا خلف مكتبه ومنحنيا عليه – وهو يقول لهذا الشخص:

أرجو أن تحضر التحقيق، ثم خاطب روباشوف قائلا: هل تعرف هذا الشخص؟

أومأ روباشوف برأسه بعد أن تعرف فى الحال على ذى الشفة الأرنبية المتدلية رغم أنه لم يكن يرتدى معطفه الواقى من المطر الذى اعتاد أن يتدثر به، وقد انحنى ظهره من البرودة فى أثناء سيره فى الفناء. وتدافع فى مخيلة روباشوف صف مألوف من الأرقام مثل: ١ ناقص ١ ، ٢ ناقص ٣ ، ٤-٣ ، ١-٥ ، ٣-٢ ، ٢-, ٤.. وهى رموز الشفرة لرسالة التحية التى بعث بها ذو الشفة الأرنبية إلى روباشوف، وتساءل عن المناسبة التى بعث إليه فيها رقم (٤٠٢) بتلك الرسالة.

- "أين ومتى تعرفت عليه؟"

واحتاج روباشوف إلى قدر من الجهد كى يتكلم، وظل طعم المرارة عالقا بلسانه الظامئ وهو يقول: "لقد رأيته من النافذة مرارا وهو يتجول فى الفناء".

- "ألم تعرفه من قبل"؟

ووقف ذو الشفة الأرنبية بالباب على بعد بضع خطوات إلى الخلف من مقعد روباشوف، وانعكس ضوء المصباح بكامله على وجهه حتى بدا ناصع البياض بعد أن كان يبدو أصفر كعادته، وبدت أنفه مدببة، أما الشفة العليا المتشققة بلحمها المتهتك، فكانت ترتعش لتكشف عن لثة

عارية، وقد لمست يداه المتدليتان فى ارتخاء ركبتيه، ولقد رآه روباشوف - الذى ولى ظهره للمصباح - كأنه شبح، يظهر على خشبة المسرح نتيجة لانبعاث الضوء من أسفل. وتزاحمت فى ذاكرة روباشوف سلسلة أخرى من أرقام الشفرة: ٤ ناقص ٥، ٣ ناقص ٥، ٤ ناقص ٣. لقد عذب بالأمس وفى الوقت نفسه تقريبا، مرت بخاطره أطياف ذكرى لم يتمكن من استرجاعها.. ذكرى المرة التى شاهد فيها الأصل الحى لهذا الحطام البشرى قبل أن يدخل الزنزانة رقم ٤٠٤ بفترة طويلة.

وأجاب روباشوف فى تردد عن سؤال جلتكين قائلا:

«لا أعلم على وجه التحديد، لكنى بعد أن رأيته عن قرب، يبدو لى أننى قابلته فى مكان ما من قبل».

وحتى قبل أن يصل روباشوف إلى نهاية عبارته شعر بأنه ما كان ينبغى له أن يقول ما قال، وأحس برغبة شديدة فى أن يتركه جلتكين لبضع دقائق حتى يستجمع قواه. وذكره أسلوب جلتكين فى انهمار أسئلته فى سلسلة سريعة ومتلاحقة بصورة الطائر الجارح وهو ينهش فريسته بمنقاره.

سأله جلتكين: وأين قابلت هذا الرجل آخر مرة؟ إن دقة ذاكرتك كانت فى يوم من الأيام مضرب الأمثال فى الحزب.

التزم روباشوف الصمت وهو يفتش فى ذاكرته، لكنه لم يجد موضعا فيها لهذا الشبح اللائح تحت الضوء الساطع، بشفتيه

المرتعشتين. ولم يتحرك ذو الشفاه الأرنبية ، لكنه أخذ يحرك لسانه على القطع القانى فى شفته العليا. وجال بنظراته من روباشوف إلى جلتكين وبالعكس. وتوقفت السكرتيرة عن الكتابة، فلم يعد يسمع إلا أزيز المصباح وصوت سوارى قميص جلتكين، الذى انحنى إلى الأمام واتكأ بساعديه على يدى المقعد ليسأل سؤاله التالى:

إذن فأنت ترفض الإجابة؟

فأجاب روباشوف: "إنى لا أتذكر".

فقال جلتكين بعد أن انحنى إلى الأمام بدرجة أكبر، واتجه نحو ذى الشفة الأرنبية بكل جسمه: "هل لك فى مساعدة المواطن روباشوف قليلا حتى يتذكر؟ أين قابلته آخر مرة؟

وازداد وجه ذى الشفة الأرنبية بياضا، وتعلقت عيناه لثوان قليلة بالسكرتيرة التى كان قد اكتشف وجودها منذ قليل، لكنه سرعان ما تحول عنها ببصره كأنه هارب يبحث عن ملجأ يرتاح فيه، ولعق بشفتيه لسانه مرة أخرى، وقال على عجل ودون أن يلتقط أنفاسه:

"لقد حرضنى المواطن روباشوف على القضاء على زعيم الحزب بالسم".

وفى بادئ الأمر كان روباشوف مندهشا لهذا الصوت المنغم العميق، الذى خرج على غير توقع من هذا الحطام البشرى. وبدا صوته كأنه الشىء الوحيد الذى بقى سالما فيه. فقد كان ذلك الصوت يتناقض

تناقضا صارخا مع هيئته. ولم يتبين روباشوف ما قاله بالفعل إلا بعد مرور بضع ثوان، ولقد توقع روباشوف منذ أن وصل ذو الشفة الأرنبية أن يسمع شيئا من هذا القبيل، بعد أن اشتم رائحة الخطر، أما الآن فقد أصبح يشعر قبل كل شيء بمدى غرابة الاتهام المضحك. وبعد برهة، سمع صوت جلتكين يأتيه من خلفه هذه المرة، بعد أن ولى وجهه ناحية ذي الشفة الأرنبية. وجاءت نبرة صوت جلتكين حادة وغاضبة وهو يقول:

"أنا لم أسألك عن هذا بعد، لقد سألتك أين قابلت المواطن روباشوف آخر مرة؟"

قال روباشوف لنفسه: "إنه مخطئ، لكن لا ينبغي عليه أن يؤكد أن هذه الإجابة خاطئة، وما كان لي أن ألاحظ ذلك". وخيل إلى روباشوف أن رأسه قد صار صافيًا غاية الصفاء، وأنه في يقظة محمومة. وبحث عن شيء يشبه هذا الشاهد به، فوجد أنه كالأرغول الآلي، وأنه يعزف الآن نغمة نشازا، ثم جاءت الإجابة الثانية لذي الشفة الأرنبية.. ربما أكثر تنغيما:

«لقد قابلت المواطن روباشوف بعد حفل استقبال أقيم في مقر الوفد التجاري بدولة (ب). وهناك حرضني على القيام بخطتي الإرهابية التي تستهدف حياة زعيم الحزب".

وبينما كان يتحدث تعلقت نظرته الفزعة بروباشوف، واستقرت عنده، ولبس روباشوف نظارته ورد على نظرته بحب شديد للاستطلاع،

لكنه لم يقرأ فى عينى الشاب طلبا للصفح، بل ثقة أخوية وعتابا صامتا من معذب عاجز عن دفع الأذى عن نفسه.

وجاء صوت جلتكين من ورائه ثانية، واثقا ووحشيا:

"هل تذكر التاريخ الذى تمت فيه المقابلة؟"

فقال ذو الشفة الأرنبية فى صوت يتكلف السرور: "أذكر ذلك بالتحديد، فقد تمت المقابلة بعد حفل الاستقبال الذى أقيم بمناسبة العيد العشرين للثورة".

وظلت نظرات الشاب معلقة بعينى روباشوف مباشرة، وكأن فيها آخر بارقة أمل فى النجاة. وجالت بخاطر روباشوف ذكرى بدت له مشوشة بادئ الأمر، ثم صارت أكثر وضوحا.. وأخيرا عرف من هو ذو الشفة الأرنبية، لكن هذا الكشف لم يعطه إلا الإحساس بالدهشة الأليمة. فأدار رأسه نحو جلتكين وقال فى هدوء وعيناه تطرفان فى ضوء المصباح: "التاريخ صحيح، أنا لم أتعرف أول الأمر على نجل البروفيسير كييفر، لأنى لم أره سوى مرة واحدة قبل أن يسقط فى أيديكم، ويجوز لى أن أهنئك على نتيجة عملك".

إذن فأنت تقر بمعرفتك به، وبأنك قابلته فى اليوم والمناسبة المذكورين؟

قال روباشوف فى إعياء، وقد بارحت اليقظة المحمومة رأسه واختفت، وبدأ الصداع الكئيب يضرب رأسه من جديد:

"أنا لم أقل لك غير ذلك، ولو أنك أخبرتنى على الفور أنه ابن صديقى المسكين كييفر، لتعرفت عليه فى الحال".

فقال جلتكين : "إن اسمه بالكامل وارد فى صحيفة الاتهام".

أجاب روباشوف: لقد كنت أعرف البروفيسير كييفر، كما يعرفه غيرى من الناس باسمه المستعار ككاتب.

قال جلتكين بعد أن مال بجسده كله نحو ذى الشفة الأرنبية، كأنه يريد أن يسحقه فى الحيز الكائن بينهما بكل ما أوتى من قوة:

"هذه تفاصيل غير مهمة. استمر أنت فى أقوالك وقل لنا كيف تمت هذه المقابلة".

قال روباشوف لنفسه رغم ما يشعر به من ميل للنعاس "إنه يخطئ للمرة الثانية، فمن المؤكد أن ما قلته ليس بالتفاصيل العديمة الأهمية، فلو أنى حقا حرضت هذا الرجل على تلك المؤامرة البلهاء، لتذكرته منذ الإشارة إليه لأول مرة سواء ذكر اسمه أو لم يذكر".

إلا أن روباشوف كان متعبا لدرجة منعته من الاستفاضة فى هذا الشرح الطويل، كما أنه قد يضطر حينئذ إلى أن يدير وجهه صوب المصباح مرة أخرى، فمهما يكن الأمر، فإنه يستطيع الآن أن يولى جلتكين ظهره على الأقل.

وبينما كانا يتناقشان بشأن تحديد هوية ذى الشفة الأرنبية، وقف هذا الرجل برأس متدل وشفته العليا ترتعش فى الضوء الأبيض المتوهج، وفكر روباشوف فى صديقه القديم ورفيقه كييفرمؤرخ الثورة العظيم،

الذى كان يجلس على يسار الزعيم القديم فى الصورة الشهيرة التى تصور مائدة المؤتمر، حيث كان جميع المؤتمرين ملتحين وتوضع حلقات صغيرة مرقمة حول رؤوسهم، كأنها هالات من النور. لقد كان كييفر شريكا له فى المسائل التاريخية، وكذا كان شريكه فى لعبة الشطرنج، وربما كان صديقه الشخصى الوحيد. وبعد موت الزعيم القديم الذى كان روباشوف يعرفه عن قرب أكثر من غيره، كلف كييفر بكتابة سيرة حياته، فعكف على كتابة تلك السيرة أكثر من عشر سنوات، لكن لم يقدر لها أن تنشر. فقد تعرض النص الرسمى لقصة أحداث الثورة لتغير غريب خلال هذه السنوات العشر. وبات من الضرورى إعادة كتابة الأدوار التى قام بها أبطال الثورة الرئيسيون. فقد انقلب ميزان القيم، لكن كييفر العجوز كان عنيدا لا تلين له قناة ولا يفقه شيئًا عن الديالكتيك الداخلى للحقبة الجديدة فى عهد رقم (١).

وأخذ ذو الشفة الأرنبية يقص فى صوت منغم بطريقة غير طبيعية: "لما رجعت أنا ووالدى من المؤتمر الإثنوجرافى(*) الدولى الذى صحبته خلاله، عرجنا على دولة (ب)؛ حيث كان والدى يرغب فى زيارة صديقه المواطن روباشوف...".

واستمع روباشوف وهو يشعر بمزيج غريب من حب الاستطلاع والحزن الخفيف. فالقصة حتى الآن صحيحة، فقد أتى كييفرالعجوز لزيارته، مدفوعا بالحاجة إلى أن يبوح له بخلجات نفسه ويطلب منه

(*) دراسة الأجناس والسلالات البشرية وعاداتها . (المترجم)

إسداء النصيحة، وربما كانت الليلة التى قضياها معا آخر لحظة سرور فى حياة كييفر.

واستطرد ذو الشفة الأرنبية بعد أن تسمرت نظراته على وجه روباشوف، كأنه يستمد منه القوة والتشجيع، وقال:

"لم يكن بالإمكان أن نمكث أكثر من يوم، وكان ذلك اليوم هو يوم الاحتفال بالثورة وهذا هو سبب تذكرى هذا اليوم بهذه الدقة، وقد انشغل المواطن روباشوف طيلة ذلك اليوم فى الاستقبالات بمقر المفوضية، لكنه بعد انتهاء حفلة الاستقبال دعا أبى لزيارة منزله، وسمح لى والدى بأن اصطحبه إلى هناك، حيث وجدنا المواطن روباشوف فى حالة إعياء وقد ارتدى الروب، لكنه رحب بنا ترحيبا حارا للغاية، وقدم لنا النبيذ والكونياك والكعك على المائدة، وحيا أبى بعد عناق قائلا له: هذا حفل الوداع لآخر من بقى من الموهيكان(*).

وجاء صوت جلتكين من خلف روباشوف مقاطعا :

"وهل لاحظت من فورك أن روباشوف ينوى إغراقكما فى السكر، حتى يجعلكما أكثر طواعية للاستجابة لخططه؟"

وبدا لروباشوف أن ابتسامة باهتة قد علت وجه ذى الشفة الأرنبية المكلوم، ولاحظ لأول مرة أنه رأى فى تلك الليلة المذكورة هيئة تشبه من بعيد هيئة هذا الشاب. لكن ما لبث التعبير أن فارق وجه ذى الشفة

(**) قبيلة منقرضة من الهنود الحمر . (المترجم)

الأرنبية فى الحال، فقد طرفت عيناه وأخذ يلعق شفته المشقوقة وأجاب قائلا: "لقد بدا لى مثيرا للشكوك، لكنى لم أكن قد تبينت خطته بعد".

قال روباشوف فى نفسه: "أيها الخنزير المسكين، ماذا صنعوا بك؟"

وانتعش صوت جلتكين قائلا: "استمر".

واستغرق ذو الشفة الأرنبية من الوقت ثوانى قليلة استجمع فيها قواه ثانية بعد مقاطعة جلتكين لحديثه، وفى تلك الأثناء سمعوا صوت كاتبة الاختزال النحيفة وهى تبرى القلم الرصاص.

"وتبادل روباشوف الذكريات مع أبى لفترة طويلة؛ إذ إنهما لم يلتقيا لسنوات. وتحدثا عن فترة ما قبل الثورة وعن بعض أشخاص الجيل القديم، ممن أعرفهم عن طريق السمع، كما تحدثا عن الحرب الأهلية، وكثيرا ما كانا يشيران فى حديثهما إلى وقائع لم أستوعبها، وكانا يضحكان من ذكريات لم أكن أعيها".

وسأله جلتكين: "هل شربتما كثيرا؟"

فومضت عينا ذى الشفة الأرنبية من الضوء فى بؤس، ولاحظ روباشوف أنه يميل إلى الجانب قليلا وهو يتحدث، كأنه لا يستطيع أن يبقى واقفا على قدميه إلا بصعوبة.

واستطرد ذو الشفة الأرنبية قائلا: "أظن أننا شربنا كثيرا؛ إذ إنني لم أر أبي في مثل هذه الحالة النفسية الطيبة طيلة السنوات القليلة الأخيرة من عمره".

وسمع صوت جلتكين يقول: "ألم يكن هذا قبل اكتشاف نشاطات أبيك المضادة للثورة بثلاثة أشهر، الأمر الذي أدى إلى إعدامه بعد مضي ثلاثة شهور أخرى؟"

ولعق ذو الشفة الأرنبية شفتيه، ونظر إلى الضوء في كآبة وظل على صمته. واستدار روباشوف نحو جلتكين مدفوعا بنازع مفاجئ، لكنه أغمض عينيه بعد أن أعماه الضوء، واستدار ببطء بعيدا عن الضوء ثانية. وأخذ يمسح نظارته في أكمامه، وسمع صوت جريان قلم السكرتيرة على الورق وتوقفه.

ثم سمع صوت جلتكين مرة أخرى:

"هل اشتركت في أنشطة أبيك المضادة للثورة في ذلك الوقت؟"

فلعق ذو الشفة الأرنبية شفته وقال:

"نعم".

– "هل علمت أن روباشوف شارك أباك في آرائه؟"

– "نعم".

"سجلي كل الأقوال الرئيسية في هذه المحادثة، واتركي كل ما هو غير جوهري".

ثم طوى ذو الشفة الأرنبية - عندئذ - ذراعيه خلف ظهره ومد كتفيه إلى الحائط، وقال:

"وبعد فترة من الوقت تحول أبى وروباشوف بموضوع الحديث إلى الحاضر، وتكلما فى عبارات ملؤها الزراية بالأوضاع الراهنة فى الحزب، وعن أساليب القيادة".

وأشار روباشوف وأبى إلى الزعيم بقولهم رقم (١)، وقال روباشوف أنه منذ أن جثم رقم (١) بمؤخرته العريضة على الحزب، أصبحت الأجواء فى عهده غير صالحة للتنفس، وأن ذلك هو السبب فى تفضيله القيام بمهام فى الخارج.

واتجه جلتكين نحو روباشوف متسائلا:

ألم يحدث ذلك قبل إعلانك الولاء أول مرة لزعيم الحزب بفترة قصيرة؟

واستدار روباشوف نصف دورة نحو مصدر الضوء، وقال: "هذا صحيح".

وسأل جلتكين ذا الشفة الأرنبية:

"هل أفصح روباشوف عن اعتزامه الإدلاء بهذا التصريح المذكور فى أثناء تلك الليلة؟"

- "نعم، وقد أنّب أبى روباشوف بسبب ذلك ، وأعلن عن خيبة أمله فيه، فضحك روباشوف وقال لأبى إنه عجوز أحمق كدون كيشوت، وقال إن المهم هو أن يصمد لأطول فترة ممكنة فى انتظار أن تحين الساعة".

– وما الذى كان يعنيه بقوله: فى انتظار أن تحين الساعة؟

ومرة أخرى تعلقت نظرة الشاب بوجه روباشوف فى تعبير بائس يحمل شيئا من الرقة، وخيل لروباشوف مشهد مضحك، وهو أن الشاب يوشك أن يندفع نحوه من جهة الحائط ليقبل جبهته، وابتسم لتلك الفكرة المضحكة عندما سمع صوت الشاب يقول فى لطف:

"إنه يعنى الساعة التى يتم فيها خلع رقم (١) من منصبه".

وبجفاف قال جلتكين الذى لم تفته ابتسامة روباشوف: "يبدو أن تلك الذكريات تسرك".

رد روباشوف بعد أن أغلق عينيه ثانية: "ربما".

وأمسك جلتكين بسوار أحد أكمامه لتعديله فى موضعه، وسأل ذا الشفة الأرنبية قائلا:

"إذن فقد تكلم روباشوف عن الساعة التى سيتم فيها خلع رقم (١) من منصبه، لكن بأية طريقة كان سيتم له ذلك؟"

– "إن أبى كان يعتقد أن الكيل سيفيض فى يوم من الأيام، والحزب سوف يعزله أو يجبره على الاستقالة، وعلى المعارضة أن تدعو لهذه الفكرة".

– "وماذا عن روباشوف؟"

"ضحك روباشوف من أبى وكرر قوله بأنه أحمق كدون كيشوت، ثم أعلن أن رقم (١) ليس بالظاهرة العرضية، لكنه تجسيد لخاصية إنسانية

معينة هى الاعتقاد المطلق فى أن ما يعتقد فيه المرء أمر معصوم من الخطأ، وقد استمد رقم (١) من هذا القوة فى المضى فى أفعاله المعدومة الضمير، ومن هنا فإنه لن يتخلى عن سلطاته بمحض إرادته، ولذلك لا يمكن إقصاؤه عن الحكم بغير عنف. ولا يستطيع أحد أن يأمل فى شىء من جانب الحزب كذلك، لأن رقم (١) يمسك بجميع الخيوط فى يده بعد أن أشرك مسئولى الحزب فيما يقترفه من أخطاء، وهؤلاء المسئولون يعلمون أنهم يستمرون باستمراره، ويسقطون بسقوطه".

وعلى الرغم من نعاس روباشوف، فقد داخلته دهشة من أن الشاب يسوق أقواله بهذه الدقة، فهو ذاته لم يعد يتذكر الحوار بالتفصيل، لكنه لم يشك فى أن ذا الشفة الأرنبية نقله بأمانة.

ونظر روباشوف إلى كييفر الصغير من وراء نظارته، فقد استعاد اهتمامه به مؤخرا، وارتفع صوت جلتكين ثانية ليقول:

"إذاً فقد أكد روباشوف ضرورة استخدام العنف ضد رقم (١) - ضد زعيم الحزب؟"

وأومأ ذو الشفة الأرنبية موافقا.

- وهل تركت آراؤه التى عرضها أثرا عليك مع إفراطك فى تناول الشراب؟

لم يجبه كييفر الصغير فى الحال، ثم قال فى صوت منخفض بعض الشىء عن ذى قبل:

« أنا لم أشرب شيئا يذكر، لكن كل كلمة قالها تركت فى نفسى أثرا عميقا».

أحنى روباشوف رأسه، وتصاعد الشك فى نفسه على هيئة ألم حسى جعله ينسى أى شىء آخر. أيكون هذا الشاب التعس قد استمد نتائجه حقا من الخط الذى يتبعه روباشوف فى تفكيره – مما يجعل ذلك الواقف أمامه فى وهج المصباح بمثابة نتيجة مجسدة لمنطقه هو؟

لم يدعه جلتكين ينهى فكرته فقد قال فى صوت خشن:

"... واتباعا لهذا التنظير المبدئى، جاء التحريض على الفعلة"؟

التزم ذو الشفة الأرنبية الصمت وارتعشت عيناه فى الضوء وانتظر جلتكين الإجابة لثوان قليلة. ورفع روباشوف رأسه بصورة لا شعورية، ومرت عدة ثوان لم يسمع فيها إلا أزيز المصباح.

ثم جاء صوت جلتكين مرة أخرى أكثر انضباطا ورتابة:

"هل تحب أن تستعين بشىء ينعش ذاكرتك؟"

نطق جلتكين بهذه العبارة بشكل يبدو عارضا للغاية، لكن ذا الشفة الأرنبية ارتجف كأنه قد ضرب بسوط، ولعق شفتيه، وظهرت فى عينيه ومضة فزع حيوان مجرد. ومرة أخرى جاء صوته اللطيف المنغم وهو يقول:

"لم يقع التحريض ذلك المساء، لكنه حدث فى الصباح التالى، فى جلسة حميمة بينى وبين المواطن روباشوف".

وابتسم روباشوف، فقد كان تأجيل الحوار الخيالى إلى يوم لاحق إتقانا واضحا من جانب جلتكين فى إخراجه للمشهد، ولا شك أن استماع كييفر الأب فى سرور للتعليمات التى تلقاها ابنه لارتكاب جريمة قتل عن طريق السم يعد قصة غير محتملة التصديق حتى بالنسبة لإنسان نياندرتال (البدائى) بتكوينه السيكولوجى.

ونسى روباشوف الصدمة التى تلقاها لتوه، واتجه إلى جلتكين ليسأله قائلا والضوء يغشى عينيه:

"أعتقد أن من حق المتهم أن يطرح أسئلته فى أثناء مواجهته بجرمه؟"

رد عليه جلتكين: "لك ذلك الحق".

التفت روباشوف نحو الشاب قائلا:

"على ما أذكر (ونظر إليه من خلال نظارته) فإنك أنهيت دراستك فى الجامعة قبل مجيئك وأبيك لزيارتي".

ونظرا لأن روباشوف قد خاطب ذا الشفة الأرنبية لأول مرة بشكل مباشر، فقد عادت النظرة الواثقة والمليئة بالأمل إلى وجه الشاب الذى أومأ برأسه موافقا.

فقال روباشوف: "قد يكون هذا صحيحا. لو أسعفتني ذاكرتي اتجهت النية آنذاك كي تبدأ العمل تحت رئاسة أبيك في معهد الأبحاث التاريخية، فهل فعلت ذلك؟"

أجاب ذو الشفة الأرنبية: "نعم" وأضاف قائلا بعد قليل من التردد: "إلى أن اعتقل أبي".

وقال روباشوف: "لقد فهمت، إن حادث اعتقال أبيك جعل بقاءك في هذا المعهد أمرا مستحيلا، وكان عليك أن تجد وسيلة لتقيم بها أودك".

وسكت عن الكلام واتجه نحو جلتكين واستطرد قائلا:

"إن ذلك يثبت أنه في وقت مقابلتي لهذا الشاب، لم يكن أي منا قادرا على التنبؤ بوظيفته في المستقبل، ومن ثم، فإن التحريض على القتل بالسم يصبح أمرا مستحيلا من الناحية المنطقية".

وتوقف قلم السكرتيرة فجأة وأدرك روباشوف دون أن ينظر إليها، أنها توقفت عن التسجيل، وأنها اتجهت بوجهها الذي يشبه وجه الفأر المدبب إلى جلتكين، كما نظر ذو الشفة الأرنبية أيضا إلى جلتكين وأخذ يلعق شفته العليا، ولم يظهر في عينيه شعور بالارتياح، بل ظهر فيهما شعور بالحيرة والخوف. وتلاشى شعور روباشوف بالنصر الذي كان قد راوده في تلك اللحظة وخامره إحساس غريب بأنه يعكر صفو المسار الناعم لأحد الاحتفالات المهيبة، وبدا صوت جلتكين أكثر برودة

وانضباطا من المعتاد حينما قال:

هل لديك أسئلة أخرى؟

فأجابه روباشوف: "ليس ثمة شيء آخر أقوله فى الوقت الراهن".

وقال جلتكين فى هدوء: "إن أحدا لم يجزم بأن تعليماتك حددت السم كوسيلة للقتل، إذ إنك أصدرت الأمر بالاغتيال وتركت اختيار الوسيلة للقاتل» .

ثم التفت إلى ذى الشفة الأرنبية يقول له: "أليس هذا صحيحا؟"

فقال ذو الشفة الأرنبية الذى عبر صوته عن شىء من الارتياح: "نعم".

وتذكر روباشوف أن صحيفة الاتهام نصت صراحة على التحريض على القتل بدس السم، لكن بدا له الأمر برمته فجأة كأنه لا يعنيه، فسواء كان الشاب مايكل قد قام فعلا بمحاولة الاغتيال المجنونة، أو قام فقط بالإعداد لشىء من هذا القبيل، وسواء تم تلقينه اعترافات أو بعضا منها فقد بدا الأمر لروباشوف الآن مثل مسألة تقتصر أهميتها على الجانب القانونى فحسب؛ لأنها لا تغير شيئا بالنسبة لاقترافه الجرم، فالقضية الرئيسية هى أن هذا الهيكل البائس الماثل أمامه يمثل ناتجا منطقيا يتجسد فى شكل لحم وشحم، وتبدلت فى نظره المواقع فوضع نفسه مكان جلتكين متخيلا أن الأخير ليس هو الذى حاول تعقيد قضية واضحة المعالم عن طريق معادلات لفظية شائكة للغاية يتعذر الفصل

فيها، لكن روباشوف هو الذى فعل ذلك. حتى الاتهام الذى بدا له حتى هذه اللحظة مضحكا ومثيرا للسخرية ومجرد اختلاق لم يعد سوى وسيلة للربط بين الحلقات المفقودة فى سلسلة منطقية محضة، وإن كان ذلك الربط يتم بأسلوب خشن وغليظ.

ومع ذلك شعر روباشوف بأنه ضحية غبن وظلم من نوع ما، لكنه شعر بالإجهاد لدرجة عجز معها عن التعبير عن ذلك بالكلمات.

وسأله جلتكين: "هل لديك أسئلة أخرى؟"

فهز روباشوف رأسه بالنفى.

وقال جلتكين لذى الشفة الأرنبية: "يمكنك أن تستمر".

ثم دق جرسا، فدخل عليه حارس فى زيه الرسمى ووضع الأغلال المعدنية فى يد كييفر الشاب. وقبل اقتياد ذى الشفة الأرنبية إلى الباب، أدار رأسه مرة أخرى نحو روباشوف، كما تعود أن يفعل بعد انتهاء فترة تريضه فى الفناء، وشعر روباشوف بعبء تلك النظرة الثقيل، فخلع نظارته ومسحها فى كمه وأحال نظره بعيدا عنه.

ولما مضى ذو الشفة الأرنبية، شعر روباشوف نحوه بما يشبه الحسد، ورن صوت جلتكين فى أذنه محدد النبرات متسما بوحشية جديدة وهو يتساءل:

"هل تقر الآن بأن اعتراف كييفر يتفق مع الحقائق، التى تبينها النقاط الرئيسية فى الاتهام؟"

واتجه روباشوف ثانية نحو المصباح الذى سمع له همهمة ورأى ضوءه ينبعث أحمر متوهجا من خلال جلد أجفانه الدقيق التى أطبقها على عينيه، ومع ذلك، لم تفته عبارة "النقاط الرئيسية". وبهذه العبارة سد جلتكين ما فى هذه الاتهامات من ثغرات، وأعطى لنفسه فرصة تغيير عبارة "التحريض على القتل بالسم" إلى "التحريض على القتل" بشكل عام.

وقال روباشوف: "أما بالنسبة للنقاط الرئيسية فنعم".

وسمع صوت احتكاك أساور أكمام جلتكين، وحتى كاتبة اختزال الجلسة تحركت فى مقعدها ، فعلم روباشوف أنه نطق بالقول الفصل وأقر معترفا بذنبه، ولكن كيف يتأتى لهذا الإنسان البدائى المعروف بإنسان النياندرتال(*) أن يعى ما يعتبره روباشوف ذنبا أو ما يسميه الحق بمعاييره.

وسأله جلتكين فجأة: "هل يضايقك الضوء"؟ فابتسم روباشوف، فقد سدد جلتكين بهذا السؤال الثمن فورا وعرف من أين يؤكل الكتف. هذه هى عقلية إنسان نياندرتال البدائى، ومع ذلك شعر روباشوف بالارتياح عندما اعترت ضوء المصباح الذى يخطف الأبصار درجة من الانخفاض، بل إنه شعر بما يشبه العرفان، فهو يستطيع الآن أن ينظر فى وجه جلتكين ، وإن كان ذلك من خلال عينين طارفتين، ورأى روباشوف من جديد ذلك الجرح الأحمر الغائر فى رأس جلتكين الحليق.

(*) أول إنسان بدائى يظهر فى سلم التطور على سطح الأرض. (المترجم)

وأضاف روباشوف قائلا: "... باستثناء نقطة واحدة أعتبرها جوهرية".

فقال جلتكين بعد أن عاد إليه تصلبه وأدبه.

"وما هى؟"

فقال روباشوف فى نفسه: "من المؤكد أنه يعتقد الآن أنى أعنى بهذه النقطة حوارى الحميم مع الفتى، ذلك الحوار الذى لم يجر قط، إن ما يعنيه هو أن يضع النقاط فوق الحروف حتى إن بدت هذه النقاط غير نظيفة وتشبه البقع، لكنه قد يكون من وجهة نظره على صواب...

قال روباشوف بصوت عال: "إن المسألة التى تعنينى هى الآتى: صحيح أنى تكلمت عن ضرورة استخدام العنف من منطلق قناعتى فى ذلك الوقت، لكنى كنت أعنى بالعنف التحرك السياسى وليس الإرهاب الفردي".

رد عليه جلتكين قائلا: "إذن فأنت تفضل الحرب الأهلية.

قال روباشوف: بل أفضل العمل الجماهيرى.

فقال جلتكين: "لا، بل العمل الجماهيرى، الذى يؤدى حتما إلى الحرب الأهلية كما تعلم. هل هذا هو التوضيح الذى تعلق عليه كل هذه الأهمية"؟

لم يرد عليه روباشوف فقد كانت هذه النقطة بحق كل ما بدا له مهما منذ لحظة مضت، ولكنها أصبحت الآن غير ذات أهمية بالنسبة إليه. وإذا كانت المعارضة لا تستطيع - فى الواقع - إحراز نصر على بيروقراطية الحزب، بما تملك من أجهزة ضخمة، إلا عن طريق الحرب الأهلية، فما الذى يجعل هذا البديل أفضل من دس السم فى وجبة باردة يتناولها رقم (١)، الذى ربما تسبب اختفاؤه فى انهيار النظام بصورة أسرع وأقل سفكا للدماء... وماذا يجعل الاغتيال السياسى أكثر مدعاة للاحتقار من القتل الجماعى لأسباب سياسية؟

من الواضح أن هذا الفتى التعس قد أخطأ فى فهم ما يرمى إليه، لكن ألم يكن خطؤه أكثر اتساقا من مسلكه طيلة الأعوام القليلة الأخيرة؟

"إن من يعارض الدكتاتورية يجب أن يقبل الحرب الأهلية كوسيلة. ومن يتراجع عن الحرب الأهلية أو يخشاها، عليه أن يتخلى عن المعارضة ويقبل الدكتاتورية".

كانت هذه العبارات البسيطة التى كتبها، ربما منذ عهد مضى فى حملة كلامية شنها على "المعتدلين"، تتضمن إدانة لشخصه، ولم يجد فى نفسه - بأى حال من الأحوال - رغبة فى الاستمرار فى مجادلته لجلتكين، فلقد ملأه شعور بالهزيمة الكاملة بنوع من الارتياح، وزال عنه التزامه بالمضى فى المواجهة وإحساسه بعبء المسئولية الملقاة على كاهله، كما عاوده ميله للنعاس. وشعر بدق فى رأسه كرجع أصداء

خـافتـة، وهيئ له لثوان قليلة أن الذى يجلس خلف المكتب ليس جلتكين، وإنما هو رقم (١) بنظرته التى تنم عن السخرية غير العادية فى وعيها، وكـان رقم (١) قـد رمق روباشـوف بتلك النظرة وهمـا يتـصـافـحـان عند وداعهما الأخير. وخطرت فى باله عبارة رآها منقوشة على مدخل مقابر إيرانسين؛ حيث دفن سانت جوست وروبسبيير وستة عشر من رفاقهما الذين طارت رقابهم. وكانت العبارة تتكون من كلمة واحدة : (النوم).

ومنذ تلك اللحظة أصابت الغشاوة ذاكرة روباشوف من جديد، وربما استغرق فى النوم للمرة الثانية لدقائق قليلة أو ثوان، لكنه فى هذه المرة لم يتذكر أنه رأى أحلاما فى منامه، ومن المؤكد أن جلتكين هو الذى أيقظه ليوقع على أقواله، وقدم إليه قلم الحبر الذى لاحظ روباشوف فى شىء من الاشمئزاز، أنه لا يزال يحتفظ بحرارة جيب جلتكين. وتوقفت كاتبة الاختزال عن الكتابة، وخيم السكون التام فى الغرفة، وتوقف المصباح عن الأزيز، وأخذ يبعث ضوءا عاديا شاحبا؛ إذ إن ضوء الفجر كان قد بدأ يلوح من النافذة.

ووقع روباشوف.

ويقى فى نفسه شعوره بالارتياح وعدم المسئولية رغم أنه نسى سبب ذلك الشعور، ثم قرأ – وقد تملكه النوم – الأقوال التى اعترف فيها بتحريض كييفر الصغير على اغتيال زعيم الحزب، وأحس لبضع ثوان بأن الأمر كله من قبيل سوء الفهم المثير للضحك، ووجد فى نفسه رغبة

فى أن يشطب توقيعه ويمزق الوثيقة. ثم استرجع من جديد كل ما وقع له، ومسح نظارته فى كمه وسلم الورقة إلى جلتكين من فوق المكتب.

وكان المشهد الثانى الذى استطاع روباشوف أن يتذكره، أنه مشى عبر الممر ثانية فى حراسة رجل ضخم الجثة يرتدى زيا رسميا، وهو الرجل الذى اقتاده من قبل إلى غرفة جلتكين منذ فترة لم يستطع تحديد مداها، وأنه مر بغرفة الحلاق وسلم القبو فى حالة تشبه النوم، وجالت بخاطره المخاوف وهو ماض فى الطريق، وتعجب من نفسه قليلا وابتسم من بعيد ابتسامة باهتة. ثم سمع باب الزنزانة يغلق خلفه بصوت عال، وغاص فى سريره وهو يشعر بمتعة جسدية، ورأى ضوء المصباح الشاحب من خلال زجاج النافذة المغطاة بورقة الجريدة المألوفة له والتى التصقت بإطار الشباك، ثم استغرق فى النوم على الفور.

ولما فتح باب زنزانته من جديد، لم يكن ضوء النهار قد بدأ بعد، ولم يكن قد تمكن من النوم لساعة واحدة، واعتقد أول الأمر أنهم أحضروا له الإفطار، لكن الذى كان يقف فى الخارج بدلا من السجان العجوز هو العملاق ذو الزى الرسمى الذى حضر مرة أخرى. وفهم روباشوف أن عليه أن يرجع إلى جلتكين ليواصل استجوابه.

وغسل روباشوف العرق البارد المتصبب على جبهته ورقبته أمام الحوض ، ولبس نظارته ، وبدأ السير من جديد عبر الممرات إلى أن

تجاوز غرفة الحلاق وسلالم القبو بخطى مترنحة قليلا ، ولكن دون أن يلاحظ هذا الترنح.

(٤)

ومنذ ذلك الحين رانت على ذاكرة روباشوف حجب من الضباب، ولم يعد يذكر فيما بعد إلا أشتاتا متناثرة من حواره مع جلتكين الذى امتد لأيام وليال، على فترات قصيرة، مدة كل منها ساعة أو ساعتان. كما أنه لم يستطع – على وجه الدقة – أن يحدد كم من الأيام والليالى قد مرت. فربما استغرقت فترات حواره مع جلتكين ما يربو على أسبوع. وكان روباشوف قد سمع من قبل عن الطريقة التى تقوم على التحطيم الكامل للمتهم جسديا، حيث يقوم اثنان أو ثلاثة من المحققين عادة بالتناوب على إجراء تحقيق مستمر، ليأخذ كل منهم قسطا من الراحة، غير أن الفارق بين هذه الطريقة وطريقة جلتكين هو أن جلتكين لم يكن يريح نفسه ، بل أجهدها بنفس القدر الذى أجهد به روباشوف، وبهذا كان يحرم روباشوف من آخر ملجأ نفسي يأوى إليه ويتمثل فى غضبة المظلوم ومن إحساس الضحية بأنها تفوق الجلاد فى امتيازها الخلقى.

وبعد مضى ثمانى وأربعين ساعة، فقد روباشوف إحساسه باختلاف الليل والنهار. ولما هزه العملاق ليوقظه بعد نوم استمر ساعة،

لم يعد قادرا على أن يحدد ما إذا كان الضوء الشاحب الذى يأتيه من النافذة هو ضوء الفجر أم ضوء المساء.

وكان الممر – بما فيه من غرفة الحلاق وسلم القبو والباب المسدود – يضاء دوما بنفس الضوء الخافت، ضوء المصابيح الكهربية. فلو ظهر من الشباك أثناء التحقيق أن الضوء يزداد تدريجيا مما يدفع جلتكين أخيرا إلى إطفاء المصباح، علم روباشوف أنه الصباح، وإذا ازداد الشباك عتامة مما جعل جلتكين يضىء المصباح، علم أنه المساء. وكان جلتكين حينما شعر روباشوف بالجوع أثناء التحقيق يسمح بإحضار الشاى والشطائر له، ولكن نادرا ما كان يجد روباشوف شهية للأكل – أو قل إنه كانت تنتابه نوبات من الجوع النهم ، ولكنه كان إذا وجد الخبز أمامه غلبه الغثيان. ولم يكن جلتكين يأكل قط فى وجود روباشوف. أما الأخير فكان يشعر لبعض الأسباب التى ليس لها تفسير أن طلبه الطعام يسىء إلى كرامته وكان أى شىء يتصل بوظائف الجسد يجرح كبرياءه مادام أنه يجد نفسه فى حضرة جلتكين الذى لم يبد أية علامة من علامات الإعياء ولم يتثاءب قط ولم يدخن ، والذى بدا لا يأكل أو يشرب، ويجلس خلف مكتبه دائما فى نفس الوضع الصحيح، وبنفس الزى المنشى، وسوارى أكمامه التى تصدر أزيزا، وكانت أسوأ مهانة بالنسبة لروباشوف هى عندما يستأذن لقضاء حاجته. وكان جلتكين يسمح له بالذهاب إلى المرحاض ويبعث معه بالحارس المكلف بنوبة الخدمة ليقتاده

إلى هناك، وغالبا ما يكون ذلك الحارس هو العملاق الذى كان ينتظره فى الخارج. وذات مرة، استغرق روباشوف فى النوم خلف الباب المغلق، ومنذ ذلك الحين أصبح باب المرحاض يترك مواربا بصفة دائمة.

وكانت أحواله أثناء جلسة التحقيق تتراوح بين الخمول واليقظة المفتعلة وغير الطبيعية، ولم يغب عن وعيه بالفعل سوى مرة واحدة، ولكنه كان يشعر غالبا بأنه يوشك أن يغيب عن الوعى، غير أن إحساسه بالكبرياء كان ينقذه دائما من الغيبوبة فى اللحظة الأخيرة، فيشعل لفافة، ويطرف بعينيه كى لا يتوقف التحقيق معه. وفى بعض الأحيان كان يندهش لأنه استطاع أن يتحمل كل ذلك، ولكنه كان يعلم أن النظرة العقلانية والعلمانية للأمور تضع حدودا أشد ما تكون ضيقا لقدرة الإنسان على تحمل المقاومة الجسمانية، وأن تلك النظرة لا تدرى شيئا عن مدى مرونة تلك القدرات واتساع نطاقها. ولقد سمع عن حالات بعض السجناء الذين منعوا من النوم لخمسة عشر أو عشرين يوما ولكنهم تحملوا ذلك.

وخلال الجلسة الأولى التى عقدها جلتكين له وعندما وقع على اعترافاته كان يظن أن كل شىء قد انتهى. ولكن اتضح له فى الجلسة الثانية أن ذلك لم يكن سوى مجرد بداية ؛ إذ إن الاتهام كان يتكون من سبع نقاط وهو لم يعترف إلا بنقطة واحدة منها حتى الآن. وكان روباشوف يعتقد أنه شرب كأس المهانة حتى الثمالة. أما الآن فقد بدأ

يكتشف أن للضعف درجات كما أن للقوة درجات، وأن الهزيمة قد تدير رأس المرء كما يفعل النصر به ، وأن أعماق الضعف سحيقة لا قاع لها، وقد أجبره جلتكين على أن يهبط إليها درجة بدرجة. وكان في إمكان روباشوف بالطبع أن يبسط الأمر لنفسه. فلم يكن عليه سوى أن يوقع على كل ما يقدم له، أو ينكر كل شيء جملة ويستريح. ولكن إحساسا غريبا ومعقدا بالواجب منعه من الاستسلام لهذا الإغراء. فقد كانت هناك فكرة مطلقة واحدة تسيطر على حياته، وهي أنه لم يعرف ظاهرة الإغراء إلا نظريا. لكن الإغراء الآن يلازمه على مدى أيام وليال لا يعرف أولها من آخرها. وبينما كان يسير مترنحا عبر الممر في ضوء مصباح جلتكين الساطع تمثل الإغراء في الكلمة الوحيدة التي وجدها منقوشة على مقبرة المهزومين وهي: النوم.

كان من الصعب أن يقاوم ؛ لأن الإغراء هادئ ومسالم، ليس عليه نقوش زخرفية ولا متعة الشهوة الجسدية، فهو إغراء أخرس لا يستخدم المحاجات، فالحجج كلها في صالح جلتكين. ولكن هذا الإغراء كان يكرر العبارة التي وجدها مكتوبة في الرسالة التي بعث بها الحلاق والتي تقول له: "مت في صمت".

وكثيرا ما كانت شفتا روباشوف تتحركان في لحظات الخمول الذي يأتي بالتناوب مع اليقظة الواضحة، ولكن جلتكين لم يسمع كلمات روباشوف في تلك اللحظات. وحينئذ كان جلتكين يتنحنح لتنقية صوته

ويعدل وضع سوارى قميصه، ثم يمسح روباشوف نظارته فى كمه ويومئ برأسه فى حيرة وقد تملكه النعاس لأنه كان يعتبر أن الذى أغراه بالسقوط هو الشريك الأخرس الذى اعتقد أنه نسيه، وأنه لا مكان له الآن فى هذه الغرفة، ذلك الشريك هو الخيال النحوى.

"إذا فأنت تنكر إجراء مباحثات مع ممثلى قوى أجنبية باسم المعارضة، وأنك استعنت بها بهدف إسقاط النظام الحالى، كما تعارض الاتهام القائل بأنك كنت مستعدا لشراء التأييد المباشر وغير المباشر اللازم لخططك عن طريق تنازلات عن أراضى الوطن، أى التضحية ببعض أقاليم بلادنا؟"

نعم ، لقد كان روباشوف يجادل فى هذا ، كما أن جلتكين ذكر له تاريخ ومناسبة حديثه مع الدبلوماسى الأجنبى المذكور. وتذكر روباشوف أيضا المشهد القصير الذى لا أهمية له، والذى كان يتردد فى ذاكرته وجلتكين يتلو لائحة الاتهام. وكان روباشوف ينظر وهو مرتبك وشبه نائم إلى جلتكين، فيرى أنه لا جدوى من أن يحاول أن يشرح له هذا المشهد الذى حدث بعد غداء دبلوماسى فى مفوضية دولة (ب) حيث كان روباشوف يجلس إلى جوار الهر فون زد البدين.. المستشار الثانى لسفارة تلك الدولة التى قام روباشوف بخلع بعض أسنانه فيها قبل ذلك ببضعة شهور، وأجرى فيها حديثا ممتعا مع هذا الرجل حول أنواع فئران وخنازير التجارب التى كانت تربى فى مزرعة الهر فون زد كما

كانت تربى فى مزرعة والد روباشوف. ومن المحتمل أن والديهما كانا يتبادلان هذه الأنواع بعضهما مع بعض فى يوم من الأيام.

سأل الهر فون زد روباشوف: "ماذا جرى للأرانب وخنازير التجارب التى كان يقتنيها والدك؟"

أجاب روباشوف: "لقد ذبحت لأكلها أثناء الثورة".

وقال فون زد بصوت تكسوه غلالة حزن: أما خنازيرنا فقد علفناها وسمناها حتى البدانة. قالها دون أن يحاول إخفاء احتقاره لنظام الحكم الجديد فى بلاده الذى يفترض أنه تصادف حتى الآن أنه لم يطرده من عمله.

قال الهر فون زد فى ارتياح وهو يفرغ كأس الخمر الخفيف:

"إن كلينا فى نفس الموقف حقا فلقد عشنا بعد عهدنا الذى انصرم. لقد انتهى عصر تربية الأرنب الهندى. لقد انتهى عصر تربية خنازير التجارب ونحن نعيش الآن فى زمن السوقة والدهماء".

قال روباشوف مبتسما: "ولكن لا تنس أنى فى صف هؤلاء الدهماء".

رد عليه الهر فون زد بقوله: "هذا ليس ما أعنيه، فبالنسبة لهذا الموضوع، فأنا أيضا أوافق على برنامج حاكمنا المانيكان ذى الشارب الأسود، لو أنه توقف عن الصراخ المرتفع، فالمرء فى نهاية الأمر يمكن أن يقدم نفسه ضحية ويصلب فى سبيل ما يؤمن به".

وجلس الرجلان فترة أطول احتسيا خلالها القهوة، وقال الهر فون زد وهو يحتسى القدح الثانى: "لو أنك قمت بثورة ثانية فى بلادك يا مستر روباشوف، وعزلت رقم (١)، فعليك أن تعتنى أكثر بخنازير التجارب".

فقال روباشوف: "هذا من غير المحتمل أن يحدث"، وأضاف بعد ذلك بقليل قائلا: "على الرغم من أنه يبدو لى أنه محتمل الحدوث بالنسبة إلى أصدقائك".

فأجاب الهر فون زد بنفس النبرة السلسة: "بكل تأكيد، فبعد الذى ترامى إلى سمعنا بشأن محاكماتك الأخيرة، لابد أن شيئا غريبا يجرى فى بلادك".

وسأله روباشوف: "إذا فلابد من أنه لدى أصحابك فكرة أيضا عما ينبغى اتخاذه من خطوات من جانبكم إزاء هذه النتيجة غير المحتملة".

وأجاب الهر فون زد عندئذ بمنتهى الدقة، وكأنما كان يتوقع هذا السؤال سلفا: "اخضع وأذعن ولكن هناك ثمن تدفعه لخضوعك وإذعانك".

وبينما كانا يقفان بجوار المنضدة وهما ممسكان بقدحى القهوة، سأل روباشوف وهو يحس بأن نبرته الهادئة تبدو مصطنعة: "هل تقرر الثمن أيضا"؟

فأجابه الهر فون زد: "بالتأكيد" وذكر له اسم مقاطعة معينة يزرع فيها القمح وتسكنها أقلية قومية. ثم استأذن الرجلان أحدهما الآخر فى الانصراف.

لم يفكر روباشوف فى هذا المشهد منذ أعوام مضت، أو على الأقل لم يحاول أن يستعيده على مستوى عقله الواعى. ولكن كيف يمكن للمرء وقد غلبه النعاس أن يشرح عدم أهمية حديث تافه دار على نحو عابر أثناء تناول القهوة بدون لبن أو احتساء أقداح الخمر لجلتكين الذى كان جالسا فى مواجهته بلا حراك ولا تعبير كعادته. لا.. كان من المستحيل أن يبدأ معه الحديث عن حقول التجارب، فإن هذا الجلتكين لم يكن يفهم عنها شيئا، كما أنه لم يشرب القهوة قط مع الهر فون زد. ولاحظ روباشوف كيف أن جلتكين كان يتلو عريضة الاتهام بطريقة متقطعة تعوزها سلامة النبرة. فهو ينحدر من أصل بروليتارى ولم يتعلم القراءة والكتابة إلا فى سن متأخرة. كما أنه لم يكن يعى قط إلى أين يؤدى مثل هذا الحديث الذى يبدأ حول خنازير التجارب.

وقال جلتكين: "أنت تقر إذا بأن هذا الحوار قد تم بينكما؟"

فرد روباشوف فى إعياء، مدركا أن جلتكين يدفعه إلى أسفل السلم درجة: "لا ضرر فى ذلك مطلقا".

فقال جلتكين: "هو أمر لا ضرر منه، مثل محاجاتك النظرية التى سقتها إلى كييفر الصغير بشأن حتمية إقصاء الزعيم باستخدام العنف".

ومسح روباشوف نظارته فى أكمامه، وسأل نفسه: هل كان الحوار حقا غير ضار كما حاول أن يقنع نفسه؟ من المؤكد أنه لم يتوصل إلى اتفاق ولم يتفاوض فى هذا الشأن. كما أن الهر فون زد الميسور الحال لم يكن لديه أية صلاحيات رسمية ليقوم بذلك. فلم تزد المسألة عن كونها ما يعرف فى لغة الدبلوماسيين بجس النبض. ولكن مثل هذا النوع من جس النبض كان حلقة ضمن سلسلة منطقية من أفكاره آنذاك. كما أن ذلك كان يتفق مع بعض تقاليد الحزب. ألم يستعن الزعيم القديم قبيل الثورة بخدمات القيادة العسكرية فى تلك الدولة ذاتها حتى يتمكن من العودة من منفاه ويقود الثورة إلى النصر؟ ألم يقم بعد ذلك بعقد معاهدة السلام الأولى بالتنازل عن بعض الأراضى لتلك الدولة لكسب الوقت(*). وقد علق صديق لماح من أصدقاء روباشوف على ذلك بقوله: "إن الرجل المخضرم يضحى بالمكان لكسب الزمان". لقد كان هذا الحديث البرىء الذى أصبح نسيا منسيا يتفق مع هذا المسلسل، لدرجة أنه أصبح من المتعذر على روباشوف ألا يرى ذلك الأمر سوى من خلال وجهة نظر جلتكين.. نفس هذا الجلتكين الذى قرأ عريضة الاتهام بطريقة رديئة وعمل عقله بنفس الرداءة، وتوصل إلى نتائج بسيطة يسهل عليه فهمها – ربما – على وجه التحديد لأنه لم يفقه شيئا عن حيوانات التجارب... ولكن بهذه المناسبة كيف علم جلتكين بأمر هذا الحديث؟ هناك افتراض يتمثل في وصوله عرضاً إلى مسامعه، وهو أمر غير محتمل، وإما أن ذلك

(*) لاحظ مرة أخرى أن لينين فعل هذا إبان الحرب العالمية الأولى. (المترجم)

الموسر الهر فون زد كان يقوم بدور العميل، والله وحده يعلم الأسباب المعقدة التى أدت إلى ذلك. فطالما وقعت مثل تلك الأشياء فى الماضى. لقد نصب الفخ لروباشوف – وهو فخ أعد طبقا لعقليتى جلتكين ورقم (١) الفجتين والبدائيتين . أما روباشوف فقد سعى إلى الوقوع فى الفخ بقدميه.

قال روباشوف: "ما دمت تعلم كل هذا عن حديثى مع الهر فون زد، فمن المؤكد أنك تعلم أيضا أنه حديث تافه لم تترتب عليه أية عواقب".

أجاب جلتكين: "بالتأكيد، لأننا قبضنا عليك فى الوقت المناسب وقضينا على المعارضة فى جميع أنحاء البلاد. ولو لم نفعل ذلك لظهرت نتائج الشروع فى الخيانة".

بماذا عسى روباشوف أن يرد على ذلك؟ هل يرد بالقول بأن ما فعله لم يكن من الممكن بأى حال من الأحوال أن يؤدى إلى نتائج خطيرة لمجرد أنه طاعن فى السن ومستهلك إلى درجة لا تمكنه أن يقوم بدور يتناسب فى أهميته مع ما تتطلبه تقاليد الحزب، ومع ما كان يمكن لجلتكين أن يفعله لو أنه فى مكانه؟ أم يرد بأن جملة أنشطة ما يسمى بالمعارضة لم تكن سوى لغو عجائز أجوف، وبأن جيل الحرس القديم قد أصبح باليا مثله أيضا؟ أبلته أعوام النضال الخارج عن القانون، وأكلته رطوبة جدران السجون التى قضى فيها أبناء هذا الجيل.. تلك السجون دمرت أرواحهم عن طريق التوتر العصبى المستمر الناجم عن مغالبة

مخاوف الجسد وهى مخاوف لا يتحدث عنها أحد، بل يتعين على كل إنسان أن يتعامل معها بمفرده عبر أعوام أو عشرات الأعوام، أبلته أعوام المنفى وحدة الانقسامات داخل الحزب، وانعدام الضمير فى الحرب التى شنت عليهم. والهزائم التى لا تنتهى، والتفسخ الخلقى الذى يصاحب النصر النهائى. هل يقول إنه لم توجد قط معارضة منظمة وفعالة ضد ديكتاتورية رقم (١)، وأن الأمر كله لا يعدو أن يكون لغوا، ولعبا عقيما بالنار، لأن ذلك الجيل من الحرس القديم أعطى كل ما عنده ولم يبق شيئا.. وعصروه حتى آخر قطرة من دمه وآخر سعر من سعرات طاقتهم الروحية. ولم يبق لأبنائه شيء يأملون فيه سوى أن يناموا وينتظروا مثل الموتى فى مقابر أرانسيز حتى ينصفهم الخلف ويقدرهم حق قدرهم.

بماذا يجيب هذا الإنسان الجامد الذى يشبه إنسان نياندرتال؟ بأنه محق فى كل شيء وأنه لم يرتكب سوى خطأ رئيسى واحد هو أنه اعتقد أن الذى أمامه هو روباشوف القديم، فى حين أنه لم يبق من روباشوف القديم سوى رسمه؟ وأن كل شيء أدى إلى تلك النتيجة - إلى معاقبته - لا بسبب الأفعال التى ارتكبها، ولكن بسبب الأفعال التى أهمل القيام بها؟ لقد قال له الثرى الهر فون زد من قبل: "إن المرء يمكن فقط أن يقدم نفسه كضحية فى سبيل عقيدته".

وقبل توقيع روباشوف على بيانه واقتياده مرة أخرى إلى زنزانته ليرقد بلا وعى على فراشه انتظارا لأن يبدأ العذاب من جديد، وجه روباشوف سؤالا إلى جلتكين، سؤالا لا يتعلق بالمسألة قيد النقاش. فقد كان روباشوف يعلم أنه فى كل مرة يوقع فيها على اعتراف جديد، يصبح جلتكين أكثر ليونة - كما يعلم أنه يدفع الثمن على الفور. كان السؤال الذى وجهه روباشوف يتعلق بمصير إيفانوف.

وأجابه جلتكين قائلا: "المواطن إيفانوف مقبوض عليه".

فسأله روباشوف: "هل لى أن أعرف السبب؟"

"لقد أجرى المواطن إيفانوف التحقيق معك بإهمال وعبر فى أحاديثه الخاصة عن شكوك ساخرة فى أن الاتهام الموجه إليك ليس مبنيا على أية أسس سليمة".

وتساءل روباشوف قائلا: "ماذا لو أنه لا يصدق الاتهام فعلا، فربما كان رأيه فى شخصى أفضل من الواقع".

فقال جلتكين: "فى هذه الحالة كان ينبغى أن يوقف التحقيق ويخطر السلطات المختصة بأنك برىء من وجهة نظره".

ترى هل كان جلتكين يسخر منه؟ لقد كان يبدو كعادته منصفا وجامدا فى تعبيرات وجهه. وفى المرة التالية التى وقف فيها روباشوف منحنيا فوق أوراق المحضر اليومى وفى يده قلم جلتكين الدافئ، قامت

السكرتيرة بمغادرة الغرفة، وقال روباشوف وهو ينظر إلى الجرح الغائر الذى فى رأس جلتكين:

"هل لى أن أسألك سؤالا آخر؟ لقد علمت أنك كنت أحد أتباع تلك الطريقة العنيفة المسماة بالطريقة المتشددة، فلماذا لم تستخدم معى الضغط البدنى المباشر؟"

قال جلتكين فى لهجة تقريرية:

"إنك تعنى التعذيب البدنى، إنه كما تعلم ممنوع بمقتضى قانوننا الجنائي".

وسكت جلتكين، وكان روباشوف قد انتهى لتوه من توقيع البروتوكول، فأضاف جلتكين قائلا:

"وعلاوة على ذلك، فإن هناك نوعا من المتهمين الذين يعترفون تحت الضغط ثم يتراجعون فى المحاكمة العلنية. وأنت من هذا النوع العنيد. إن جدوى اعترافاتك من الناحية السياسية تكمن فى كونها اعترافات بمحض إرادتك.

وكانت هذه هى أول مرة يتكلم فيها عن المحاكمة العلنية. وفى طريق عودته عبر الممر، وهو يسير وراء الحارس العملاق بخطوات قصيرة متعبة، لم يكن روباشوف منشغلا بفكرة المحاكمة العلنية ، ولكنه كان مشغولا بعبارة جلتكين: "أنت من هذا النوع العنيد" فلقد ملأته بما تطيب له نفسه من اعتداد بالذات ورضاء عنها.

وقال لنفسه وهو يرقد على فراشه: "لقد أصبحت طفوليا وعجوزا مخرفا"، ومع ذلك لازمه ذلك الشعور السار حتى استغرق فى النوم.

وبعد كل مرة يوقع فيها روباشوف على اعتراف جديد، عقب جدال عنيد، كان يرقد فى فراشه منهكا وراضيا - لدرجة تدعو للدهشة - فى انتظار أن يوقظوه بعد ساعة أو ساعتين على الأكثر. ولم تكن لديه حينئذ إلا رغبة واحدة هى: أن يدعه جلتكين ولو مرة واحدة لينام ويعود إلى رشده. وكان يعلم أنه لا يملك تحقيق هذه الرغبة ما لم يمض فى معركته حتى نهايتها المريرة، وحتى توضع النقاط فوق الحروف، كما كان يعلم أن كل معركة جديدة سوف تنتهى بهزيمة جديدة، وأنه لا يوجد ثمة شك حول النتيجة النهائية. فلماذا إذا يصر على تعذيب نفسه؟ ولماذا يتركها عرضة للتعذيب، بدلا من أن يتخلى عن المعركة الخاسرة حتى لا يوقظه أحد؟.إن فكرة الموت بالنسبة له فقدت مضمونها الميتافيزيقى منذ أمد بعيد. ولم يعد لها إلا معنى جسدى مغر ودافئ: وهو النوم، ومع ذلك فقد أرغمه شعور غريب غير سوى بالواجب على أن يظل يقظا وأن يمضى فى المعركة الخاسرة حتى نهايتها، وإن كانت هذه المعركة ضد طواحين الهواء... أن يستمر حتى يحين الوقت الذى يجبره فيه جلتكين على الهبوط إلى آخر درجة بقيت له فى سلم المقاومة، كما بدت له آخر سبة خرقاء فى سلسلة الاتهامات فى عينيه الطارفتين وكأنها وضع منطقى للنقاط فوق الحروف. إن عليه الآن أن يواصل المسيرة حتى النهاية.

وعندئذ فقط، عندما يدلف إلى الظلام بعينين مفتوحتين، يكون قد ظفر بحقه فى أن ينام دون أن يوقظه أحد بعد ذلك.

ولقد طرأ على جلتكين أيضا نوع من أنواع التغير بعد تلك السلسلة المتواصلة من الأيام والليالى. ولم يكن التغير كبيرا، ولكن نظر روباشوف المحموم لم يفته ملاحظة ذلك. كان جلتكين حتى النهاية يجلس فى ظلال المصباح خلف مكتبه بجسد متصلب ووجه جامد وأساور قميص منشاة يسمع لها حفيف، ولكن الوحشية أخذت تفارق صوته شيئًا فشيئًا، بنفس الطريقة التى أخذ يخفض بالتدريج من حدة إضاءة المصباح، حتى صارت إضاءته عادية تقريبا. لم يبتسم جلتكين مطلقًا، كما أن صوته كان جافا لدرجة استحال عليه معها التعبير عن أية تغييرات فى أحاسيسه على الإطلاق، وفى إحدى المرات، نفدت سجائر روباشوف بعد حديث دام عدة ساعات، فأخرج جلتكين - الذى لم يكن يدخن قط - علبة سجائر من جيبه وقدمها إلى روباشوف من فوق المكتب.

ولم ينجح روباشوف فى إحراز أى نصر إلا فى مسألة واحدة تتعلق بالادعاء الخاص بقيامه بأعمال تخريب فى شركة الألمونيوم. وهو ادعاء ليس له وزن يذكر قياسا إلى مجموعة الجرائم التى اعترف بها فعلا. ومع ذلك، فقد حارب روباشوف هذا الادعاء بعناد يعادل قتاله العنيد فى المسائل المصيرية. جلس الرجلان كل فى مواجهة الآخر طوال الليل، وقام روباشوف بدحض النقطة تلو الأخرى فى جميع أدلة الاتهام

والإحصائيات غير المتوازنة التى تبرز نقاطا على حساب النقاط الأخرى، وأخذ يذكر فى صوت خشن ينضح بالإعياء الأرقام والتواريخ التى تدافعت فيما يشبه المعجزة إلى رأسه الذى خدره الإجهاد فى الوقت المناسب. وظل جلتكين عاجزا طوال الوقت عن التوصل إلى نقطة يمكنه أن يبدأ منها عرض ذلك التسلسل المنطقى. وقد أوجد لقاؤهما الثانى أو الثالث اتفاقا غير معلن بينهما يقضى بأنه إذا استطاع جلتكين أن يثبت أن جذور الاتهام صحيحة، حتى وإن كانت هذه الجذور ذات طبيعة منطقية مجردة، جاز له أن يطلق يده فى إدخال التفاصيل الغائبة لوضع النقاط فوق الحروف - على حد قول روباشوف. ودون أن يدريا، تعودا على مراعاة تلك القاعدة فى لعبتهما، ولم يعد أيهما يفرق بين ما ارتكبه روباشوف بالفعل من أعمال، وبين تلك الأعمال التى لابد أن يكون قد ارتكبها نتيجة لما يعتنقه من آراء، إلى أن فقدا تدريجيا الإحساس الذى يفرق بين الأسطورة والحقيقة، وبين الخيال المنطقى والواقع. إلا أن روباشوف كان فى لحظات الصفاء الذهنى النادرة، يحس بأنه استيقظ من حالة سكر غريبة. بينما كان جلتكين يبدو وكأنه لا يعى ذلك أبدا.

ولما أوشك الصباح أن يطلع، دون أن يستسلم روباشوف ويعترف بقيامه بأعمال التخريب فى شركة الألمنيوم، اكتسب صوت جلتكين نبرة عصبية مثل تلك التى ظهرت فى البداية عندما أدلى ذو الشفة الأرنبية بالإجابة الخاطئة. ورفع جلتكين درجة إضاءة المصباح، الأمر الذى لم

يفعله لفترة طويلة، ولكنه أطفأه من جديد حينما رأى ابتسامة روباشوف الساخرة. وطرح بعض الأسئلة التى لا تأثير لها، وقال منهيا أسئلته:

"إذا فأنت تنكر تمام الإنكار ارتكابك لأية أعمال تدمير أو تخريب فيما يتصل بالصناعة التى كنت مسئولا عنها. كما تنكر مجرد القول بأنك دبرت مثل هذه الأعمال؟"

فأومأ روباشوف فى حب الاستطلاع مشوب بالنعاس، واتجه جلتكين إلى كاتبة الجلسة قائلا:

"اكتبى أن المحقق المختص يوصى بإسقاط ذلك الاتهام لعدم كفاية الأدلة".

وأشعل روباشوف سريعا لفافة تبغ حتى يخفى نشوة النصر الطفولية التى تغلبت عليه. فلقد أحرز لأول مرة نصرا على جلتكين، وقد كان ذلك النصر نصرا تافها وبائسا فى معركة خاسرة. ولكنه انتصار على أية حال، وقد مرت عدة شهور أو ربما عدة أعوام منذ آخر مرة استشعر فيها حلاوة النصر.

وتناول جلتكين أوراق المحضر اليومى من السكرتيرة وأمرها بالانصراف وذلك جريا على الطقوس التى جرت بينهما معًا.

ولما انفرد الرجلان كل منهما بالآخر وقام روباشوف ليوقع البروتوكول، قال له جلتكين وهو يقدم له قلم الحبر:

"إن التـخـريب الصناعى - حسب خبـرتى - هو أكثـر وسـائل المعارضة فعالية لخلق صعوبات فى طريق الحكومة، ولإثارة السخط بين العمال، فلماذا أصررت بعناد على أنك لم تستخدم هذه الطريقة وأنك لم تنو استخدامها؟".

قال روباشوف: "لأن ذلك أمر مثير للضحك والسخرية من الناحية العملية كما أن الضرب باستمرار على الوتر الذى يصور المخرب على أنه بعبع مخيف يثير موجة استنكار مقززة تجعلنى أشمئز...".

إن إحساس روباشوف بالنصر الذى افتقده طويلا جعله يشعر بتجدد نشاطه كما جعله يتكلم بصوت أعلى من المعتاد.

قال جلتكين: "لو أنك اعتبرت التخريب المنسوب إليك مجرد رواية أو تهمة مختلقة، فما هى فى رأيك الأسباب التى أدت إلى الحالة غير المرضية التى تعانى منها صناعتنا؟"

أجاب روباشوف: "انخفاض التعريفة الضريبية على المنتجات أكثر من اللازم، ومعاملة العمال كالعبيد والإجراءات التنظيمية البربرية، فأنا أعرف عدة حالات فى مؤسستى تم فيها إعدام بعض العمال رميا بالرصاص باعتبارهم مخربين لمجرد ارتكابهم إهمالا بسيطا ناجما عن إنهاكهم الشديد، فإذا تأخر أحدهم دقيقتين عن بداية ساعات العمل،

طردوه وختموا أوراق إثبات شخصيته بخاتم يجعل من المستحيل بالنسبة له أن يجد عملا فى مكان آخر".

ونظر جلتكين إلى روباشوف بنظرته المعتادة الخالية من أى تعبير وسأله بصوته المعتاد وغير المعبر أيضا قائلا:

"هل نفحوك ساعة يد فى صباك؟"

فنظر إليه روباشوف فى دهشة، لأنه رأى أن أبرز خصائص إنسان نياندرتال هى الجدية المطلقة وغياب الاستخفاف والمرح بشكل كامل.

فسأله جلتكين: "ألا تريد الإجابة عن سؤالى؟"

فقال روباشوف: لا مانع من الإجابة بكل تأكيد.

– كم كان عمرك بالضبط حينما أعطوك ساعة؟

فقال روباشوف: أنا لا أعرف على وجه التحديد ولكن ربما كان عمرى ثمانية أو تسعة أعوام.

قال جلتكين بصوته الصحيح المعهود:

"لقد كان عمرى ستة عشر عاما حينما تعلمت أن الساعة تنقسم إلى دقائق، وكان الفلاحون فى قريتى المسافرون إلى المدينة يذهبون إلى محطة القطار عند طلوع الشمس ليناموا فى غرفة الانتظار حتى يأتى القطار الذى يصل عادة عند الظهيرة، وكان أحيانا لا يصل إلا فى

المساء أو فى صباح اليوم التالى. هؤلاء هم الفلاحون الذين يعملون الآن فى مصانعنا . فعلى سبيل المثال: يوجد الآن فى قريتى أكبر مصنع لإنتاج قوالب الصلب فى العالم. وكان ملاحظو العمال فى أول سنوات المصنع يرقدون ليناموا سعيا وراء الدفء بين فجوات التفريغ الملحقة بالفرن اللافح فيقومون بإعدامهم رميا بالرصاص. وفى جميع البلدان الأخرى يستغرق الفلاحون قرنا أو قرنين من الزمان لاكتساب عادة الدقة اللازمة للإنتاج الصناعى والتعامل مع الآلات. أما هنا فلم يمض على تمرسهم بهذا العمل سوى عشرة أعوام. ولو تقاعسنا عن فصلهم أو إطلاق الرصاص عليهم لكل صغيرة أو كبيرة لتوقف تماما دولاب العمل فى بلادنا بأسرها، ولرقد الفلاحون ليناموا فى أفنية المصانع حتى تنمو الأعشاب داخل المداخن فيرجع كل شىء إلى ما كان عليه من قبل. وفى العام الماضى حضر إلينا وفد نسائى من مانشستر بإنجلترا، وشاهد الوفد كل شىء. وبعد ذلك قامت عضوات الوفد بكتابة مقالات غاضبة ذكرن فيها أن عمال النسيج فى مانشستر لا يمكن أن يقبلوا مثل هذه المعاملة. لقد قرأت أن صناعة القطن فى مانشستر تمتد لقرنين ماضيين كما قرأت كيف كانت معاملة العمال هناك منذ مائتى عام عندما بدأت هذه الصناعة. لقد استعملت أيها الرفيق روباشوف نفس المحاجات التى استخدمها وفد مانشستر النسائى. وإنك تعلم بالطبع أكثر مما تعلمه تلك النسوة. ولذلك قد يعجب المرء من استخدامك لنفس محاجاتهن. ولكن

هناك شيئا مشتركا يجمعك بهن، وهو أنك كنت مميزا وذا حظوة وحصلت على ساعة وأنت صبى صغير".

لم يقل روباشوف شيئا، ونظر إلى جلتكين فى اهتمام متجدد. وتساءل فى نفسه: ماذا أرى؟ هل خرج إنسان النياندرتال من قشرته التى تقوقع فيها؟ ولكن جلتكين ظل جالسا فى جمود على مقعده لا يعبر وجهه عن شيء كعادته.

ثم قال روباشوف أخيرا: "قد تكون محقا بصورة ما، ولكنك أنت الذى بدأت بطرح هذا السؤال على. فما جدوى اختراع كبش للفداء للاحتماء به فى كل صعوبة من الصعوبات التى تواجهنا والتى قدمت لنا أسبابها الطبيعية بشكل مقنع للغاية.

قال جلتكين: "علمتنى الخبرة أن الجماهير يجب أن يقدم لها شرح يسهل فهمه لجميع المسائل الشائكة المعقدة. وحسب ما أعلمه عن التاريخ، أرى أن الجنس البشرى لا يمكنه الاستغناء عن أكباش الفداء أبدا. وأنا أعتقد أن كبش الفداء نظام لا غنى عنه فى جميع العصور. وقد علمني صاحبك إيفانوف أن هذا النظام يرجع إلى أصل دينى. وحسب ما أذكر فإن إيفانوف قد شرح لى أن كلمة كبش الفداء ذاتها ترجع إلى أحد تقاليد اليهود، حيث إنهم يضحون من أجل إلههم كل عام بكبش يحمل عنهم جميع أوزارهم".

وسكت جلتكين وعدل وضع سوارى قميصه، ثم قال: "فضلا عن أن التاريخ لا يخلو من أمثلة تطوعية لكباش الفداء، ففى السن التى منحت فيها ساعة، كان كاهن القرية يعلمنى أن المسيح كان يسمى نفسه حملا يتحمل عن غيره جميع الذنوب. ولم أفهم قط ماذا يستفيد الجنس البشرى من أن يعلن شخص ما أنه قد ضحى بنفسه من أجل البشر. ولكن على مدى ألفى عام، وجد الناس فى ذلك أمرا طبيعيا للغاية.

ونظر روباشوف إلى جلتكين متسائلاً: "ما الذى يرمى إليه؟ وما الغرض من تلك المناقشة؟ وإلى أية متاهة يريد إنسان نياندرتال أن يقودنا؟"

قال روباشوف: "مهما كان هذا الأمر فإنه من الأوفق بالنسبة لمبادئنا أن نواجه الناس بالحقيقة بدلا من أن نملأ الدنيا بالمخربين والشياطين".

فرد عليه جلتكين قائلا: "لو قال أحد لأهل قريتى إنهم لا يزالون متخلفين ويتحركون فى بطء السلحفاة رغم قيام الثورة وإنشاء المصانع، فلن يكون لذلك تأثير فيهم،ولكن إذا قيل لهم أنهم إبطال فى العمل وإنهم أكثر كفاءة من الأمريكيين وأن كل المصائب والشرور تأتى من المخربين والشياطين، فسيكون لذلك بعض الأثر على الأقل. إن الحقيقة هى كل ما يفيد البشرية، والباطل هو كل ما يضرها. ففى كتاب "مختصر التاريخ" الذى نشره الحزب ليدرس فى الفصول المسائية لتعليم الكبار تأكيد على

أن المسيحية حققت خلال قرونها الأولى تقدما موضوعيا للبشرية، ولا يأبه عاقل إذا كان المسيح يقول الحق أم أنه كاذب حين ذهب إلى أنه ابن الله وأنه ابن العذراء. إنهم يقولون إن تلك مسألة رمزية ولكن الفلاحين يفهمونها فهما حرفيا، ونحن لنا نفس الحق فى أن نبتكر رموزا مفيدة ليأخذها الفلاحون على علاتها ويفهمونها فهما حرفيا.

قال روباشوف: "إن منطقك يذكرنى أحيانا بمنطق إيفانوف".

فأجاب جلتكين: "المواطن إيفانوف ينتمي مثلك إلى الطبقة المثقفة القديمة، وبالمناقشة معه يمكن للمتحدث معه أن يحصل على بعض المعلومات التاريخية التى فاتته لعدم كفاية تعليمه. والفارق الوحيد بينى وبينه هو أنى أوظف تلك المعلومات فى خدمة الحزب، أما المواطن إيفانوف فقد كان شكاكا فى نوازع البشر.

وسأله روباشوف وهو يخلع نظارته: "أكان...".

فقاطعه جلتكين بنظرات خالية من أى تعبير قائلا: "لقد أعدم المواطن إيفانوف رميا بالرصاص ليلة أمس، تنفيذا لقرار إداري".

وبعد هذا الحوار، ترك جلتكين روباشوف لينام ساعتين كاملتين. وفى طريق العودة إلى الزنزانة تعجب روباشوف نفسه: لماذا لم يكن لنبأ وفاة إيفانوف تأثير أعمق من ذلك فى نفسه، فلم يؤد به سماع الخبر إلا إلى اختفاء حالة شعوره بالابتهاج نتيجة للانتصار الصغير الذى حققه، كما جعله الخبر مرهقا وناعسا من جديد. ومن الواضح أنه قد وصل إلى

حال تعجز عن أن تثير فيه أية عاطفة أعمق من ذلك أثرا. وحتى قبل أن يسمع بوفاة إيفانوف، شعر بالخجل من هذا الإحساس العقيم بالنصر. فقد كان لشخصية جلتكين من التأثير فيه ماجعل انتصاراته ذاتها تتحول إلى هزائم. وهناك جلس جلتكين ككتلة صماء هائلة وخاليا من التعبير وكأنه تجسيد لوحشية الدولة التى تدين بوجودها أصلا لأمثال روباشوف وإيفانوف، وكأن هذه الدولة قطعة انتزعت من جسديهما ، ثم نمت مستقلة عن شخصيتهما حتى صارت فاقدة الحس. ألم يعترف جلتكين بأنه الوريث الروحى لإيفانوف والطبقة المثقفة القديمة؟ وكرر روباشوف بينه وبين نفسه للمرة المائة أن جلتكين والجيل الجديد من سلالة نياندرتال لم يفعلوا أكثر من تكملة ما قام به جيل ذوى الرؤوس المرقمة الذين ظهروا فى الصورة التى اختفت من الجدران. هكذا أصبحت عقيدة الجيل القديم ذاتها بعد أن فقدت إنسانيتها، الأمر الذى بدا وكأنه مجرد تغير فى المناخ. فحينما كان إيفانوف يستخدم نفس المحاجات كان صوته لا يزال فيه مسحة من الماضى وذكريات عالم بائد. إن المرء قد ينكر طفولته ولكن لا يمكنه أن يمحوها. فقد ظل إيفانوف يجر ذيل ماضيه حتى نهاية عمره. وهذا هو ما كان يخلع على جميع أقواله غلالة من الحزن الناعم الهازل والمستخف، وذلك ما دعا جلتكين إلى تسميته بالساخر الذى يتشكك فى دوافع البشر. أما أمثال جلتكين فليس لديهم شىء يمحونه، وليست بهم حاجة إلى إنكار ماضيهم، حيث إنه ليس لديهم ماض ينكرونه، فقد ولدوا دون حبل سرى، دون هزل أو مزاح، ودون غلالة حزن رقيقة.

(٥)

مقتطفات من يوميات ن. س. روباشوف:

"بأى حق ننظر نحن الذين سوف نغيب عن الساحة إلى أمثال جلتكين من عل، شاعرين بتفوقنا عليهم؟ فلابد من أن القردة أطلقت ضحكات عندما ظهر إنسان نياندرتال لأول مرة على الأرض. فكانت القردة من ذوى الحضارة الراقية، تتأرجح من غصن إلى غصن. أما إنسان نياندتل فكان فظا وعاجزا عن أن يبارح أديم الأرض، بينما كانت القردة متخمة ووادعة تعيش فى مرح معقد وتصطاد البراغيث فى تأمل فلسفى. وكان إنسان النياندرتال يمضى فى كآبة فى أرجاء هذا العالم، وهو يضرب ما حوله بعصا أمسك بها فى يده. وكانت القردة تنظر إليه فى سرور وتسلية من مكانها العلى الذى اتخذته فوق الأشجار وهى ترميه بالبندق حتى تملكه الرعب أحيانا. وبينما كانت القردة تأكل الفواكه والنباتات الرقيقة فى دقة ونعومة، كان النياندرتال يلتهم اللحم النئ ويذبح الحيوانات، بل ويذبح أبناء جلدته. وكان يقطع الأشجار الراسخة فى مكانها، ويحرك الأحجار من أماكنها التى منحها الزمن قدسية وينتهك كل قوانين الغابة وتقاليدها. فقد كان فظا وقاسيا ومفتقرا إلى عزة الحيوان وكرامته، وكانت القردة المهذبة الراقية تعتبر إنسان نياندرتال نوعا من ردة التاريخ وبربريته، كما أن أفراد الشمبانزى التى بقيت على قيد الحياة نظرت إلى صورة الإنسان البدائى فى ازدراء.

(٦)

وبعد خمسة أو ستة أيام وقعت حادثة، فقد سقط روباشوف مغشيا عليه أثناء التحقيق. وكان قد انتهى مع جلتكين قبل ذلك مباشرة إلى النقطة الأخيرة فى لائحة الاتهام: وهى مسألة الدافع وراء ما قام به روباشوف من أفعال. وقد حدد الاتهام ذلك الدافع فى بساطة بأنه العقلية المضادة للثورة. كما ذكر الاتهام عرضا أنه كان يعمل فى خدمة قوة أجنبية معادية، وكأن ذلك الاتهام أمر ثابت وواضح. وحارب روباشوف فى معركته الأخيرة ضد هذه الصيغة. استمرت المناقشة من الفجر حتى الضحى، حتى انزلق روباشوف من فوق مقعده فى لحظة عادية تماما، ليظل ملقى على الأرض.

ولما استفاق بعد ذلك بدقائق قليلة، رأى رأس الطبيب البيضاء الشعر وقد مالت فوقه، وهو يصب الماء من الزجاجة على وجهه ويدعك شدقيه. وأحس روباشوف بأنفاس الطبيب المشبعة برائحة النعناع والخبز والدهن فتقيأ، فعنفه الطبيب بصوت حاد، ونصح بأن ينقل روباشوف إلى الهواء الطلق لمدة دقيقة.

وراقب جلتكين المشهد بعينين جامدتين، ودق الجرس، وأمر بتنظيف البساط من القىء ، ثم تركهم يقتادون روباشوف إلى زنزانته. وبعد ذلك بدقائق قليلة، أخذ الحارس العجوز روباشوف إلى الفناء للتريض.

وبدا روباشوف فى الدقائق الأولى للتريض وكأنه ثمل بهذا الهواء المنعش البارد. واكتشف أن لديه رئتين تتشربان الأوكسجين مثلما يشرب الحلق شرابا منعشا حلو المذاق. وأشرقت الشمس فى شحوب وصفاء، وكانت الساعة الحادية عشرة صباحا - وهى الساعة التى اعتاد فيها دائما منذ زمن سحيق أن يخرجوه للتريض، وذلك قبل أن تبدأ تلك السلسلة الطويلة المشوشة من الأيام والليالى. كم كان غبيا لأنه لم يقدر هذه النعمة، لماذا لا يكتفى المرء بأن يعيش ويتنفس ويسير عبر الثلج ويشعر بدفء الشمس الشاحبة على وجهه وحسبه ذلك. ولماذا لا يزيل عنه كابوس غرفة جلتكين والضوء الخاطف للأبصار الذى ينبعث من المصباح. ويزيل كل ذلك المشهد الكئيب، حتى يحيا كما يحيا الآخرون.

وعندما حل الموعد المعتاد للتريض جاوره من جديد الفلاح ذو الحذاء المصنوع من لحاء الشجر. وكان الفلاح يرمق روباشوف بنظرات جانبية كلما مضى إلى جواره بخطى يبدو عليها شىء من الترنح. ثم تنحنح الفلاح مرة أو مرتين، ثم قال وعينه ترقب الحرس: "أنا لم أرك منذ فترة طويلة يا صاحب السعادة، إنك تبدو مريضا وكأن العمر لن يطول بك كثيرا. إنهم يقولون إن الحرب سوف تنشب".

لم يقل روباشوف شيئا، وقاوم رغبته فى أن يلتقط بعض الثلج ليضغط عليه بقبضته حتى يصبح كرة. ودار الطابور حول الفناء فى بطء، وعلى بعد عشرين خطوة إلى الأمام سار أول زوج من السجناء

فـوق أكـوام الثلج القليلة الارتفـاع. وكـان الرجـلان فى نفس الطول، ويرتديان معطفين رماديين وقد بدت أمام فيـهما سـحابتان صغيرتان من بخار الماء.

قال الفلاح: "إننا على مشارف موسم الحصاد. وبعد ذوبان الجليد تصعد الأغنام إلى التلال وهى تستغرق ثلاثة أيام حتى تصل إلى أعلى، وذلك قبل أن تبعث جميع القرى الأخرى فى المنطقة بأغنامـها فى نفس الرحلة التى تبدأ فى نفس هذا اليوم.

كانت الرحلة تبدأ مع شروق الشمس فترى الأغنام فى كل مكان، وفى جـميع الطرقـات والحقـول، ويخـرج أهل القـرية برمـتـهـا بصـحـبـة القطعان فى اليوم الأول. ربما لم تر فى حياتك غنما بهذا العدد الكبير يا صاحب السعادة. ولا كلابا بهذه الكثرة ولا ترابا بهذا الكم، ولا كل هذا العواء والثغاء... أيتها العذراء: يا له من منظر يبعث على السرور!

وظل روباشوف رافعا وجهه نحو الشمس وكانت لا تزال شاحبة، ولكنها ما لبثت أن أكسبت الهواء اعتدالا ونعومة. وأخذ روباشوف يشاهد الطيور وهى تتماوج وتقفز وتلعب فوق برج المدفع.

ومضى صوت الفلاح يقول بصوت يفيض بالألم "فى يوم كهذا اليوم يملك عبق الجليد الذائب فى الهواء كل حواسي. إن أيامنا نحن الاثنين لن تطول يا صاحب السعادة. لقد حطمونا لأننا رجعيون، ولأنهم لا يريدون للأيام القديمة التى كنا ننعم فيها بالسعادة أن تعود".

وسـأله روباشـوف: "وهل كنت سـعـيـدا فى تلك الأيام حـقـا؟" ولكن الفلاح غمغم بشىء غير مفهوم، بينما كانت حنجرته تصعد وتهبط فى حلقه.

وراقبه روباشوف من الجانب ثم قال بعد فترة:

"هل تذكر ذلك الجزء من الإنجيل حيث نرى فيه قبائل الصحراء تصيح: دعنا نختر قائدا ونعود إلى مصر؟"

فأومأ الفلاح برأسه فى اهتمام، ولكن دون فهم، ثم اقتيد الجميع للعودة إلى الزنازين.

وتلاشى تأثير الهواء المنعش وعاوده النعاس والدوار والغثيان، وعند المدخل انحنى روباشوف والتقط بيده بعض الثلج ليدلك به جبهته وعينيه اللتين تحرقانه.

ولم يؤخذ روباشوف إلى زنزانته كما كان يأمل، بل قادوه إلى غرفة جلتكين مباشرة. وكان جلتكين يجلس إلى مكتبه فى نفس الوضع الذى تركه فيه روباشوف منذ فترة لا يعلم مداها. وكانت نظرات جلتكين توحى بأنه لم يتحرك من مكانه خلال غيبة روباشوف. وكانت الستائر مسدلة، والمصباح مشتعلا. وتجمد الزمن وبدا راكدا لا يتحرك وكأنه فى بركة متعفنة.

وبينما كان روباشوف يجلس فى مواجهة جلتكين، وقعت عينه على بقعة مبتلة على البساط فتذكر أنه تقيأ. إذا فلم تمض غير ساعة واحدة منذ أن غادر الغرفة.

قال له جلتكين: "أرى أنك تشعر الآن بتحسن. لقد توقفت جلستنا عند السؤال الأخير حول الدوافع وراء أنشطتك المضادة للثورة".

وحملق جلتكين فى يد روباشوف اليمنى فى شىء من الدهشة. فقد كانت يده اليمنى المستندة إلى ذراع المقعد لا تزال تمسك بقطعة صغيرة من الجليد. وتتبع روباشوف نظرة جلتكين وابتسم ورفع يده جهة المصباح، وشاهدا معًا قطعة الثلج وهى تذوب فى يده من حرارة المصباح. وقال جلتكين:

"إن سؤالى عن الدافع هو الأخير. فإذا وقعت على تلك النقطة فسيصل التحقيق إلى نهايته".

وانبعث من المصباح ضوء يزيد فى شدته عما كان يشعه من ضوء خلال الفترة الطويلة التى انقضت مما جعل روباشوف يطرف بعينيه.

وأضاف جلتكين: "... عندئذ سيكون بإمكانك أن تستريح". وضغط روباشوف بيده على شدقيه، ولكن برودة الجليد كانت قد زالت من يده، وظلت كلمة "تستريح" التى أنهى بها جلتكين جملته معلقة وسط السكون. "استرح ونم"، "دعنا نختر قائدا لنعود إلى أرض مصر". وطرفت عينا روباشوف بشدة من وراء نظارته فى اتجاه جلتكين وقال:

"إنك تعلم دوافعى مثلما أعلمها تماما. وتعلم أنى لم أتحرك من منطلق مناهضة الثورة، وأنى لم أكن أخدم بذلك قوة أجنبية. إن ما فكرت فيه وما قمت به، كان بوازع من قناعتى وضميري".

والتقط جلتكين ملفا من درج مكتبه، وتصفحه، وأخرج منه ورقة وأخذ يقرأها بصوته الرتيب: "... بالنسبة لنا، لا تعد مسألة حسن النوايا أمرا جديرا بالاهتمام. وعلى كل من يخطئ أن يدفع الثمن، ومن يصيب يحصل على الغفران، هذا هو قانوننا". لقد كتبت هذا في يومياتك بعد إلقاء القبض عليك بقليل.

شعر روباشوف بوميض الضوء المألوف يخترق أجفانه المغمضة. ولقد اكتسبت الجملة التي فكر فيها روباشوف وكتبها، نبرة عارية ومجردة بشكل غريب، وهي تخرج من فم جلتكين، كأنها اعتراف موجه إلى كاهن مجهول، سجلته أسطوانة الحاكي المشروخة، وهي لا تكف عن ترديده بسبب الشرخ.

والتقط جلتكين صفحة أخرى من الملف ولكنه لم يقرأ منها إلا سطرا واحدا، وهو يثبت نظره محملقا بلا تعبير في وجه روباشوف.

"الشرف هو أن تخدم دون غرور حتى نهاية المطاف".

حاول روباشوف أن يصمد أمام نظرته المحملقة وقال: "أنا لا أفهم كيف يستفيد الحزب من تمريغ أعضائه في الوحل على مرأى ومسمع من العالم بأسره. لقد وقعت على كل ما تريد مني توقيعه، وأقررت بأني مذنب لاتباعي سياسة زائفة وضارة من الناحية الموضوعية، ألا يكفيك ذلك؟"

ولبس نظارته وطرفت عيناه رغما عنه مشيحتين بعيدا عن المصباح وختم قوله فى صوت مبحوح ومتعب أجش: "إن اسم ن. س. روباشوف رغم كل شىء جزء من تاريخ الحزب أولا وأخيرا. وأنكم بتلطيخ ذلك الاسم إنما تلطخون تاريخ الثورة".

ونظر جلتكين من فوق الملف قائلا: "يمكننى الرد على ذلك أيضا مستشهدا بكتاباتك فقد كتبت ذات مرة تقول:

"إنه من الضرورى أن نثبت كل جملة فى وعى الجماهير عن طريق التكرار والتبسيط، فكل ما نقدمه على أنه حقيقة، يجب أن يلمع ويسطع كالذهب، وكل ما نقدمه على أنه باطل، يجب أن يبدو أسود كالقار. ويجب تلوين السياسة بلون أشكال حلوى الزنجبيل التى تعرض فى السوق حتى تقبل الجماهير على استهلاكها".

ظل روباشوف صامتا ثم قال:

"إذا فهذا هو ما تهدف إليه: أن ألعب أنا دور الشيطان فى تمثيلية الدمى التى تقدمها فأعوى وأكشر عن أنيابى وأخرج لسانى وأن أفعل ذلك بكامل إرادتى أيضا. لقد أعفى دانتون(*) وأصحابه من ذلك على الأقل".

(*) أحد قادة الثورة الفرنسية وضحاياها. (المترجم)

وأغلق جلتكين الملف وانحنى إلى الأمام قليلا، وعدل وضع سوارى قميصه وقال:

"إن شهادتك أمام المحكمة ستكون آخر خدمة تسديها إلى الحزب".

ولم يجب روباشوف على ذلك، وظل مطبقا أجفانه التى ارتخت أمام أشعة المصباح، وكأنه إنسان منهوك القوى ينام تحت الشمس، ولكن لم يكن ثمة مهرب من صوت جلتكين الذى قال:

"إن صاحبك دانتون والمؤتمر، لم يكونوا سوى لعبة تخللتها الشهامة بالمقارنة بما نخشى عليه الآن من أخطار، لقد قرأت عن أولئك الذين يلبسون ضفائر مصبوغة بالمساحيق، ويتشدقون بكرامتهم الشخصية. فلا شيء يهمهم سوى أن يموتوا وهم يأتون بحركة نبيلة وشهمة سواء أدت هذه الحركة إلى نفع أو إلى ضرر".

لم يقل روباشوف شيئا. فقد كان يحس بطنين فى أذنيه. وكان صوت جلتكين يأتيه من أعلى ويتردد صداه من جميع الجوانب المحيطة به لتضرب كالشاكوش رأسه المتوجع بلا رحمة.

مضى جلتكين يقول: "أنت تعلم ما يحدق بنا من أخطار هنا، فلأول مرة فى التاريخ لا تقتصر ثورة على الظفر بالحكم، بل إنها تحتفظ به. لقد جعلنا من بلادنا معقلا للعهد الجديد. فهى تغطى سدس مساحة العالم ويسكنها عشر سكانه".

وتردد صوت جلتكين هذه المرة من خلف روباشوف. وكان جلتكين قد نهض وأخذ يسير فى الغرفة جيئة وذهابا. وكانت هذه هى أول مرة يفعل

فيها ذلك. ومع كل خطوة كان حذاؤه العالى الرقبة يصدر صوت أزيز. أما زيه المنشى فكان يصدر صوت احتكاك، وبدأت رائحة غير زكية يختلط فيها العرق برائحة الجلد تنبعث منه بشكل ملحوظ.

"عندما نجحت الثورة فى بلادنا، اعتقدنا أن بقية العالم سوف يحذو حذونا. ولكن بدلا من ذلك هبت موجة رجعية هددت بإغراقنا جميعا فى خضمها. وأصبح هناك تياران فى الحزب: أحدهما يضم المغامرين الذين أرادوا المخاطرة بما كسبناه لينشروا الثورة فى الخارج(*)، وأنت تنتمى إلى هذا التيار، وقد تعرفنا على مخاطر هذا الاتجاه وقمنا بتصفيته".

وأراد روباشوف أن يرفع رأسه ليقول شيئا، وتردد وقع خطى جلتكين فى رأسه. وكان التعب قد بلغ به مبلغا جعل ظهره يرتمى إلى الخلف، وظل مغمضا عينيه. وواصل صوت جلتكين حديثه:

"أدرك زعيم الحزب بنظرته الأشمل وتخطيطه المحكم أن كل شىء متوقف على النجاة من فترة الرجعية العاتية المتفشية ومتوقف أيضا على الحفاظ على هذا المعقل، وأدرك أن هذا الوضع يمكن أن يستمر لعشر سنوات، أو ربما استمر لعشرين سنة، أو لخمسين، حتى يصير العالم ممهدا للموجة الثورية الجديدة. وحتى يأتى ذلك الحين فسنقف وحدنا، وواجبنا حتى يحين ذلك الوقت هو ألا نهلك".

وهامت عبارة مهوشة فى ذاكرة روباشوف: "إن واجب الثورى يقتضى منه أن يحافظ على حياته". من قال هذا؟ هل قالها هو نفسه؟ أم

(*) إشارة إلى تروتسكى. (المترجم)

قالها إيفانوف؟ لقد ضحى بأرلوفا باسم هذا المبدأ، ولكن إلى أين مضى به ذلك المبدأ؟

كرر صوت جلتكين كلمة: "ألا نهلك، يجب ألا يسقط الحصن مهما كان الثمن ومهما كانت التضحيات. لقد تعرف زعيم الحزب على هذا المبدأ بصفاء ذهن لا يبارى، وطبقه باتساق. إن السياسة التى تتبعها الدولة الشيوعية يجب أن تخضع لسياسة القومية، وكل من لم يفهم هذه الحقبة الحتمية وجب تدميره. لقد كان علينا أن نصفى جسديا أفضل عناصرنا العاملة فى أوروبا، فلم نتردد فى أن نسحق تنظيماتنا بالخارج عندما تطلبت مصالح معقلنا ذلك. ولم نتورع عن التعاون مع بوليس الدول الرجعية حتى نقمع الحركات الثورية التى تنشأ فى أوقات غير مناسبة كما أننا لم نتورع عن خيانة أصدقائنا والتفاهم مع أعدائنا حتى نحفظ معقلنا. ذلك هو العمل الذى أناطنا التاريخ به، باعتبارنا ممثلى أول ثورة ظافرة، أما قصار النظر ودعاة الجمال والأخلاق، فلم يعوا فى ذلك الوقت أن كل الأمور تتوقف على شىء واحد هو أن نصبح أقدر من غيرنا على التحمل والانتظار وهو الأمر الذى أدركه قائد الثورة".

وقطع جلتكين سيره فى الغرفة، وتوقف خلف مقعد روباشوف. ولمعت حبات العرق فوق موضع الجرح فى رأسه الحليق. وتنفس بمشقة وعسر ومسح رأسه بمنديله وبدا متحرجا من أنه كسر حاجز تحفظه

المعتاد. وجلس ثانية إلى مكتبه وعدل وضع سوارى قميصه، وخفض من شدة الضوء قليلا وطفق يقول بصوته المعتاد الخالى من كل تعبير:

"إن خط الحزب بيّن وجلى، وتكتيكاته تسير وفق المبدأ القائل بأن الغاية تبرر الوسيلة، بل تبرر كل الوسائل بغير استثناء. وبمقتضى روح ذلك المبدأ سيطالب المدعى العام بإعدامك أيها المواطن روباشوف".

"لقد انهزمت جماعتك وتم تدميرها أيها المواطن روباشوف. لقد أردت للحزب الانشقاق، رغم أنه لابد من أنك تعلم أن انقسام الحزب يعنى الحرب الأهلية. كما أنك تعلم حالة السخط بين صفوف الفلاحين الذين لم يتعلموا بعد كيف يفهمون معنى التضحيات الملقاة على عاتقهم. ففى الحرب التى يمكن أن تندلع خلال أشهر قليلة، قد تؤدى مثل هذه التيارات إلى مأساة ومن هنا جاءت الحتمية الملحة لوحدة الحزب.

« من الواجب أن يصبح الحزب وكأنه قد صب فى قالب واحد وأن يتسم بالطاعة العمياء والثقة المطلقة. لقد أحدثت صدعا فى صفوف الحزب أنت وأصحابك أيها المواطن روباشوف. فإذا كان ندمك ندما حقيقيا فلك أن تساعدنا فى رأب الصدع. لقد قلت لك إن هذه هى آخر خدمة سيطلبها الحزب منك".

"إن مهمتك بسيطة وقد حددتها بنفسك، وهى أن تطلى الحق بالذهب والباطل بالقار. إن سياسة المعارضة سياسة خاطئة، لذلك فإن

دورك هو أن تجعل من المعارضة عملا جديرا بالاحتقار وأن تجعل الجماهير تنظر إلى المعارضة على أنها جريمة وإلى قادتها على أنهم مجرمون. هذه هى اللغة البسيطة التى تعيها الجماهير. ولو أنك بدأت بالحديث عن دوافعك المعقدة فى فلن تزيدهم إلا لبسا واضطرابا. إن دورك أيها المواطن روباشوف هو أن تتجنب إيقاظ مشاعر التعاطف والشفقة فإن هذه المشاعر تجاه المعارضة تصبح خطرا على أمن البلاد. آمل أيها الرفيق روباشوف أن تكون قد فهمت ما يكلفك الحزب به".

كانت هذه هى أول مرة ينادى فيها جلتكين روباشوف بلقب الرفيق منذ أن تعارفا. ورفع روباشوف رأسه سريعا وشعر بموجة سخونة متصاعدة تعتريه، ولكن أحس بالعجز أمامها. واهتز فكه السفلى قليلا وهو يضع نظارته فوق أنفه وقال:

"إنى أفهم ذلك".

وواصل جلتكين حديثه قائلا: "لاحظ أن الحزب لا يقدم إليك أى أمل فى الحصول على مكافأة. وأن بعض المتهمين قد أذعنوا لما نطالبهم به تحت الضغوط البدنية. بينما وُعد البعض الآخر بإنقاذ رقابهم أو رقاب ذويهم الذين سقطوا فى أيدينا كرهائن. أما بالنسبة لك أيها الرفيق روباشوف، فإننا لا نساوم ولا نقدم وعودا".

وكرر روباشوف قوله: "أفهم ذلك".

ونظر جلتكين فى الملف وأضاف قائلا: "لقد أثرت فى نفسى صفحة من مذكراتك تقول فيها: "لقد فكرت وتصرفت كما كان ينبغى لى أن أفعل، فإذا كنت على حق فليس ثمة ما أندم عليه، وإن كنت مخطئا فسأدفع الثمن".

ونظر إلى أعلى رافعا رأسه من فوق الملف ونظر فى وجه روباشوف مليا: "لقد أخطأت وستدفع الثمن أيها الرفيق روباشوف، والحزب يعدك بشئ واحد، فبعد أن يتحقق النصر سيأتى يوم يفقد فيه الإعلان عن هذا الأمر خطورته، وعندئذ سننشر محتويات الوثائق السرية، وحينئذ سيعرف العالم خلفيات لعبة الدمى المتحركة - كما تسميها - والتى اضطررنا لأن نلعبها معك وفقا لما تنص عليه المراجع التاريخية".

وتردد جلتكين لثوان قليلة وعدل وضع سوارى قميصه، ثم انتهى من ذلك، وقد بدا عليه بعض الارتباك كما ازداد احمرار مكان الجرح فى جبهته.

"وبعدئذ سوف تتلقى أنت وزملاؤك عطف وثقة الجيل القادم بعد حرمانك منهما فى الوقت الحالي".

وبينما كان جلتكين يتكلم، دفع بمحضر الأقوال إلى روباشوف وقدم إليه مع المحضر قلم الحبر، ووقف روباشوف وقال فى ابتسامة متوترة:

"لقد كنت أسأل نفسى دائما، كيف صار حال إنسان نياندرتال عندما غلبته العواطف الجياشة، والآن عرفت".

فقال جلتكين الذى وقف بدوره: "لست أفهم ماتعنيه".

ووقع روباشوف الأقوال التى اعترف فيها بارتكاب جرائمه بدوافع مضادة للثورة، وفى خدمة قوى أجنبية. ولما رفع روباشوف رأسه وقع بصره على صورة رقم (١) المعلقة على الجدار،وتذكر من جديد ذلك التعبير الواعى الساخر الذى ودعه به رقم (١) منذ عدة سنوات.. وتعرف على غلالة ذلك الارتياب الحزين فى نوايا البشر الذى أطل به على الإنسانية من خلال صورته الموجودة فى كل مكان.

قال روباشوف: "ليس مهما إذا كنت لا تفهم، فهناك أشياء لا يفهمها إلا الجيل القديم من أمثال إيفانوف وكييفر".

قال جلتكين فى جمود وانضباط، بعد فترة قصيرة من السكون، وبعد أن أثارت ابتسامة روباشوف انفعاله:

"سوف أصدر أوامرى بألا يزعجك أحد حتى تحين المحاكمة (العلنية)، هل لديك رغبات أخرى؟"

رد عليه روباشوف بقوله: "أن أنام". ووقف عند الباب المفتوح بجوار الحارس العملاق، فبدا ضئيلا فى الحجم، طاعنا فى السن، وعديم الأهمية بنظارته ولحيته.

فقال جلتكين:

"سوف آمر بألا يزعجك أحد فى نومك".

ولما انغلق الباب وراء روباشوف، عاد جلتكين إلى مكتبه، وظل جالسا بلا حراك لبضع ثوان، ثم دق الجرس لاستدعاء سكرتيرته.

قالت السكرتيرة وهى تجلس فى ركنها المعتاد:

"أهنئك على نجاحك أيها الرفيق جلتكين".

فقال جلتكين ونظره متجه إلى المصباح الذى خفتت إضاءته إلى معدلها الطبيعى: "هذا المصباح وقلة النوم مع الإعياء البدنى مسئولان عما جرى لى، فالمسألة كلها لا تعدو أن تكون مسألة تكوين جسمانى وقدرة على الاحتمال".

الخيال النحوى

"لا تتبين لنا الغاية من دون أن تتبين لنا الوسيلة فالغايات والوسائل فى هذا العالم متشابكة، فإذا غيرت غايتك، فعليك أن تغير الوسيلة أيضا، وكل طريق مختلف يؤدى إلى نهاية مختلفة".

فرناند لاسال

فرانزفون سيكنجن

(١)

عندما سئل المتهم روباشوف عما إذا كان يقر بذنبه، أجاب فى صوت واضح: "نعم". وردا على سؤال آخر للمدعى العام يتعلق بما إذا كان عميلا فى خدمة الثورة المضادة، قال فى صوت أقل ارتفاعا: "نعم".

هذا ما قرأته ابنة البواب واسيليج فى بطء وهى تنطق كل مقطع على حدة. وقد افترشت المنضدة بورق الصحيفة وتتبعت السطور بأصابعها بينما كانت تقوم من وقت لآخر بتسوية وضع العصابة المنقوشة بالورد التى كانت تعصب بها رأسها.

"... ولما سئل المتهم عما إذا كان يريد محاميا للدفاع عنه، أعلن أنه سيتنازل عن هذا الحق، ومضت المحكمة فى قراءة صحيفة الاتهام...".

كان البواب واسيليج يرقد على السرير مديرا وجهه نحو الحائط، وكانت فيرا واسيليجوفنا لا تدرى إذا كان أبوها العجوز يستمع إلى قراءاتها أم أنه نائم، وكان يتمتم فى بعض الأحيان لنفسه، وتعودت هى ألا تعير ذلك الأمر اهتماما، كما تعودت أن تقرأ الجريدة بصوت عال كل مساء وكما تعودت - بعد أن تفرغ من عملها فى المصنع - أن تذهب لاجتماع خليتها لتعود إلى البيت متأخرة.

"... إن صحيفة الاتهام تقول "إن المتهم روباشوف قد ثبتت إدانته بالنسبة لجميع النقاط الواردة فى الاتهام، وذلك بالأدلة الموثقة وباعترافاته فى التحقيقات الأولية. وردا على سؤال رئيس المحكمة عما إذا كانت لديه شكوى بخصوص الأسلوب الذى اتبع معه فى التحقيق التمهيدى أجاب المتهم بالنفى، وأضاف أنه اعترف بمحض إرادته، صادقا فى ندمه على جرائمه المضادة للثورة".

لم يتحرك البواب واسيليج من مكانه. وكانت صورة رقم (١) معلقة فوق السرير أعلى رأسه مباشرة، وكان بجوارها موضع مسمار صدئ نزع من الحائط، حيث كانت صورة روباشوف معلقة إلى وقت قريب باعتبار أنه قائد حزبى. وتحسست يد واسيليج بصورة آلية الفتحة التى فى حشية السرير، حيث اعتاد أن يخفى كتابه المقدس القديم ذى الغلاف

المتسخ بالدهون عن ابنته. ولكن بعد اعتقال روباشوف بقليل، وجدت الابنة الكتاب المقدس وتخلصت منه لأسباب تربوية.

"... وبناء على طلب المدعى العام، مضى الآن المتهم روباشوف فى وصف التطورات التى حولته من معارض لخط الحزب إلى معاد للثورة إلى خائن للوطن الحبيب.

وفى حضور جمهور متوتر بدأ المتهم فى الإدلاء ببيانه كما يلى: "أيها المواطنون القضاة سأشرح لكم الأسباب التى دعتنى إلى الاعتراف أمام المحقق وأمام ممثلى العدالة فى بلادنا. وسوف تظهر قصتى التى أرويها لكم كيف أن أقل انحراف عن خط الحزب يفضى حتما إلى الإجرام المضاد للثورة. وأن النتيجة الحتمية لنضالنا المعارض هى أن نغوص فى المستنقع أكثر فأكثر. وسوف أصف لكم كيف سقطت حتى يكون ذلك عبرة للذين لا يزالون إلى هذه اللحظة فى ترددهم وتخبطهم يعمهون، مضمرين شكوكهم الخافية فى قيادة الحزب وسلامة الخط الذى ينتهجه. وبعد أن تملكنى العار وتمرغت فى التراب وأشرفت على الموت، أصف لكم التطورات المؤسفة التى مررت بها كخائن حتى يكون ذلك بمثابة درس وعبرة للملايين فى بلادنا.

واستدار الحارس واسيليج فوق سريره وضغط بوجهه على حشية السرير واستحضر أمام عينيه صورة القائد الحزبى الملتحى - روباشوف - الذى لم تتخل عنه بلاغته فى أحلك الظروف مثل استخدامه

هذا الأسلوب البليغ الذى تطرب له الأذن: "تمرغت فى التراب، وأشرفت على الموت".

وتأوه واسيليج لضياع كتابه المقدس الذى لا يزال يحفظ أجزاء كثيرة منه عن ظهر قلب.

".. وعند تلك النقطة قاطع المدعى العام المتهم ليسأله أسئلة تتعلق بمصير سكرتيرته السابقة المواطنة أرلوفا التى أعدمت بتهمة الخيانة.

ومن إجابات المتهم روباشوف يتضح أنه بعد أن تسببت يقظة الحزب فى تضييق الخناق عليه، ألقى بمسئولية جرائمه على عاتق أرلوفا حتى ينقذ رقبته ويظل قادرا على الاستمرار فى أنشطته الشائنة. إن ن. س. روباشوف يعترف بجرائمه الشنعاء بصفاقة ودون خجل وصراحة الذين يتشككون فى النوازع البشرية، فعندما علق المدعى قائلا "يبدو أنه ليس لديك أى حس أخلاقى بالمرة"، أجاب المتهم فى ابتسامة ساخرة قائلا: "يبدو هذا"، لقد أثار مسلك المتهم غضب الجمهور مما جعلهم يقومون تلقائيا بمظاهرات متكررة للتعبير عن غضبهم واحتقارهم، تلك المظاهرات التى قام المواطن رئيس المحكمة بإخمادها على وجه السرعة. وفى إحدى المناسبات تحول ذلك التعبير عن الحس الثورى بالعدالة إلى موجة من المرح، وذلك بالتحديد عندما قاطع المتهم الحديث عن جرائمه طالبا رفع الجلسة لبضع دقائق لأنه كان يعانى ألما لا يطاق فى أسنانه. ووفقا للإجراء الصحيح لسير العدالة الثورية، لبى رئيس المحكمة رغبته

فى الحال، فأعطى أوامره بهزة كتف تنم عن الاحتقار برفع الجلسة لمدة خمس دقائق.

وفكر البواب واسيليج وهو يرقد على ظهره فى الزمن الذى كان روباشوف يتنقل فيه بين المحافل ظافرا بعد نجاته من أيدى الأجانب، كما فكر فى روباشوف وهو يقف مستندا على عكازين فوق المنصة وتحت العلم الأحمر والزينات، وكيف كان يمسح نظارته فى كمه مبتسما فى الوقت الذى لا ينقطع فيه الصياح والتهليل له.

"…. واقتاده الجنود بعيدا إلى قاعة تسمى البراتوريوم حيث نودى على جماعة الجنود بأكملها للتجمع. فألبسوه زيا أحمر قانيا وضربوه على رأسه بقصبة وبصقوا عليه وركعوا أمامه ليعبدوه"(*).

وسألت البنت أباها: "بماذا تهذى؟"

فقال أبوها العجوز: "لا تلق بالا"، وأدار وجهه صوب الحائط وتحسس بيده الثقب الموجود فى حشية السرير، ولكن الثقب كان فارغا

(*) قارن هذا بما جاء فى إنجيل متى عن طلب المسيح (الإصحاح ٢٧): فأخذوا يسوع إلى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتيبة ونهروه وألبسوه رداء قرمزيا. وضفروا إكليلا من شوك ووضعوه على رأسه وقصبة فى يمينه . وكانوا يجثون قدامه ويستهزأون به قائلين السلام ياملك اليهود. وبصقوا عليه وأخذوا القصبة وضربوه على رأسه. وبعد ما استهزأوا به.. مضوا به للصلب. (المترجم)

مثل المسمار المنزوع فوق رأسه. لم يحتج واسيليج عندما انتزعت ابنته صورة روباشوف من الحائط وألقت بها فى صندوق القمامة، فقد صار الآن مسنا لدرجة لا يحتمل معها الزج به فى السجن.

وقطعت الابنة قراءتها ووضعت موقد الكيروسين فوق المنضدة لإعداد الشاى، وانتشرت رائحة الكيروسين النفاذة فى غرفة البواب فسألته ابنته: "هل كنت تستمع لما أقرؤه عليك"؟ فأدار واسيليج وجهه نحوها فى طاعة وخضوع، وقال: "لقد سمعت كل شيء".

وقالت فيراواسيليجوفنا وهى تملأ الموقد الذى كان يصدر صوت "وش" الكيروسين:

"إذا فقد رأيت الآن أنه هو الذى يصف نفسه بالخيانة، وإذا لم يكن خائنا بالفعل لما أعلن ذلك بنفسه. لقد اتخذنا فى الاجتماع الذى عقد فى مصنعنا قرارا علينا جميعا أن نوقعه".

فتنهد واسيليج قائلا: "الكثيرون منكم يعلمون عن هذا الأمر".

فرمقته فيرا واسيليجوفنا بنظرة سريعة جعلته يدير رأسه نحو الحائط مرة أخرى، ففى كل مرة ترمقه بمثل هذه النظرة، تذكر واسيليج أنه يقف فى طريقها لأنها كانت تريد الاستيلاء على غرفة البواب لنفسها.

فمنذ ثلاثة أسابيع، سجلت هى وعامل ميكانيكى صغير يعمل معها فى المصنع اسميهما فى سجل المتزوجين. ولكن الاثنين لم يحصلا على سكن، فكان الشاب يشارك اثنين من زملائه فى غرفة، كما أن المرء فى هذه الأيام يحتاج إلى سنوات قبل أن تمنحه شركة الإسكان مسكنا.

ولما اتقدت شعلة موقد الكيروسين أخيرا، وضعت عليه فيرا واسيليجوفنا براد الشاى وقالت فى صوت تقريرى مغرض: "لقد قرأت علينا سكرتيرة الخلية نص القرار وقد كتب فيه أننا نطالب بالقضاء على الخونة دون رحمة وأن كل من يبدى تعاطفا نحوهم يعد خائنا. ويجب أن نبلغ عنه، وعلى العمال أن يكونوا على حذر. ثم تسلم كل منا نسخة من القرار حتى يجمع عليها توقيعات التأييد والمؤازرة.

وأخرجت فيرا واسيليجوفنا ورقة مكرمشة بعض الشىء من جيب سترتها، وبسطتها على المنضدة. كان واسيليج يرقد الآن على ظهره. وكان موضع المسمار الصدئ المنزوع من الحائط فوق رأسه مباشرة. وزرزر عينيه ناظرا إلى الورقة الموضوعة بجوار الموقد، ثم لفت رأسه بسرعة بعيدا عنها وهو يقول:

أقول لك يا بطرس إن الديك لن يصيح فى هذا اليوم قبل أن تنكرنى ثلاث مرات"(*).

وبدأ الماء يغلى فى براد الشاى، وبدا على وجه واسيليج العجوز تعبير ماكر وهو يقول:

(*) فى هذه الآية يوبخ المسيح تلميذه بطرس ؛ لأنه قبل أن يصيح الديك أنكره ثلاث مرات. (المترجم)

"هل يجب أن يوقع على القرار أيضا الذين اشتركوا فى الحرب الأهلية؟

وقفت الابنة وقد انحنت على براد الشاى لابسة منديلها المنقوش بالورود والمعصوب على رأسها، وردت وهى ترمقه بنفس النظرة السابقة:

"ليس ثمة أحد مجبر على التوقيع على ذلك. من المعروف فى المصنع بالطبع أن روباشوف كان يعيش فى هذا البيت، وقد سألتنى سكرتيرة الخلية عما إذا كنا صديقين حتى النهاية، وإذا كنت أكثر من الحديث معه".

واعتدل واسيليج العجوز فوق سريره بقفزة جعلته يسعل، وجعلت عروقه تنفر وتنتفخ فوق رقبته النحيفة المصابة بداء الخنازير.

ووضعت الابنة كوبين على حافة المنضدة، ووضعت فى كل منهما بعض الشاى الناعم أخرجته من كيس من الورق وسألت أباها قائلة:

"بماذا تهذى مرة أخرى؟"

فقال واسيليج العجوز: "أعطينى هذه الورقة اللعينة" فأعطته إياها ولكنها سألته: "هل أقرأها عليك حتى تعرف مضمونها على وجه التحديد"؟

رد عليها الرجل بقوله: لا لست أريد أن أعرف، أعطينى الآن بعض الشاى.

وقـدمت إليـه ابنتـه كـوبا من الشـاى، وكـانت شـفـتـاه تتـحـركـان وتتـمتـمان، فقد كان يهذى بينه وبين نفسه وهـو يرتشف رشفات صغيرة من الشاى الأصفر.

وبعد أن شرب الشاى، واصلت الابنة تلاوة الجريدة "كانت محاكمة المتـهمين روباشـوف وكيبيفر قد أوشكت على الانتـهـاء. وقد أثار النقاش بشـأن الاتهام بالتـخطيط لاغتـيـال زعـيم الحـزب مـوجـات غـضب بين الحاضرين وتعالت صيحات متكررة تقول: "اقتلوا هذه الكلاب المسعورة رميا بالرصاص". وردا على السؤال الأخير للمدعى العام حول الدوافع التى كانت وراء أفـعاله أجاب روباشـوف الذى بدا منهارا بصوت متـعب متثاقل:

«لا أستطيع أن أقول سوى أننا – نحن المعارضة – بعد أن اتخذنا من الإطاحة بحكومة موطن الثورة هدفا إجراميا لنا، استخدمنا وسائل بدت ملائمة لتحقيق غرضنا وهى وسائل منحطة وشريرة كهدفنا".

ودفعت فاسيلوفنا المقعد الذى تجلس عليه إلى الخلف وقالت:

"هذا مثير للاشمئزاز، إن أسلوبه وهو يزحف كالأفعى يصيب المرء بالغثيان".

ووضعت فيرا الصحيفة جانبا، وبدأت فى صمت فى إبعاد موقد الكيروسين والكوبين. وراقبها واسيليج الذى زوده الشاى الدافئ بقدر من الشجاعة فنهض جالسا على سريره ليقول:

"لا تظنى أنك تفـهـمين، فـالله وحـده يعلم مـا كـان يدور فـى ذهن روباشوف وهـو يقول هذا، فقد علمكم الحزب جميعا كيف تكونون لئاما، وكل من يصير ماكرا أكثر من اللازم يفقد كل ما لديه من تهذيب".

ومضى الرجل يقول في غضب:

"لا جدوى من أن تهزوا أكتافكم، فقد قضى الله بأن يكون الذكاء في هذا العالم نقيضا لمحاسن الأخلاق، وعلى كل من يتحلى بإحدى هاتين الصفتين أن يتخلى عن الصفة الأخرى. فليس من صالح الإنسان أن يمعن في تدبر الأشيـاء أكثـر من اللازم، ولهـذا السـبب تقـول آية الإنجيل:

"فليكن كلامك نعم نعم، لا لا، لأن ما زاد على ذلك فهو من الشرير".

ترك الرجل نفسه يغوص فى حشية السرير وأدار وجهه حتى لا يرى الانطباع البادى على وجه ابنته، إنه لم يخالفها ويعترض عليها بهذه الشجاعة منذ وقت بعيد. إن ما فعله يمكن أن يسفر عن أى شيء، ما دامت ابنته قد وضعت في اعتبارها أنها تريد غرفة البواب لنفسها ولزوجها. إن على الإنسان أن يتصف دائما بالمكر فى هذه الحياة، حتى لا يضطر بعد أن يبلغ من العمر أرذله أن يدخل السجن أو ينام تحت الجسور فى العراء والبرد. وعلى المرء أن يختار إما أن يتصرف بذكاء وسعة الحيلة أو أن يلتزم فى مسلكه بمكارم الأخلاق، ولا يمكن أن تجتمع له هاتان الخصلتان. قالت له ابنته: "أقرأ لك الخاتمة الآن".

بعد أن انتهت النيابة من تحقيقها مع روباشوف أعيد فتح التحقيق مع المتهم كييفر. وكرر كييفر أقواله السابقة المتعلقة بمحاولة الاغتيال بتفاصيلها الكاملة.

وردا على سؤال رئيس المحكمة عما إذا كان يرغب فى استعمال حقه فى توجيه أسئلة لكييفر، أجاب المتهم روباشوف بأنه متنازل عن هذا الحق، وبذلك انتهى سماع الأدلة ورفعت الجلسة. وبعد أن عادت المحكمة إلى الانعقاد، بدأ المواطن المدعى العام فى سرد ملخص لوقائع المحاكمة.

لم يكن واسيليج العجوز يستمع إلى حديث المدعى العام. فقد استدار نحو الحائط واستغرق فى النوم، ولم يعرف بعد أن استيقظ، كم من الوقت قضاه فى النوم، ولا كم من المرات أعادت ابنته ملء المصباح بالزيت، ولا كم مرة وصلت سبابتها إلى أسفل الصفحة لتبدأ فى قراءة عمود آخر. ولم يستيقظ الرجل من نومه إلا بعد أن لخص المدعى العام خطابه مطالبا بالحكم بالإعدام على المتهم. ومن الجائز أن فاسيلجى غيرت نبرة صوتها قرب النهاية. وربما توقفت عن القراءة. وعلى أية حال لم يستيقظ من نومه إلا بعد أن وصلت فى قراءتها إلى آخر عبارة تفوه بها المدعى العام وهى عبارة مطبوعة بالبنط الأسود القاتم ومفادها كالتالى:

"أطالب بإعدام كل هذه الكلاب المسعورة رميا بالرصاص".

ثم سُمح للمتهمين بأن يقولا كلمتهما الأخيرة. فاتجه المتهم كيبفر نحو القضاة وتوسل إليهم أن يضعوا حداثة سنه فى الاعتبار، وأن يبقوا على حياته. وأقر من جديد بانحطاط وخسة جريمته، وحاول أن يلقى بتبعات الجريمة على كاهل المحرض روباشوف. وبينما يقول ذلك بدأ يتلعثم فى اضطراب مما أثار ضحك الحاضرين إلى أن تدخل المواطن رئيس المحكمة وأوقف الضحك على وجه السرعة، ثم سمح لروباشوف أن يتكلم.

وهنا يصور محرر الصحيفة بطريقة حية كيف تفحص المتهم روباشوف جميع الحاضرين بعينين شغوفتين، فلما لم يجد وجها واحدا متعاطفا معه ترك رأسه يتدلى فى يأس.

كان حديث روباشوف الأخير قصيرا فضاعف من الانطباع السيئ الذى تركه مسلكه فى المحكمة.

قال المتاهم روباشوف: "أيها المواطن الرئيس، إنى أتكلم من هنا لآخر مرة فى حياتى، إن المعارضة هزمت وتحطمت. إننى كلما سألت نفسى "لماذا أموت؟ لا أجد إجابة بل أجد نفسى أواجه عدما مطلقا. فليس هناك للموت أى معنى إذا لم يعلن المرء توبته وتصالحه مع الحزب والحركة.

"ولهذا فإنى وأنا واقف على أعتاب الموت أجثو على ركبتى إجلالا للوطن وللجماهير وللشعب كله. فقد انتهت هذه المهزلة السياسية، كما

انتهت مهزلة المهاترات والمؤامرات. فلقد متنا من الناحية السياسية حتى قبل أن يطالب المواطن المدعى العام برءوسنا. وويل للمغلوب الذى يمرغه التاريخ فى التراب. إن لدى مبررا واحدا أسوقه أمامكم أيها المواطنون القضاة وهو أنى جلبت المتاعب على نفسى، فكان الغرور وما بقى لى من الكبرياء يهمسان فى أذنى: مت فى صمت ولا تقل شيئا أو مت فى نبل وشهامة وشفتاك ترددان أنشودة البجعة المحتضرة. أفرغ ما فى جوفك وتحدى به من يتهمونك. كان ذلك أيسر وأهون على ثائر قديم، ولكنى تغلبت على هذا الإغراء فانتهيت بذلك من أداء واجبى. ودفعت الثمن وسويت حسابى مع التاريخ. ومما يدعو للسخرية والاستهزاء أن أطلب منكم الرحمة، وليس عندى شىء آخر أقوله".

وبعد مداولات قصيرة، تلى رئيس المحكمة الحكم: حكم مجلس محكمة العدل الثورية العليا على المتهمين فى كل قضية من القضايا المنظورة بأقصى عقوبة، بالإعدام رميا بالرصاص، ومصادرة جميع ممتلكاتهم الشخصية.

وحملق واسيليج العجوز فى المسمار الصدئ الذى يعلو رأسه، وهمس لنفسه متمتما واستدار نحو الحائط.

(٢)

لقد انتهى الآن كل شىء، وعرف روباشوف أنه لن يكون له وجود عندما يحل منتصف الليل. وتجول فى زنزانته التى عاد إليها بعد ضوضاء المحاكمة. وأخذ يمشى ست خطوات ونصف إلى الأمام، ومثلها

إلى الوراء. ولما توقف ووضع أذنه فوق ثالث قطعة بلاط سوداء بعد النافذة لم يجد بين الجدران المطلية باللون الأبيض سوى الصمت المخيم، الذى يبدو وكأنه ينبع من بئر سحيقة. ولكنه لم يفهم بعد لماذا صار الجو هادئا بهذه الصورة فى الداخل والخارج. ولكنه كان يعلم أنه ليس ثمة شيء يمكنه أن يكدر صفو هذا الهدوء بعد الآن.

ولما نظر إلى الماضى استطاع أن يسترجع اللحظة التى غمرته فيها السكينة فى أثناء المحاكمة، قبل أن يبدأ حديثه الأخير. فلقد كان فى البداية يعتقد أنه قضى على آخر بقية من الأنانية والغرور كانت عالقة بوعيه، ولكنه فى تلك اللحظة تفرست عيناه وجوه جمهور الحاضرين. ولم تجدا سوى السخرية وعدم الاكتراث، فتملكه لآخر مرة ظمأ لشيء من الشفقة يلقى به إليه كما تلقى عظمة إلى كلب، فلجأ إلى الكلمات ينشد فيها الدفء بعد أن تجمدت أطرافه من البرودة. ودفعه الإغراء إلى أن يتحدث عن ماضيه ولو لمرة، وأن يمزق الشباك التى نسجها حوله إيفانوف وجلتكين وأن يصرخ كدانتون فى وجوه من يتهمونه قائلا:

"لقد تحكمتم وسيطرتم على حياتى بأسرها. فهل تنهض لتتحداكم".

لكم كان يحفظ حديث دانتون أمام المحكمة الثورية، وبإمكانه أن يكرره كلمة بكلمة إذ إنه حفظه فى صباه عن ظهر قلب:

"إنكم تريدون أن تغرقوا الجمهورية فى الدماء حتى تختنق. أما آن للحرية أن تكف عن السير فوق شواهد القبور؟ إن الطغيان على قدم

وساق، وقد أماط اللثام ورفع رأسه عاليا وهو يخطو فوق جثثنا".

ولكن الكلمات جفت فى حلقه، ولم يدم الإغراء سوى برهة. وعندما بدأ الإدلاء بحديثه النهائى داهمه ناقوس الصمت، فعلم أن الزمن كان متأخرا للغاية.

تأخر الزمان بروباشوف بحيث أصبح متعذرا عليه العودة من نفس الطريق، وتعذر عليه أن يخطو من جديد فى قبور آثار أقدامه. فالكلمات لم يعد لها أى أثر أو جدوى.

لقد تأخر الوقت بهم جميعا، فحينما حانت الساعة التى يظهرون فيها أمام العالم لآخر مرة، لم يستطع أحد منهم أن يحول قفص الاتهام إلى منبر ولا أن يكشف عن الحقيقة للعالم ويرد اتهامهم له مثلما فعل دانتون..

لقد أخرس الخوف الجثمانى بعضهم كما حدث بالنسبة لذى الشفة الأرنبية ، وراود بعضهم الأمل فى إنقاذ رقابهم، كما راود الأمل البعض الآخر فى إنقاذ زوجاتهم وبنيهم – على الأقل – من براثن أمثال جلتكين. أما أفضلهم جميعا، فقد آثروا الصمت حتى يقدموا خدمة أخيرة للحزب، وذلك بأن يتركوا أنفسهم يضحى بهم ككباش فداء. وحتى أفراد ذلك النوع الأفضل، فلم يخل ضمير أحد منهم من ضحية مثل أرلوفا تؤرقه. فهم مشدودون إلى ماضيهم، وقد سقطوا فى الشباك التى نسجوها

بأيديهم، وفق قواعدهم الأخلاقية غير السوية، ومنطقهم المعوج.. كانوا جميعا مذنبين، ولكن ليس بسبب الأعمال التى اتهموا أنفسهم بارتكابها. ولم يجدوا طريقا للعودة أو طوقا للنجاة بعد أن غادروا خشبة المسرح وفقا لقواعد لعبتهم الغريبة. ولم يتوقع الجمهور منهم الشدو بأناشيد البجعة المحتضرة، لأنه كان عليهم أن يلتزموا بالنص فى أداء أدوارهم، أدوار عواء الذئاب فى ظلمة الليل البهيم.

لقد انتهى الآن كل ذلك، ولم تعد هناك صلة تربطه به. ولم يعد لزاما عليه أن يعوى مع الذئاب، فقد دفع الثمن وقام بتسوية حسابه. فأصبح الآن رجلا فقد ظله وتحرر من كل القيود. لقد تابع كل فكرة حتى منتهاها وتصرف وفقا لتلك الفكرة حتى النهاية.

إن الساعات التى بقيت له ملك لهذا الشريك الصامت الذى تبدأ حدود مملكته عند نهاية التفكير المنطقى. ولقد بارك هذا الشريك الذى أطلق عليه اسم "الخيال النحوى" بمياه الخجل من استخدام ضمير المتكلم المفرد (أنا)... ذلك الخجل لقنه الحزب لجميع أتباعه.

وتوقف روباشوف بجوار الحائط الذى يفصله عن رقم (٤٠٦)، وكانت الزنزانة فارغة منذ رحيل ريب فان وينكل. وخلع نظارته ونظر حوله خلسة ودق الآتى:

٢-٤

واستمع فى شىء من الخجل الطفولى ثم دق الشفرة من جديد:

٢-٤

واستمع وكرر دق نفس السلسلة من الإشارات. ولكن الحائط ظل صامتا. إنه لم يسبق له قط أن دق عن وعى كلمة أنا، وربما لم يدق هذه الكلمة أبدا.

واستمع حتى تلاشت نقراته دون إجابة، وظل يذرع زنزانته جيئة وذهابا منذ أن لفه ناقوس الصمت، وأخذ يفكر بحيرة فى بعض الأسئلة التى كان يود أن يجد لها إجابة قبل فوات الوقت. كانت هذه الأسئلة أسئلة ساذجة بعض الشىء، فهى تتعلق بماهية العذاب، أو بمعنى أدق تتعلق بالفرق بين العذاب الذى له معنى والعذاب الذى ليس له معنى، ومن الواضح أن مثل هذا العذاب الذى لا مفر منه هو وحده الذى له معنى لأنه ينبع من الحتمية البيولوجية. وعلى الجانب الآخر، فإن كل عذابه يرجع إلى أسباب اجتماعية يعتبر عذابا عرضيا وبمحض الصدفة، ومن هنا يصبح عديم الجدوى والمعنى. لقد كان المبرر الوحيد للثورة هو القضاء على العذاب الذى ليس له معنى، ولكن ثبت أن التخلص من النوع الآخر من العذاب لا يمكن أن يتحقق إلا مقابل زيادة مؤقتة هائلة وضخمة فى حجم النوع الأول من العذاب، ومن هنا جاء هذا السؤال:

هل هناك مبرر لهذه العملية الثورية؟ من الواضح أن لها ما يبررها، لو أننا تكلمنا عن الإنسانية من منظور مجرد صرف. ولكن إذا طبقنا ذلك المبدأ على الإنسان الفرد، أى على رمز الشفرة ٢-٤، فإن المبدأ سوف يبدو وكأنه ضرب من العبث إذا تعلق الأمر بكائن بشرى من عظم ودم وجلد، وعندما كان روباشوف صبيا، كان يعتقد أنه عن طريق العمل فى صفوف الحزب، سوف يحصل على إجابة عن كل الأسئلة التى من هذا القبيل. ولقد استمر يعمل من خلال الحزب أربعين عاما أنسته السبب الذى انضم من أجله إلى الحزب. والآن انتهت الأعوام الأربعون وعاد إلى نفس حيرته فى صباه. لقد أخذ الحزب منه كل ما كان فى مقدوره أن يعطيه، دون أن يقدم إليه الحزب الإجابة. وأيضا ضن عليه بها الشريك الصامت الذى دق اسمه السحرى على حائط الزنزانة الفارغة. فقد كان ذلك الشريك أصم لا يجيب عن الأسئلة المباشرة مهما كانت ملحة ومصيرية.

ومع ذلك كانت هناك وسائل للاقتراب منه حيث إنه كان يستجيب – على غير المتوقع – إلى لحن أو نغمة أو حتى لذكرى لحن أو نغمة أو للذراعين المطويتين فى لوحة "الرحمة" أو لمشاهد معينة تتعلق بمرحلة الطفولة. وهو فى ذلك يشبه الذبذبات التى تأتى نتيجة الضرب على الشوكة الرنانة. وبمجرد أن يحدث هذا تنشأ حالة يعرفها المتصوفون بحالة النشوة، وحالة تأمل القديسين. ولقد اعترف أعظم علماء النفس

المحدثين وأرجحهم عقلا بهذه الحالة كحقيقة، وأسموها الإحساس بالمحيط. والواقع أنها حالة تذوب فيها شخصية المرء كما تذوب حبة الملح فى البحر، ولكن البحر اللا محدود يبدو فى الوقت ذاته وكأنه حبة الملح قد استوعبته. فلم يعد لحبة الملح موضع محدد فى الزمان أو المكان، إذ إنها حالة يفقد الفكر فيها اتجاهه ويبدأ فى التحرك فى دوائر كإبرة البوصلة أمام قطب مغناطيسى، حتى يخرج فى النهاية عن محوره ويصبح طليقا فى أجواز الفضاء كحزمة من الأشعة الضوئية فى الظلام، وذلك حتى يتبين أن جميع الأفكار والأحاسيس بما فيها الألم والفرح ليست فى حقيقة الأمر إلا انعكاسات الطيف لنفس الشعاع الضوئى الذى يتحلل داخل منشور الوعى.

تجول روباشوف فى زنزانته، وفى الأيام التى خلت كان ينكر على نفسه بدافع الخجل مثل هذا النوع من التأمل الطفولى. أما الآن فهو غير خجل منه، فبالموت يصبح ماهو ميتافيزيقى حقيقة. وتوقف عند النافذة وأسند رأسه إلى زجاجها. وبدت له فوق برج المدفع بقعة زرقاء من السماء وكانت زرقتها شاحبة ذكرته بهذه الزرقة الخاصة التى كان يراها تظلله عندما كان صبيا يرقد فوق العشب فى حديقة والده يراقب أغصان شجر الحور وهى تتحرك فى بطء تحت قبة السماء. واتضح له أن بقعة من زرقة السماء كفيلة بأن تثير فيه تلك الحالة الانفعالية المحيطية السالفة الذكر. لقد قرأ ذات مرة، أنه طبقا لأحدث اكتشافات

الطبيعة الفلكية، فإن حجم الكون محدود، على الرغم من عدم وجود حدود للفضاء. فالفضاء يشتمل على ذاته مثل سطح الكرة. لم يكن روباشوف من قبل قادرا على فهم هذا. ولكنه الآن يشعر برغبة ملحة فى أن يفهمه، بل إنه لابد أن يتذكر أيضا أين قرأ هذا الموضوع. ففى أثناء فترة اعتقاله الأولى فى ألمانيا، كان الرفاق يهربون صفحة من جريدة الحزب - غير المرخص بإصدارها- إلى زنزانته وكانت هناك فى صدرها ثلاثة أعمدة تتناول إضرابا فى مصنع غزل. وفى أسفل أحد الأعمدة كتبوا بحروف صغيرة كنوع من ملء الفراغ، عن اكتشاف مفاده أن الكون محدود. وعند منتصف الصفحة كان هناك جزء مقطوع فلم يستطع قط أن يعرف ما كان مكتوبا فيه.

وقف روباشوف بجوار الشباك ودق على حائط الزنزانة الخاوية بنظارته. عندما كان صغيرا كان يريد بالفعل أن يدرس الفلك. أما الآن، فقد ظل على مدى أربعين عاما يمارس شيئا آخر. لماذا لم يسأله المدعى العام قائلا: "أيها المتهم روباشوف، ما رأيك فى اللامحدود؟" كان سيعجز عن الإجابة. وهنا يكمن مصدر شعوره بالذنب.. هل يمكن أن يكون هناك وجود لكائن أعظم؟

وحينما قرأ ذلك الخبر فى الصحيفة فى الوقت الذى كان فيه أيضا بمفرده فى الزنزانة كانت مفاصله لا تزال تؤلمه من أثر التعذيب الذى لقيه المرة الأخيرة فاستغرق فى حالة غريبة من السمو واجتاحه ذلك

الإحساس بالمحيط. وبعد ذلك شعر بالخجل من نفسه. فقد كان الحزب يعارض مثل تلك الحالات التى تنتابه ويسميها بحالات الصوفية لدى البورجوازية الصغيرة، كما يصفها بأنها لجوء إلى البرج العاجى وبأنها هروب من أداء الواجب وخذلان للصراع الطبقى.. أى أن الحزب اعتبر الإحساس بالمحيط بمثابة ثورة مضادة؛ إذ إن الصراع الطبقى يتطلب من المرء الوقوف على الأرض بقدمين ثابتتين... وكان الحزب يعلم السبيل إلى ذلك. كانت فكرة اللامحدود أمرا مشتبها فيه من الناحية السياسية، وهو "الأنا" المشتبه فيها من حيث الكيف، والحزب لا يعترف بوجودها وبذلك أصبح تعريف الفرد هو: ناتج قسمة مليون من الجماهير على مليون.

وبينما كان الحزب ينكر على الفرد حرية الإرادة، كان يطلب منه فى الوقت ذاته أن يُقبل على التضحية بذاته، وبينما كان الحزب ينكر عليه قدرته على الاختيار بين البدائل كان يطالبه بالاختيار الصحيح. وفى الوقت الذى كان الحزب ينكر عليه فيه قدرته على أن يميز الخبيث من الطيب، فإنه تحدث بعاطفة مشبوبة عن الذنب والخيانة: فالفرد يقف تحت راية الحتمية الاقتصادية وكأنه ترس فى ساعة ملئت لتعمل إلى الأبد، فلا تتوقف ولا يؤثر فى سيرها مؤثر. ومع ذلك، يطلب الحزب من الترس أن يثور على الساعة ويغير من مساره. إن هناك خطأ ما فى هذا الحساب، فالمعادلة بهذا الشكل لا تعمل أو تستقيم.

لقد ناضل على مدى أربعين عاما ضد القدرية الاقتصادية، فهى بيت الداء بالنسبة للإنسانية، وهى السرطان الذى يلتهم أحشاءها، ذلك السرطان الذى يجب أن تنصب جهود الإنسان على علاجه فبدونه لا تتم عملية الشفاء. وكل ما عدا ذلك فهو من عمل الهواة والرومانسيين والدجالين. إن أحدا لا يستطيع أن يعالج مريضا بمرض خطير بنصائح التقوى والورع؛ إذ إن الحل الوحيد هو مشرط الجراح وحساباته الهادئة والباردة. ولكن مع كل استعمال للمشرط لاستئصال دمل ظهر دمل جديد مكان الدمل القديم، وبذلك لا تستقيم المعادلة أيضا.

لقد عاش على مدى أربعين عاما، وهو يلتزم التزاما صارما بما عاهد عليه الحزب، فقد استمسك بقواعد الحساب المنطقى. وذوب فى حمض العقل ما بقى فى وعيه من مخلفات النظام الأخلاقى القديم الذى لا يتصف بالمنطق وانصرف عن إغراءات الشريك الصامت، وقاتل "الإحساس بالمحيط" بكل ما أوتى من قوة، ولكن إلى أين قاده كل ذلك؟ لقد قادته افتراضات إيفانوف وجلتكين التى لا يمكن دحضها بامتلاك الحقيقة التى لا مراء فيها إلى نتيجة فى منتهى العبث وانتهت به مباشرة إلى لعبة المحاكمة العلنية، تلك اللعبة المخيفة المروعة. وربما لم يكن من المناسب أن يسير الإنسان بكل فكرة تخطر له حتى نهايتها المنطقية.

ونظر روباشوف من خلال قضبان الشباك إلى الرقعة السماوية الزرقاء فوق برج المدفع. ولما استرجع ماضيه بدا له الآن أن الأربعين سنة التى ركضت به، لم تكن سوى جموح العقل الخالص. وربما كان من

غير المناسب للمرء أن يتحرر تماما من قيود الماضى، ومن النواهى الدينية عن الإتيان بأفعال أو أن يسمح لنفسه بالانفلات والاندفاع مباشرة نحو هدفه.

وبدأ اللون الأزرق يميل إلى الحمرة، وأخذ الغسق يزحف. وشرع يدور حول البرج سرب من الطيور السوداء التى كانت تضرب بأجنحتها فى بطء متعمد. كلا إن المعادلة لم تستقم وتبين فشلها وبات من الواضح أنه لا يكفى أن يولى الإنسان وجهه شطر هدف ما وهو يمسك بمشرط التجارب فى يده. فليس من المناسب أن يجرى تجاربه بهذا المشرط. ربما جاز له ذلك فى يوم من الأيام المقبلة.. أما الآن فهو لا يزال صغيرا ومتعثر الخطوات. لكم صاح فى ثورته الهوجاء فى حقل التجارب العظيم مناديا بإقامة وطن الثورة الأم ومعقل الحرية.

لقد برر جلتكين كل ماحدث من منطلق الذود عن الحصن والمحافظة عليه، ولكن كيف بدا ذلك الحصن من الداخل؟ لا.. إن الإنسان لا يمكنه أن يبنى فردوسا بالخرسانة، إنه يمكن منع الحصن من السقوط، ولكن ماذا يتبقى داخله، وماذا سيكون عليه؟! صحيح أنه يمكن المحافظة على الحصن ولكن ما أهمية هذا الحصن بعد أن يكون قد فقد رسالته ولم يعد المثل الأعلى للعالم. لقد لطخ نظام حكم الزعيم رقم (١) المثل الأعلى للدولة الاشتراكية (كما لطخ بعض بابوات العصور الوسطى المثل الأعلى للامبراطورية المسيحية) فنكس بذلك راية الثورة.

ومشى روباشوف خلال زنزانته التى كانت هادئة وشبه مظلمة. فلم يبق إلا وقت قليل حتى يجيئوا لإحضاره. هناك ثمة خطأ فى أحد جوانب المعادلة بل فى منظومة الفكر الرياضية بأسرها. لقد كان لديه إحساس بهذا منذ أمد طويل، منذ قصة ريتشارد ولوحة "الرحمة" للسيدة العذراء، ولكنه لم يجرؤ على الاعتراف بذلك.

ربما تكون الثورة قد نشبت قبل الأوان فخرجت سقطا مبتسرا له أطراف شوهاء مخيفة، وربما كان كل ما فى الأمر خطأ فادح فى موعد الثورة وتوقيتها. لقد بدت الحضارة الرومانية أيضا محكوما عليها بالفناء منذ القرن الأول قبل الميلاد. كما بدت فاسدة حتى النخاع كحضارتنا. كذلك اعتقد صفوة الناس أن الوقت قد حان لإجراء تغيير كبير فى تلك الحضارة. ومع ذلك صمد العالم القديم البالى لخمسة قرون أخرى قبل أن ينهار. إن للتاريخ نبضا بطيئا فعمر الإنسان يعد بالسنوات وعمر التاريخ يقاس بالأجيال، وربما كنا لا نزال فى ثانى يوم من أيام الخليقة. كم كان يتمنى أن يحيا حتى يضع أسس نظرية النضج النسبى لدى الجماهير.

كان الهدوء مخيما فى الزنزانة، ولم يسمع روباشوف سوى وقع أقدامه على الأرض وهو يخطو ست خطوات ونصف الخطوة جهة الباب الذى لابد أنهم قادمون من خلاله لإحضاره، وكذا نفس العدد من الخطوات جهة الشباك الذى سدل الليل ستائره خلفه.

سوف ينتهى كل شىء فى الحال. غير أنه كلما سأل نفسه: لماذا يضحى بحياته لم يجد لذلك جوابا.

إن هناك خطأ فى النظام وربما كان هذا الخطأ يكمن فى المفهوم الذى لم يزل حتى الآن يعتبره أمرا لا نزاع فيه... ذلك المفهوم الذى ضحى باسمه بآخرين، حتى سقط هو نفسه ضحية لهذا المبدأ القائل بأن الغاية تبرر الوسيلة. إن هذه العبارة هى التى أجهزت على الرعيل الأعظم للثورة الذى ربطته وشائج الأخوة، وجعلتهم يتدافعون نحو السقوط جميعا، حتى إنه قال فى مذكراته ذات مرة: "لقد ألقينا من فوق ظهورنا بكل التقاليد والمواضعات، فأضحى المبدأ الوحيد الذى يهدينا هو منطق النتائج، إننا نبحر دون تزويد سفينتنا بالأخلاق التى تحافظ على توازنها.

ربما كان ذلك مكمن الشر. فقد لا يكون من المناسب للبشرية أن تبحر دون حمولة تحفظ توازن سفينتها.

ربما يكون العقل وحده بوصلة قاصرة لا تشير إلى الاتجاه الصحيح وتجعلنا نسير فى طريق به كثير من المنحنيات لدرجة أنها فى النهاية تخفى الهدف عن الأنظار.

وربما قامت بعد زماننا بكثير حركة جديدة تحمل رايات جديدة، حركة تعى الحتمية الاقتصادية والإحساس بأننا أمام محيط لا أول له ولا

اخر. وربما يجيء اليوم الذى يرتدى فيه أعضاء الحزب الجديد أردية الرهبان، وأغطية رءوسهم ويبشرون فيه بأن طهارة الوسيلة وحدها هى التى يمكن أن تبرر الغاية. وقد يعلمون الناس أن العقيدة القائلة بأن الإنسان هو محصلة قسمة مليون على مليون، عقيدة خاطئة. وقد يستحدثون نوعا جديدا من الحساب مبنيا على جدول الضرب، وعلى جمع مليون فرد ليكونوا كيانا جديدا لا يصبحون فيه جماهير ليس لها شكل... كيانا يطور وعيه وذاتيته المستقلة عن طريق إحساس المرء بأنه يستوعب المحيط بداخله، ويتضاعف هذا الإحساس مليون مرة فى فراغ لا حدود له ومكتف بذاته.

وقطع روباشوف سيره، واستمع إلى صوت الطبل المكتوم عبر الممر.

(٣)

كان صوت الطبول يأتى وكأن الريح تحمله من بعيد، فقد كان لا يزال بعيدا لكنه يقترب، ووقف روباشوف لا يحرك ساكنا، ولم تعد له سيطرة علي ساقيه الواقفين على الأرض، وشعر بقوة الجاذبية الأرضية تتصاعد ببطء فى هاتين الساقين، ومشى ثلاث خطوات إلى الوراء جهة الشباك دون أن يرفع عينه من على ثقب الباب، وتنفس بعمق وأشعل لفافة، وسمع دقا يأتيه من الحائط، الذى يلى سريره يحمل هذه الرسالة:

"إنهم يحضرون ذا الشفة الأرنبية وهو يبعث إليك بتحياته".

وزال عن ساقيه الإحساس بالتثاقل، واتجه نحو الباب وبدأ يضرب براحتيه على الجزء المعدنى فى سرعة وبطريقة إيقاعية، ولم يعد هناك جدوى من نقل الخبر إلى رقم (٤٠٦)، فقد كانت زنزانته فارغة لتنقطع عندها حلقة الاتصال ببقية الزنازين.

وظل يدق دقة الطبول مثبتا عينه على فتحة الباب.

وفى الممر كان الضوء الكهربائى الخافت يضىء كالمعتاد، ورأى روباشوف الأبواب الحديدية من رقم (٤٠١) إلى (٤٠٧) كما كان يراها دائما. تصاعد القرع على الطبول واقترب صوت خطوات بطيئة زاحفة تسمع بوضوح من فوق الأرضية، وفجأة لاح ذو الشفة الأرنبية وهو واقف فى مجال شعاع البصر لثقب الباب، وكان يقف هناك بشفتين مرتعشتين، مثلما كان يقف أمام ضوء المصباح العاكس فى حجرة جلتكين.

وكانت يداه مقيدتين ومتدليتين خلف ظهره فى وضع غريب فى التوائه، واستطاع أن يرى عين روباشوف وراء ثقب الباب، فأخذ ينظر فى غشاوة إلى الباب بعينين باحثتين، وكأن آخر أمل له فى الخلاص قابع وراءه، وعندئذ صدر أمر فاستدار ذو الشفة الأرنبية فى طاعة ليمضى فى سبيله، ومن ورائه العملاق ذو الزى الرسمى متمنطقا بجراب مسدسه، واختفى الرجلان من مجال رؤية روباشوف، الواحد تلو الآخر.

ووهن صـوت الطبـول، وهـدأ كل شيء من جـديد وجـاء من الحـائط الذى يلى السرير صوت دقات تقول:

- لقد أحسن الشاب صنعا.

لم يتبادل روباشوف الحديث مع رقم (٤٠٢) منذ اليوم الذى أعلن فيه استسلامه. ومضى رقم (٤٠٢) يقول:

"لا يزال أمامك عشر دقائق، فبماذا تشعر الآن؟"

وفـهم روباشـوف أن رقم (٤٠٢) قـد بدأ الحـديث ليـجـعل الانتظار أخف وطأة عليه. وأحس بالامتنان لذلك، وجلس على السرير ودق الإجابة التالية:

- كنت أتمنى لو أن هذا الأمر قد انتهى من قبل.

فقال رقم (٤٠٢) :

- لا تهتز فرقا وترتعد فرائصك، وإننا نعلم أنك رجل عفريت.

وسكت رقم (٤٠٢) ثم كرر فى سرعة كلماته الأخيرة:

- إنك رجل عفريت.

ومن الواضح أنه كان متلهفا على استمرار الحديث. تساءل:

- أمـا زلت تذكـر "ثدياها ككأسـى الشـمـبانيا" هـا.. هـا.. يالك من عفريت.

واستمع روباشوف إلى صوت يأتى من الممر، لكن لم يسمع شيئا بالفعل ويبدو أن النزيل (٤٠٢) خمن أفكاره، إذ إنه فى الحال دق مرة أخرى قائلا:

- لا تستمع. فسوف أخبرك فى الوقت المناسب عندما يأتون.. وماذا أنت فاعل لو أنهم عفوا عنك؟

وفكر روباشوف فى الأمر ودق قائلا:

- سوف أدرس الفلك.

عندئذ قهقه رقم (٤٠٢): هاها، وأنا أيضا سأفعل ذلك فإنه يقال إن الكواكب الأخرى قد تكون مسكونة أيضا، اسمح لى أن أقدم لك نصيحة.

فأجابه روباشوف فى دهشة: "بكل تأكيد".

- لا تحمل نصيحتى على محمل سيىء. فإنها صادرة عن تجربة عملية لجندى محارب. عليك أن تبول وتفرغ مثانتك فإن ذلك أفضل لمن هو فى مثل حالتك. أما الروح فنشيطة وأما الجسد فضعيف(*) ها ها.

وابتسم روباشوف وعمل بالنصيحة وذهب إلى الدلو، ثم جلس على السرير ثانية، ودق قائلا:

(*) آية وردت فى الكتاب المقدس. (المترجم)

– شكرا. إنها فكرة عظيمة وماذا عن مستقبلك؟

فصمت رقم (٤٠٢) لثوان قليلة ثم دق على نحو أبطأ من ذى قبل قائلا:

– ثمانية عشر عاما أخرى.. لا ليست ثمانية عشر على وجه التحديد إنها مجرد ٦٥٣٠ يوما.

وسكت عن الكلام ثم أضاف قائلا:

– أنا أحسدك حقا.

ثم قال بعد وقفة:

– لك أن تتخيل أنى سأقضى ٦٥٣٠ ليلة دون امرأة.

ولم يقل روباشوف شيئا، ثم دق قائلا:

– ولكن تستطيع أن تقرأ وتدرس.

فدق رقم (٤٠٢) مجيبا :

– لم أعد قادرا على هذا.

ثم دق فى صوت عال وفى عجلة:

– إنهم قادمون...

وتوقف، لكنه قال بعد ذلك بثوان:

- يعز عليّ فراقك بعد أن تبادلنا هذا الحديث الشيق منذ قليل.

ونهض روباشوف من السرير، وفكر قليلا ثم دق قائلا:

- أشكرك فقد ساعدتنى كثيرا.

وسمع صوت المفتاح وهو يدخل فى قفل الباب، واندفع الباب مفتوحا، ووقف فى الخارج العملاق ذو الزى الرسمى ومعه موظف مدنى، ونادى الموظف المدنى على روباشوف بالاسم وبسط أمامه نصا فى إحدى الوثائق، ولما ثنوا ذراعيه خلف ظهره ووضعوا القيد فى معصميه سمع رقم (٤٠٢) يدق فى عجالة:

- إنى أحسدك.. إنى أحسدك.. وداعا.

وبدا صوت قرع الطبول يسمع من جديد فى الممر، وصاحبهم هذا الصوت حتى وصل إلى غرفة الحلاق. كان روباشوف يعلم أن وراء كل باب حديدى عينا تنظر إليه من خلال ثقب الباب، لكنه لم يدر رأسه يمنة أو يسرة بينما كان القيد يؤلم معصمه، فقد أحكم العملاق تضييقه. كما أنه آلم ذراعى روباشوف الملويتين وراء ظهره، ولذلك كان الذراعان يؤلمانه.

ظهرت درجات سلم القبو. وأبطأ روباشوف من سرعته وتوقف الرجل المدنى أعلى درجات السلم، وكان ضئيل الجسم ذا عينين جاحظتين قليلا وتوجه بالسؤال إلى روباشوف:

- هل لديك رغبة أخرى؟

فقال روباشوف: "لا". وبدأ يهبط درجات السلم في حين ظل الموظف المدنى واقفا فى مكانه، وهو ينظر إليه من أعلى بعينين جاحظتين.

إن السلم ضيق وضعيف الإضاءة، وأخذ روباشوف حذره حتى لا يتعثر، حيث إنه لم يتمكن من الإمساك بدرابزين السلم. وانحنى روباشوف حتى يرى بشكل أفضل وسقطت نظارته من على عينيه وهوت على الأرض على بعد درجتين من درجات السلم، ثم تدحرجت إلى أسفل، حيث استقرت مهشمة فوق آخر درجات السلم. وتوقف روباشوف لثانية، فى تردد، ثم تحسس طريقه إلى أسفل ما بقى من السلالم، وسمع الرجل من ورائه وهو ينحنى على النظارة المكسورة ليضعها فى جيبه، ولكن لم يدر رأسه. صار روباشوف الآن شبه أعمى لكنه مازال يمشى شاعرا بثبات الأرض تحت قديمه، وقابل ممرا طويلا غير واضح الجدران، ولم ير له نهاية. وظل الرجل ذو الزى العسكرى يسير خلفه متأخرا عنه بثلاث خطوات. كان روباشوف يشعر بأن نظرة الرجل تخترق قفاه، لكنه لم يدر رأسه. كان يقدم رجلا بعد الأخرى فى حذر.

وبدا له أنهم ظلوا يمشون فى هذا الممر لمدة دقائق عديدة، لكن شيئا لم يحدث. ويحتمل أنه سيسمع ما سوف يحدث عندما يخرج الرجل ذو الزى العسكرى مسدسه من جرابه. وحتى يحين ذلك الوقت فإنه لا يزال

آمنا على حياته، وربما يكون الرجل الذى وراءه يعمل بطريقة أطباء الأسنان، الذين يخفون معداتهم فى أكمامهم وهم ينحنون على مرضاهم؟ وحاول روباشوف أن يفكر فى أمر آخر، ولكن كان عليه أن يركز جل اهتمامه، كى يمنع نفسه من أن يدير رأسه إلى الخلف.

ومن العجيب أن آلام أسنانه توقفت منذ اللحظات التى خيم فيها السكون من حوله فى أثناء المحاكمة، ربما انفجر الخراج فى هذه اللحظات بالتحديد. ماذا قال لهم؟ قال:

"إنى أجثو على ركبتى إجلالا للبلاد وللجماهير ولجميع الشعب.. وماذا بعد ذلك؟ ... ما الذى حدث لهذه الجماهير ولهذا الشعب؟ لقد ظلوا يقتادون الشعب خلال أربعين عاما عبر الصحراء بالوعد والوعيد، والرعب الوهمى، والمكافآت الوهمية، ولكن أين أرض الميعاد؟

هل هناك حقا مثل هذا الهدف أمام الجنس البشرى التائه؟

هذا سؤال كان يود أن يجيب عنه قبل فوات الأوان. إن موسى أيضا لم يسمح له بدخول أرض الميعاد، ولكن سمح له بأن ينظر إليها ممتدة تحت قدميه، وهو يقف على قمة الجبل. بهذا يسهل على المرء أن يموت بعد أن يرى بعين اليقين هدفه ماثلا أمامه، لكن المدعو نيكولاس روباشوف لم يعتل قمة جبل، وكلما رنا بعينيه ، لم يجد سوى الصحراء وظلام الليل.

وأحس بضربة كئيبة تصيب مؤخرة رأسه، لقد كان يتوقعها منذ وقت بعيد، ومع ذلك فإنها فاجأته على حين غرة، وأحس فى دهشة بركبتيه تترنحان وبجسمه يهوى فى نصف دورة، وبينما كان يسقط قال لنفسه كم هى ميتة مسرحية، ومع ذلك لا أحس بشىء. وتكوم جسده على الأرض. ولامس خده بلاطها البارد. وأقبل الظلام وشعر بلجج البحر تتقاذفه على سطحها الليلى، وجالت فى خاطره الذكريات كأنها شرائح الضباب تكسو صفحة الماء.

وفى الخارج طرق رجل الباب، فأخذ روياشوف يحلم بأنهم قادمون للقبض عليه. ولكن دون أن يدرى فى أى بلد هو.

وحاول جاهدا أن يدخل ذراعه فى كم روبه، لكن سأل نفسه عن صاحب البورتريه الملون المعلق فوق سريره والشاخص إليه ببصره.

هل هى صورة رقم (١)، أم أنها صورة شخص آخر، وهل هى لصاحب الابتسامة الساخرة أم أنها لصاحب النظرة الزجاجية المحملقة؟!"

وانحنى عليه جسم لم يتبين معالمه وكانت تفوح رائحة جلد جراب مسدس جديد، ولكن ما هو النيشان الذى يضعه ذلك الشخص على كمه وعلى كتفى بزته العسكرية، وباسم من صوب هذا الشخص خزانة طلقات مسدسه الأسود عليه؟

وهبطت ضربة قاضية ثانية على أذنه، ثم أصبح كل شيء هادئا.

وعاد البحر من جديد حاملا أصواته. ورفعته إحدى موجاته في بطء، آتية من بعيد وماضية في سفرها بهدوء، كأنها هزة كتف من الأبدية غير عابئة أو مكترثة.

النهاية

المؤلف فى سطور :

آرثر كيسلر :

ولد آرثر كيسلر الكاتب البريطانى فى بودابست عام ١٩٥٠ وتوفى منتحرا عام ١٩٨٣ بسبب اشتداد وطأة مرض السرطان عليه . وشاركته زوجته قنوطه من الشفاء فانتحرت معه .

درس كيسلر العلوم البحتة فى فيينا وفتن بالمذهب الشيوعى فى شبابه . ولكنه سرعان ما نفض عنه أوهام الشيوعية بعد زيارة ميدانية لروسيا عام ١٩٣٢ / ١٩٣٣ ، الأمر الذى دفعه إلى مهاجمة الشيوعية بضراوة فى الكثير من كتاباته كما يتجلى لنا من روايته «ظلام فى الظهيرة» التى ألفها عام ١٩٤٠ . وفى عام ١٩٥٠ اشترك كيسلر فى تأليف كتاب بعنوان «إلاله الذى فشل» الذى فضح مزاعم الأيدولوجية الشيوعية مع لفيف من أبرز رجال الفكر والأدب فى أوربا مثل أندريه جيد .

وعندما اندلعت الحرب الأهلية الإسبانية عام ١٩٣٦/١٩٣٧ عمل كيسلر مراسلا صحفيا لبعض الصحف الغربية . وفى أسبانيا ألقى الديكتاتور الفاشى الإسبانى المعروف الجنرال فرانكو القبض عليه ، وزج به في السجن حيث انتظر تنفيذ الحكم عليه بالإعدام فى أية لحظة . وهذا يدل على أن جو السجون والزنازين جزء لايتجزأ من نسيج حياته وأن مناخ الشمولية المروع الذى يصفه بدقة فى روايته «ظلام فى الظهيرة» أليف لديه .

المترجم فى سطور :

الدكتور / رمسيس عوض

أستاذ الأدب الإنجليزى بكلية الألسن جامعة عين شمس نسيج وحده ونموذج فريد للأستاذ الجامعي ويشهد على ذلك تعدد اهتماماته وأنشطته الأدبية والثقافية والفكرية فهو مفكر وأديب وناقد ومترجم ومؤرخ للأدب فضلا عن أنه موثق ببليوجرافى .

توفر الأستاذ الدكتور / رمسيس عوض على ترجمة رواية «بداية ونهاية» إلى اللغة الإنجليزية فساعد بذلك على تعريف العالم الخارجى بقيمة أديب مصر الكبير الأستاذ / نجيب محفوظ. ويتسم إسهامه فى الأدب العربى بالتميز فموسوعته البيليوجرافية للمسرح المصرى فى الفترة من ١٩٠٠ إلى ١٩٣٠ نموذج يحتذى فى مجال الدراسات المسرحية الجادة .

وقد قدم السيد الأستاذ الدكتور/ رمسيس عوض إلى المكتبة العربية نحو خمسة وخمسين مؤلفا يتناول بعضها الأدب العربى المعاصر مثل أدب توفيق الحكيم وبعضها يتناول الحس الحضارى والوطنى عند المشتغلين بالمسرح المصرى فكتابه «اتجاهات سياسية فى

المسرح المصرى قبل ثورة ١٩١٩ » يلقى الضوء على الدور الوطنى الطليعى الذى اضطلع به المسرح المصرى فى إزكاء ثورة ١٩١٩ كما أن كتابه « شكسبير فى مصر » الذى قامت مكتبة الإسكندرية بترجمته إلى اللغة الإنجليزية ، يبرز الحس الحضارى الكامن في نفس الشعب المصرى ، إلى جانب ترجماته إلى العربية لأشهر فلاسفة ومفكرى وأدباء الغرب أمثال برتراند راسل وجوليان هكسلى ود.هـ.لورانس . فضلا عن أنه مدافع نشيط عن حرية التعبير الأمر الذى جعله يؤلف خمسة كتب عن محاكم التفتيش ونحو ثمانية كتب عن معسكرات الاعتقال النازية .

وقد أصدر الدكتور رمسيس عوض ما يربو على ستين كتابا باللغة العربية إلى جانب أبحاثه فى الأدبين الإنجليزى والأمريكى .

من كتبة باللغة العربية :

- برتراند راسل الإنسان، الدار القومية، القاهرة , ١٩٦١

- برتراند راسل المفكر السياسي، الدار القومية، القاهرة , ١٩٦٦

- جورج أورويل (حياته وأدبه)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧ ,

- الأدب الروسي قبل الثورة البلشفية وبعدها، الألف كتاب الثاني، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة , ١٩٨٩

ومن ترجماته :

- محاكم التفتيش فى فرنسا (المجلس الأعلى للثقافة) ٢٠٠٥ .

- ألبرت أينشتاين : سيرة حياته (المجلس الأعلى للثقافة) ٢٠٠٥

- ترجمة إنجليزية لكتاب «شكسبير فى مصر» مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٣ .

- محاكمات أدبية وفكرية وفدية (جزءان) المركز القومى للترجمة ٢٠١٠ .

التصحيح اللغوى: إبراهيم عبد التواب
الإشـراف الفنـى: حســـن كـــامـل

تدور هذه الرواية حول النهاية الفاجعة لأحد زعماء الحزب الشيوعى يدعى روباشوف المنشق الذى تمرد بأفكاره وليس بأفعاله على بشاعة الحزب الشيوعى وطغيانه. ورغم اقتناعه بسلامة وجهة النظر المناهضة لهذا الحزب فإنه آثر عن رضا وطيب خاطر أن يعترف بجرائم سياسية لم يرتكبها قط، الأمر الذى يذكرنا بظاهرة ضحايا محاكمات التطهير فى روسيا، ويثير قضية من أعوص القضايا فى تاريخ الاتحاد السوفيتى وهى: لماذا اعترف منشقون كثيرون على الحزب الشيوعى هناك بجرائم لم يقترفوها مطلقا؟ وما الحالة النفسية العجيبة والمعقدة التى جعلتهم يرتضون لأنفسهم الذل والمهانة والعار وينبذون شرف المقاومة والانشقاق فيقدمون قرابين التوبة والغفران إلى زعيم الحزب المعصوم أبدا من الخطأ؟!

والرواية لا تهاجم الشيوعية من منطلق رأسمالى أو حتى ليبرالى، بل تستخدم لغة الشيوعيين أنفسهم فى الهجوم عليها.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح